

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190407

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٩٠٤ / س - ت Accession No. ١٤٨٢٢
Author سنو بوس، شاکل
Title تاریخ الحضارة

This book **should** be returned on or before the date last marked below

تاريخ الحضارة

تأليف

المسيو شارل سنيوبوس
أحد أساتذة كلية السوربون في باريس



تعريب
محمد كرد علي
منشيء المقتبس

إدارة مطبعة الظاهر بالقاهرة

جملة للمعرب

بسم الله وبه ثقتي

هذا هو الجزء الاول من تاريخ الحضارة لمؤلفه العلامة المسيو شارل سيويوس احد اساتذة كلية السوربون بباريز شرح فيه الحضارة التي أثرت على كل امة من الامم منذ عرف التاريخ الى يومنا هذا . وفي هذا الجزء كلام موجز على الشعوب الشرقية القديمة كالمصريين والفينيقيين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود وكلام مطول على مدينة اليونان والرومان تصفح المؤلف مئات من الكتب حتى كتب كتابه جاء زبدة البردة وتوخى الايجاز والسهولة في معظم مصنفه والتع في حسن تنسيقه وتجويد اسلوبه فرأيت ان انقله من الافراسية الى العربية ليعم نفعه ابناؤها ويتنى في هذا السبق كما نبي في الغرب فإلله اسأل ان ينفع به ويمن بالتوفيق للمعرب الجزئين الآخرين من الكتاب وهو في الهداية القاهرة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٢٦ و ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٨

البشر والشعوب

علم خصوصيات الشعوب — يعمر الارض ناس قلما يتشابهون ،
يختلفون بالطول وهيئة الاعضاء والرأس وسياء الوجه ولون العيون والشعور
ويتباينون باللغات والذكاء والاحساس . وبهذا التمايز ينقسم سكان المعمور
الى عدة اقوام تدعى أجناساً . فالجنس مجموع ناس يتماثلون ويباينون جنساً .
آخر وما يمتاز به جنس عن غيره من العلامات العامة ويسمى طبائع وأخلاقاً
هو الذي يتألف منه مجموع خواصه . فيعرف الجنس الزنجي مثلاً بجلد
أسود، وشعور مجمدة، واسنان بيضاء، وأنف أفطس، وشفاه خنس، وفك
ضخم . ويدعى درس احوال الاجناس وما يتشعب عنها « ايتنوغرافيا »
أي علم خصوصيات الشعوب . وهو علم لم يرتق بعد لحدائه وضعه وما برح
مشوشاً منتشراً لكثرة مجموع خواص البشر وصعوبة التمييز بينها احياناً .

الاجناس — أخص الاجناس الجنس الابيض وهو يسكن أوربا وشمال إفريقيا
وغربي آسيا . والجنس الاصفر ينزل في آسيا الشرقية ومنه الصينيون والمغول
والترك والمجر . ومن دخل أوربا منهم من الفاتحين فبشرته صفراء وعيونه
خُرُز مقطبة ووجناته ناثثة ولحيته خفيفة . والجنس الاسود يقطن أواسط
إفريقية وهم الممتازون باديم اسود وأنف أفطس ووفرة كالصوف . والجنس
الاحمر يستوطن أمريكا ومنهم هنود تلك القارة حمر الاديم سبط الشعور

الشعوب المتحضرة — يُعدُّ أهل الجنس الابيض من المتحضرين
الا قليلاً أما سائر الاجناس فقد ظلوا على حالة الهمجية والبربرية كما كان الناس
قبل زمن التاريخ . قامت الشعوب المتقدمة على تخوم قارتي آسيا وإفريقية فقام

المصريون في وادي النيل والكلدان في سهل الفرات . وكلهم أهل فلح وحرث ألفوا الإقامة وجنحوا للسلم . أديمهم مشبع ، وشعرهم قصير أثيث ، وشفاههم مبرطمة ، ولا يعلم على التحقيق من أين منبعثهم . ولم تتفق آراء العلماء على تسميتهم فیدعونهم تارة كوشيين وأخرى شاميين . وقد انسلت من جبال آسيا بين القرن العشرين والخامس والعشرين ق . م عصابات من الرعاة أهل غارة وزعماء فتنة فانتشروا في أطراف أوروبا كافة وفي غرب آسيا . ويقسمهم العلماء الى قسمين آريين وساميين .

الآريون والساميون — ليس بين هذين الجنسین من علامة خارجية جلية فكلاهما من الجنس الابيض : اهلجية سحناتهم ، متناسبة أعضاؤهم ، صافية جلودهم ، أثينة شعورهم ، نُجَل عيونهم ، رقيقة شفاههم ، منتصبه أرتبتهم ، وهم في الاصل رعاة من سكان الجبال يألفون الارتحال والقتال . ساميهم من أرمينية ، وآريهم من وراء جبال حملايا ، وهم يمتازون بالعقل واللسان خاصة امتيازهم بالديانة قديماً . وقد وقع الاتفاق على تسمية الشعوب التي تتكلم لغة آرية بالآريين وهم الهنود والفرس في آسيا . والروم والطيان والاسبان والجرمان والسكندايون والسلافيون (الروس والبولونيون والصرب) والسلت (١) في أوروبا . والساميون هم الشعوب التي تتكلم لغة سامية وهم العرب واليهود والسوريون ؛ ومما ينبغي ان يعلم ان بعض الشعوب تتكلم لية آرية او سامية ولايست من الآريين والساميين في شيء ، كما ان الزنجي قد يتكلم الانكليزية وليس فيه عرق من الانكليز . وربما عددنا كثيراً من الاوريين في مصاف الآريين وليست اصولهم في الواقع الامن

جنس غلب عليه الآريون فاقبس لغاتهم على نحو ما اقتبس الفرس لغة العرب أيام غلبهم على أمرهم فهذان الاسمان الآريّ والسامي يطلقان اليوم على فريقين من الشعوب وليس جنسين حقيقيين . ولا بأس ان يقال بناء على هذا المعنى ان الشعوب المرتقية كانت كلها سامية وآرية فنشأ من الساميين الفينيقيون رجال البحار واليهود رجال الدين والعرب رجال الحرب . فسار فريق من الآريين الى الهند واذصرف آخر الى اوربا فنشأت منهم تلك الامم التي كانت ولا تزال في مقدمة العالم . ولقد امتاز الهنود في القديم بآرائهم العالية الفلسفية او الدينية واليونان بايجاد الصنائع والعلم والفرس والرومان بتأسيسهم في الشرق والغرب مملكتين عظيمتين من اضخم الممالك التي نشأت في الايام الخالية

وببدأ تاريخ الحضارة بالمصريين والكلدانيين حتى اذا كان القرن الخامس والعشرون للميلاد يصير عبارة عن تاريخ الشعوب الآرية والسامية

التاريخ

الاساطير — نقلت اساطير الاولين عن روايات متسلسلة ظالماتحدث الناس بها قبل ان يدونوها لذلك تراها مشوبة بحكايات وخرافات . فتحدث اليونان ان اقدم ابطالهم ابادوا الغيلان وقتلوا الجبارة وكافحوا الالهة وزعم الرومان ان روملس ربه ذئبة ورفع الى السماء وقص جماع الشعوب عن طفوليتهم اساطير من هذا القبيل لاثقة بها عند التمهيص مهماقدم عهداها

التاريخ — يبدأ التاريخ حقيقة لدن وجود اخبار صحيحة دونها اهل مكة وعلمو سماع . وليس هذا الدور واحداً في الكلام على الامم كلها فتاريخ مصر يبدأ قبل ثلاثة آلاف سنة ق . م وتاريخ اليونان يكاد لا يتعدى

الثمانمائة سنة ق . م وليس لالمانيا تاريخ يعرف الا في القرن الاول للميلاد ويعرف تاريخ روسيا منذ القرن الماشر وليس لبعض القبائل المتوحشة الى اليوم تاريخ في نشأتها

تقسيم التاريخ الكبيرة — يبدأ تاريخ الحضارة باقدم شعب متدن ويشتهى بابلانا فعنى القرون الماضية الدور العريق في القدم جداً ومعنى القرون الحديثة الدور الذي نحن فيه

التاريخ القديم — يبدأ التاريخ القديم بالامم القديمة المعروفة من المصريين والكلدانيين أي من نحو ثلاثة آلاف سنة ق . م ويم شعوب الشرق من هنود وفرس وفينيقيين ويهود ويونان ورومان وينتهي حوالى القرن الخامس ب . م بسقوط المملكة الرومانية

التاريخ الحديث — يبدأ التاريخ الحديث باواخر القرن الخامس عشر زمان اختراع الطباعة واكتشاف اميركا وبلاد الهندونضة العلوم والصنائع ويلم بذكر شعوب الغرب خاصة من اسبان واطليان وفرنسيس والمان وروس وأميركان .

القرون الوسطى — هي عبارة عن عشرة قرون مضت بين القرون القديمة والحديثة فلا هي قديمة لما اعتور الحضارة القديمة من الاضطلال ولا هي حديثة لان التمدن الحديث لم يتكون بعد . وهذا ما يدعى بالجيل المتوسط . مصادر تاريخ الحضارة القديمة — ليس في الوجود اليوم اشوريون ولا يونان ولا رومان فقد بادت الشعوب القديمة كافة وما خلوه من العادات هي فرست نستنتيه للبحث عن اديانهم وأخلاقهم وصنائعهم . والعادات هي الكتب والرسوم والآثار واللغات . هذه عدتنا في دراسة الحضارة

القديمة وهي تدعى مصادر لانا نستقي منها معلوماتنا . والتاريخ القديم يتفرع من هذه الاصول .

الكتب — وضع القدماء الكتب أيام عرفوا الكتابة فكان لبعضهم مثل الفرس واليهود والهنود كتب مقدسة وخلف الرومان واليونان توارىخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية . وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا اذ ليس لدينا كتاب اشوري ولا فينيقي أما ما بقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جداً . ولقد كان القدماء يكتبون ولكن أقل منا ولذلك كانت تأليفهم اندر ولم يكن لهم من كل مصنف إلا نسخ قليلة لما ان الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد وقد دثر غالب هذه النسخ أوضاع أو تعذرت قراءة ما بقي منه ويسمى علم حلها «باليوغرافيا» أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

المعاهد — أقامت الشعوب القديمة لانفسها معاهد مثلثان من مثل معابد لارباهما وقصور الملوكها وقبور لموتاهما وقلاع وجسور وقنوات وأقواس نصر . ولقد تهدم كثير من هذه المعاهد واستوصل وتجزأ بيد العدو أو بيد سكان البلاد ومنها ما لم تقو الغير على تقويض دعائمه وما فتئت ماثلة للعيان متداعية مثل القصور العتيقة لا تقطاع الايدي عن تعودها . وقد بقيت بقية يعلم منها ما كانت عليه سالفاً . وما زال بعض هذه المعاهد فوق التراب كألاهرام في مصر ومعابد ثيبة وجزيرة فيلا وقصور البرسبوليس في فارس والبارثيون في اليونان والكوлизه في رومية والبيت المربع وجسر الحرس في فرنسا . وان السائح لهدنا لينظر الى هذه الآثار نظره لاثر حديث . وقد ردم أغلب هذه المعاهد على التدرج بتراب أو رمل أو فتات أرضية وانقاض فينبغي

تخليصها من هذا الساف الكثيف أو حفر أرضها وكثيراً ما تكون عمقة للغاية . ولم يعثر على القصور الاشورية الا بخرق آكام وتلال . وقد حفرت حفرة عمقها اثنا عشر متراً للوصول الى قبور ملوك ميسينا

وبعد فان عفاء هذه الخرائب لم يكن بصنع الدهر وحده فلا يبشر اليد الطولى في ذلك . ولم يكن القدماء ليتعبون مثلنا في التقدير والقياس لاقامة البناء . وما عنوا بنزع الردم من أماكنه بل كانوا يركمون الانقاض ويننون عليها ولا ينزعونها حتى اذا أشرف البناء الجديد على السقوط تنضم انقاضه الى اطلال اخواتها القديمة وهكذا تتألف طبقات عديدة من الانقاض . وقد جاز أحد السياح المدعو شيلمان بحفرة في مكان مدينة تروادة خمس طبقات من الاطلال اذ كان ثمت خمس مدن خربة كلها واعتقها على عمق خمسة عشر متراً . وما برحوا يعثرون في رومية في الاحايين على ثلاث بنايات منضدة بعضها فوق بعض وقد تراكت عليها الاطلال فعلا التراب في سفح التلال بضعة أمتار

بقيت مدينة برمتها لم تمسها طوارق الحداث وذلك بحادث طبيعي جرى عام ٧٩ للمسيح وهو ان بركان فيزوف في ايطاليا قذف سيلاً من الحمم مائنة أمطرت رماداً فأنكشنت للحال مدينتان رومانيتان كانتا مدفونتين وهما هيركولانوم وپومبيه . كانت الاولى تحت الحمم السائلة والثانية تحت الرماد . وقد أحرقت الحمم المتنازع وغشاها الرماد وحفظها من الهواء فبقيت سالمة . وكلما أزيح الرماد تظهر مدينة پومبيه للعين على نحو ما كانت عليه منذ ثمانية عشر قرناً . وانك لترى في بلاطها بمدججرات العجلات وآثار سير المركبات وصوراً خُطت بالزعم في الحيطان ونقشاً واثناً وماعوناً

وخبزاً وجوزاً وزيتوناً في الدور والمساكن وهياكل عظام من دهمتهم الكارثة
 مبعثرة مبددة . وبهذا عرف القاري أن الآثار والمعاهد تفيدنا كثيراً
 في الوقوف على حالة الشعوب القديمة . ويدعى علم الأزمنة القديمة «أركيولوجيا»
 الرسوم — نعني بالرسوم كل ما يشمل الخطوط عدا الكتب فمعظم
 الرسوم زبرت على الحجر وحفر بعضها في صفائح من الفلز ووجد منها في
 مدينة بومبيه مازبر على الجدران بالأصباغ أو بالنحج . وأن بعض هذه
 الرسوم لتمثل تذكارات وقائع أو رجال كما هو جار الآن عند الأفرنج فيما
 يقيمونه من تماثيلهم وبنائاتهم . هكذا نرى الإمبراطور اغسطس دون
 حياته على معهد انسير ومعظم هذه الرسوم عبارة عن كتابات زبرت على
 القبور ويمائل بعضها الاعلانات لمهدنا فتحتوي على قانون أو نظام تراد
 إذاعته بين القوم . ويدعى علم الرسوم «إيكرافيا»

اللغات — تفيد اللغات التي نطقت بها الشعوب القديمة في بيان تاريخهم
 فإذا فهم الباحث كلمات من لغتين مختلفتين ينجلي له أحياناً أن أصل هذين
 اللسانين واحد ويسجل بأن الشعوب التي تتكلم بها خرجت من نبتة واحدة .
 ويدعى علم اللغات «لينكستيك»

النواقص — لا يذهبن ذاهب إلى أن الكتب والمعاهد والاطلال
 واللغات تكفي للاحاطة بتاريخ القرون السالفة فإن فيها تفاصيل جمة يمكن
 الاستغناء عنها وما ترغب نفوس الباحثين في استبطان حقيقته قد يعز عليها
 ويفر منها . وما برح العلماء يحفرون ويحلمون ويظفرون كل يوم باطلال
 ومعاهد لم تعرف من قبل وقد بقيت مع هذا نواقص وسيبتي كذلك
 أبد الدهر

مصر

بلادها - مصر عبارة عن وادي النيل وهي في مضطرب ضيق خصيب
ممتد على ضفتي النهر بين سلسلتين من الصخور طولها ٢٤٠ فرسخاً ويكاد
عرضها لا يتجاوز خمسة فراسخ وعند منقطع الصخور تبدأ الدلتا . وهناك
سهل واسع تتخلله شعب النيل وترعه . فمصر كما قال هيردوتس أبو التاريخ
هبة من النيل .

النيل - يزخر النيل كل سنة في الانقلاب الصيفي بمصارات ثلوج بلاد
الحبشة فيفيض على أراضي مصر العطشى يرتفع ثمانية أمطار واحيائاً عشرة
فتصبح البلاد كالبحيرة وتبرز القرى المشيدة على الآكام كأنها جزيرات ثم
تنخفض المياه في أيلول (سبتمبر) ويعود النهر في كانون الاول (ديسمبر) الى مجراه
الاصلي وقد ترك في كل مكان طبقة من الطين خصبة وهي الاء بلز وتسمى
الطمي . هذه الرواسب تقوم مقام السماد ويكاد يزرع في التربة الزدية بدون
حرث . فالنيل اذا يأتي مصر بالماء والتربة واذ اتحول عنها تعود مصر كالبلاد المحيطة
بها قاعاً صفصفاً، ورمالاً مجدبة، ما امطرتها السماء وابلا ولا رذاذاً . ولم يجهل
المصريون فيما مضى ما يجوده النيلهم من الخيرات الحسان وهاك نشيداً كانوا
ينشدونه تمظيماً له : « سلام عليك أيها النيل أنت الذي تجلي على هذه
الارض وتأتي بسلام فتحي موت مصر . أنت اذا انجليت تملأ الارض
طرباً ، والقلوب بشراً ، فينال كل مخلوق قوته ، وكل سن ماتقضمه ، رحمة
انك تأتي بالارزاق الطيبة وتنتج كل خير ومير وتبت للبهائم مرعاها

غنى هذه البلاد - مصر على التحقيق واحة في قفر إفريقية تنبت تربتها البر والفول والعدس وأنواع البقل . والنخيل فيها غابات وآجام . وفي تلك المروج التي يرويها النيل بمائه ترعى قطعان الغنم والثيران والعنز والاوز وتكاد مساحتها تساوي بلاد البلجيك (٢٩٤٠٠ كيلو متر مربع) ومصر اليوم تقوم بأود ١١ مليوناً (١) من السكان وهي نسبة لاتعهد في أوربا على ان مصر كانت أهلة بالسكان قديماً أكثر منها اليوم روايات هيروdotس - عرف اليونان مصر أحسن من معرفتهم سائر الممالك الشرقية فزارها هيروdotس أبو التاريخ في القرن الخامس ق . م ووصف في تاريخه فيضان النيل واخلاق السكان وازياءهم ودينهم وذكر حوادث من تاريخهم وحكايات لقنها من أدلائه . وتكلم ديودور وسترابون على مصر أيضاً . بيد ان كل من ذكروها رأوها في انحطاط فلم يتيسر لهم ان يعرفوا شيئاً عن قدماء المصريين .

/ شامبوليون - دعت حملة الفرنسيس على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) الى فتح أبواب الديار المصرية للعلماء فهرعوا اليها يزورون الاهرام وخرائب ثيبة عن أمم ويعودون منها وقد حفل وطابهم بالصور والآثار . ولم يكن لاحد ان يحل الخط المصري المسمى بالهيروغليفي . وتوهم الناس ان كل خط من هذه الكتابة يقوم مقام كلمة حتى اذا كان عام ١٨٢١ خالفهم شامبوليون احد علماء الفرنسيس وعمد الى طريقة أخرى وجاء أحد الضباط من رشيد بأثر ذي خطوط ثلاثة كانت الخطوط الهيروغليفية المسطورة بها مترجمة الى الرومية . وهذا الاثر يمثل الملك بطليموس محاطاً بدائرة . فتوصل

(١) في الاصل زهاء خمسة ملايين نسمة ونصف مليون

شامبوليون بهذا الاسم الى الاطلاع على حروف PTOLMIS ولدى مقابلتها باسماء ملوك آخر وكانت ايضا محاطة بدائرة اكتشف حروف الهجاء . ولما تسرت له قراءة الخطوط الهيروغليفية ظهر له انها كتبت بلغة تشبه القبطية وهي اللغة التي شاعت بمصر على عهد الرومان وعرفت حق معرفتها .

علماء الآثار المصرية - جاء بعد شامبوليون زمرة من العلماء توفروا على دراسة أحوال مصر واكتشاف جليها وخفيها وتدعى هذه الفئة من العلماء اجبتولوك أي المشتغلون بالآثار المصرية ولهم رصفاء في ممالك أوروبا كافة . وقد أجرى ماريت (١٨٢١ - ١٨٨١) من المشتغلين بالآثار المصرية على نفقة خديوي مصر . ما يقتضي من الحفريات وأحدث متحف بولاق . وأنشأت فرنسا في القاهرة مدرسة لتعليم الآثار المصرية ناطت ادارتها بالمسيو ماسبرو .

الاكتشافات الحديثة - لا يعثر في بلد من بلدان الارض على خبايا ثمينة كخبايا مصر ودفائها لان المصريين كانوا ينون قبورهم أشبه بدور يضعون فيها ما يقتضي للميت من ضروب الامتعة والاثاث والرياش والسلاح والطعام وقد غصت البلاد بالقبور الطافحة بهذه الذخائر والاعلاق . وساعد اقليم مصر الجاف الهواء على حفظ هذه الامتعة سالمة بعد مضي اربعة او خمسة آلاف سنة . فلم يترك شعب من الشعوب القديمة أثراً كآثار قدماء المصريين وما عرفنا شعباً معرفتنا له .

المملكة المصرية

قدم الشعب المصري - قال كاهن مصري لهيودتس : انتم معاشر اليونان اطفال . كلام يفهم منه ان المصريين كانوا يرون انفسهم أقدم أمم العالم فقد قامت ست وعشرون سلالة ملكية الى عهد الفتح الفارسي سنة ٥٢٠ ق . م ترتقي أولها الى أربعة آلاف سنة . وكانت مصر دولة في خلال هذه الاربعين قرناً فجعلت منفيس في بلاد الصعيد عاصمتها اولاً الى عهد السلالة العاشرة (وهو دور الدولة القديمة) ثم صارت مدينة ثيبة في مصر العليا (وهو دور الدولة الحديثة)

منفيس والاهرام - بنى مدينة منفيس أول من ملك مصر وسورها بسور منيع فبقيت سالمة من بوائق الايام زهاء خمسة آلاف سنة ثم أخذ السكان أحجار انقاضها في القرن الثالث نشر وبنوا بها مساكن القاهرة وما تركوه منها أتى عليه النيل وسدل دونه حجاباً . أما الأهرام فلا تبعد كثيراً عن منفيس ويرد عهدها أيضاً الى الدور القديم وهي قبور ثلاثة ملوك من السلالة الرابعة وعلو اعظمها ١٤٧ متراً عمل في بنائه مئة الف عامل مدة ثلاثين سنة . وقد اقيمت سدود منحدره قليلاً لرفع الاحجار الى شاهق ثم خربت التمدن المصري - يدل ما يستخرج من قبور تلك العصر من هياكل وصور وأدوات على أن هناك شعباً متمدناً . فقد عرف المصريون قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لليلاد حرارة الارض ونسج الثياب وتطريق المعادن والنقش والرسم والخط وكانت لهم ديانة منظمة وملك وادارة . على حين كانت الامم النبية وهم الهنود والفرس واليهود واليونان والرومان في

حالة من الحمجية مأثورة مذكورة .

ثيبة - خلفت ثيبة مدينة منفيس فصارت عاصمة البلاد على عهد السلالة الحادية عشرة ولم تزل خرائبها المدهشة في لوح الوجود وهي ممتدة على ضفتي النيل ومحيطها نحو اثني عشر كيلو متراً . وعلى الشاطئ الشمالي صف من القصور وهي لقصر والكرنك تبعد بعضهما عن بعض نصف ساعة بنيت كلتاهما وسط الخرائب ويجمع بينهما شارع ذو صفين من تماثيل أبي الهول وكان هناك قديماً أكثر من ألف أبي الهول . وأعظم هذه المعابد الخربة معبد عمون في الكرنك أحيط به سور محيطه ٢٣٠٠ متر . وان طول اشهر قصر (ايبوستيل) وأعظمه في العالم ١٠٠ متران وعمقه ٥٣ متراً وهو حجم عمود فاندوم . وكانت ثيبة عاصمة ومدينة مقدسة ومقر الملوك ومسكن الكهنة نحو ألف وخمسمائة سنة

فرعون - يعتبر ملك مصر المعروف بفرعون ابن رب الشمس ومثاله على الارض ويزعمون انه كان هورباً . وقد شوهدت صورة الملك رعمسيس الثاني جالساً بين ملكين . فالملك يتعبد انساناً ويعبد ملكاً . وفرعون سلطة مطلقة على البشر لربوبيته فيحكم حكم المولى على كبار سادات قصره وعلى المقاتلة ورعاياه كافة والكهنة في عبادتهم إياه يلتفون من حوله ويحرسونه فيكون رئيسهم الكاهن الاعظم للرب عمون المستأثر بالحول والطول دونه وقد يحكم باسم الملك ويخلفه في الاحاين

الرعايا - يملك مصر من أعلاها الى أسفلها الملك والكهنة والجند والموالي وما عداهم فوصفاء يستخدمونهم في حرق الارض وعمال الملك يلاحظونهم ويقبضون ثمار عملهم بضرب العصي أحياناً واليك ما كتبه

أحد هؤلاء الموظفين الى صدق له : ألا تذكر حالة الفلاح الذي يحرق الارض فان جابي الاموال يقف على الرصيف المعد لجباية عشر الغلات وثلة من العمال بمصيدهم يتبعونه وزنوج ماسكون بايديهم سعفات النخل يصرخون بصوت واحد : البدار البدار الى تسليم الجبوب . واذا لم يكن للفلاح ما يؤديه من الغلات يلقونه على الارض ويشدون وثائه ويجرونه في التربة رأسه الى تحت وقدماه الى فوق

كيفية حكم مصر — كان الشعب المصري أبداً ولم يزل بعد فرحا لا يهتم خاضعاً خانعاً أشبه بالطفل المستسلم الى ظلمه . وكانت العصافي هذه البلاد أداة التربية والحكومة حتى كان أعوان الملك يقولون : (خلق ظهر الفتى ليضرب فهو لا يمتثل الأمر الا اذا ضرب) ذكر أحد سياح الفرنسيين انه كان واقفا ذات يوم أمام خرائب ثيدة فهتف قائلاً : ليت شعري كيف بنوا كل هذا . فاستضحك دليلاً وقال ماسكاً بيده مشيراً الى نخلة : « بهذه بنوا هذا اجمع » اعلم يا مولاي انه اذا كسرت مئة ألف سعفة من سعف النخل على ظهر من اكتافهم عربانة أبداً تبني قصور كثيرة ومعابد اعزال المصريين — فلما خرج المصريون من بلادهم لما انهم حاذروا ركوب البحر ولذلك لم تكن لهم ملاحاة وما اتجروا والشعوب الاخرى ولم تعرف لهم بحرية الا على عهد الدولة السادسة والعشرين وما كانوا أمة حربية قط . ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال ديدنهم فبعثوا البعث الى زنوج الحبش تارة والى القبائل السورية أخرى فاذا غلبوا صوروها صورة النصر على جدران قصورهم ومتى قتلوا راجعين من غزاتهم يأتون

بالاسارى فيستخدمونهم في بناء المعاهد على انهم ما حرزوا قط نصراً مؤزراً
ولا فتحوا فتحاً مبيناً فدهم الاغيار مصر اكثر مما حمل المصريون على الاغيار

ديانة المصريين

يقول هيرودتس ان المصريين من أشد البشر تديناً ولا يعرف شعب
بلغ في التقوى درجتهم فيها فان صورهم بجملتها تمثل ناساً يصلون أمام رب
وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسك .

الارباب المصرية - رب الشمس رأس الارباب (الالهة) عندهم
وهو الخالق المحسن العليم الكائن منذ البدء له امرأة وابن عريقان مثله في
الربوبية وكان المصريون يتعبدون بهذا التثليث الذي تختلف اسماؤه وان
اتحدث مسميته فكان اهل كل إقليم يسمى كلاً من هذه الاسماء الثلاثة باسم
يختلف عن الآخر . ففي منفيس سمي الاب فتاح والام سيخت والابن
ايموتس وفي أيدوس سموها أوزيريس ، ايريس ، وهوروس ، وفي ثيبة
عمون ، وموت ، وشونس . ثم اختار اهل كل إقليم أرباب الاقاليم الأخرى
وقد يشتقون من كل رب تثليث أرباب أخرى وهكذا تعدد الارباب
وتشوش الدين

اوزريس - لهذه الارباب تاريخ وهو تاريخ الشمس فكان ذالكوكب
يتراءى للمصريين كما يتراءى لغالب الشعوب الاصلية انه أقدم المخلوقات
وبعبارة أخرى أنه من الارباب فاوزيريس أي الشمس قتلها سميت رب الليل
وايزيس القمر امرأته تبكيه وتدفعه وهوروس ابنه الشمس الساطعة يأخذ
ناره قاتلاً قاتله

عمون وا - هو رب ثيبة عندهم صور مجتازاً السماء كل يوم في قارب

وأرواح الموتى تغدق به بمجازيف طويلة فالرب يقف في المقدم مستعداً لضرب
 العدو برمح . وهاك النشيد الذي كان يتغنى به تعظيماً له . « السلام عليك انت تهب
 محسناً انت تهب صادقاً يا مولى الاقبيين انت تطوف السماء من عل وأعدائك
 هالكون . السماء في أنس والارض في فرح والارباب والناس في عيد وكلما
 اجتمعت لتمجد « را » يشاهدونه في قاربه وقد كسر العدى . يارا هب فرعون
 حياة طيبة وامنحه ما يقوته من خبز ويرويه من ماء وطيب شعره وعطر
 اردانه . »

أرباب رأسها رأس حيوان — مثل المصريون أربابهم في صورة آدمية
 تارة وعلى مثال البهيمة أخرى . ولكل رب حيوانه فيتجسد فتاح في الجمل .
 وهوروس في الباشق . وازوريس في النور . وتختلط الصورتان طوراً في انسان
 رأسه رأس حيوان او في حيوان رأسه رأس انسان . ولرب عندهم أن
 يكون ذا أربع صور وأشكال فيكون هوروس مثلاً باشقاً او انساناً برأس
 باشق أو باشق برأس انسان

حيوانات مقدسة — لا يعلم لماذا كان يعنى المصريون بهذه الاشارة
 من اتخاذ الحيوانات التي تشبه الارباب مقدسة مباركة مثل الثور والجمل
 وايبس (طائر طويل الرجل) والباشق والقط والتمساح فيتوفرون على إطعامهم
 وحمايتهم . فقد قتل أحد الرومانيين في القرن الاول قبل الميلاد قطاً في
 الاسكندرية فنار الشعب وقبض عليه فذبجوه رغم ارادة الملك وشفاعة فيه
 فعلوا ذلك علي حين يرهب المصريون بأس الرومانيين كثيراً وكان المصريين
 رب يعبدونه في كل معبد وقد قص سترابون كيفية زيارته تماشياً مقدساً
 في ثيبة فقال : كان هذ الحيوان رايضاً على شط غدير فاقرب منه الكهنة

وتقدم اثنان منهم ففتحاه وجاء ثالث وحشاه حلويات وسمكاً مشوياً
وشراباً من عسل مصفى

الثور ايسس — اجل هذه الحيوانات المربوبة او المؤهلة الثور ايسس فانه
كان يمثل اوزيريس وفتح معاً ويعيش في منفيس في مصلى له يخدمه الكهنة
فيه حتى اذا مات هذا الثور يكون حاله حال اوزيريس (رب الشمس)
فيجنط وتجعل مومياءه في ناووس اما قبر أوسارهابي فهو من المعاهد الهائلة
وقد فتح ماريت الفرنساوي مقبرة السرايوم عام ١٨٥١

عبادة الموتى — عبد المصريون أيضاً أرواح الموتى ويظهر انهم كانوا
يعتقدون أولاً ان لكل انسان قريناً (كا) فاذا مات يخلفه قرينه في حياته
وهو اعتقاد اعتقده كثير من الشعوب المتوحشة وكان القبر المصري يدعى
قديمًا « بيت القرين » وهو عبارة عن مكان منخفض منظم كالغرفة يزين من
اجل القرين بضروب الآثار من كراسي ومناضد وسرر وصناديق وأصونة
واغشية وأقشة واللبسة وادوات زينة واسلحة ويضعون تارة مركبة حربية
وما شاء للذته من تماثيل وصور وكتب ولطعامه من بر وكل ما حلا بالعين
وحلي بالنفم ويضعون فيه طوراً قرين الميت وهو تمثال من خشب او حجر صنع
على صورته ومثاله ثم يسور مدخل الناووس فيبقى فيه القرين ويعنى الاحياء
بامره فيجلبون له طعاماً او يتوسلون الى أحد الارباب ان يرزقه طعاماً على
نحو ما تراه في هذا الرسم المزبور: على الحجر (قربان لازوريس ليعطي زاداً من خبز
وشراب وثيران وأوز ولبن وخمر وجمعة ولباس وعلطور وكل ما طاب وصفا
الى المتوفى فلان)

حشر الارواح — انشأ المصريون منذ السلالة الحادية عشرة يعتقدون

ان الروح تنفصل عن الجسد وتلحق باوزيريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم فيما يظهر . هناك يتصدر اوزيريس في محكمته وقد أحاط به اربعة وعشرون محكماً فيؤتى بالروح امامهم فتحاسب عما قدمته بين يدي نجواها في الحياة فتوزن اعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب . فيهتف الميت قائلاً . « ياقلب اني ورثتك عن أمي منذ درجت على الارض فلا تقم علي شاهداً تتجني علي أمام الرب المتعال » فالنفس الشريرة تعذب قروناً ثم تملك والنفس الطيبة تطير احقاباً وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتنفى فيهم

الموميات — تستطيع الروح في خلال هذه الزيارة الدخول في الجسد لتستريح ولذا اقتضى ان يظل الجسد سليماً . ومن اجل ذلك تعلم المصريون طريقة تحنيط الجثث فيملأون الجثة عنبراً وينطسونها في مستحم من النطرون ويمصبونها بعصيات فتصير مومياً . هكذا توضع الموميا في تابوت من خشب اوجبس وتودع في القبر مصحوبة بما يقتضي لها من ضروريات الحياة

كتاب الاموات — كان يوضع بجانب الموميا كتاب صغير اسمه كتاب الموتى يذكر فيه ما ينبغي للنفس أن تقول في العالم الثاني دفاعاً عن نفسها امام محكمة اوزيريس وهو : « ما ارتكبت خيانة وما عذبت أيماً وما ارتكبت محرماً ولا ألفت البطالة ولا وشيت بالبعد الى مولاه ولا حبست الخبز عن المعابد ولا سرقت عصيات الموتى ولا طعامهم ولا طففت مكايل الحبوب ولا صدت الحيوانات المقدسة ولا قبضت الاسماك المقدسة . اطعمت الجوعان واسقيت العطشان وكسوت العريان وقدمت الضحايا

للارباب وصنعت الوضائم للموتى اهـ ، وهنا تستبان حكمة المصريين وهي الاحتفاظ بالرسوم والتكاليف واحترام ماله علاقة بالارباب وان يكون المرء مخاصاً محترماً محسناً

الصنائع

الصناعة — المصريون أول من مارس الصنائع التي تـمس حاجة الشعب المتحضر اليها فكانت الصور في القبور من عهد السلالة الاولى أي من نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تمثل ناساً يحرثون ويزرعون ويحصدون ويدرسون ويذرون الحبوب وقطعاناً من ثيران وخرافاً واوزاً وخنازير واعياناً حسنة ثيابهم واحتفالات واعياداً يحتفل فيها بضرب العيدان أي كما كانت حياة هذه الامة بعد ثلاثة آلاف سنة حذو القذة بالقذة . وقد عرف المصريون لذلك العهد صنع الذهب والفضة والقلز والاسلحة والحلي والزجاج والخزف والمينا ونسج الثياب من صوف وكتان وانسجة شفافة او موشاة بالذهب

عقود الابنية — كن المصريون اقدر البنائين القدماء في العالم أقاموا المعاهد العظيمة حتى صارت كأنها خلدة بحيث لم يتو الزمن لعهدنا على تقويضها وتبيدها ولم يذوا مثلاً ما يوتاً لسكن الاحياء بل كانت مبانهم خاصة بالارباب والموتى فينبون لهذا الغرض المعابد والمقابر . ولم يبق من مساكنهم الارسوم محيلة أما تصور الملوك فلم تكن على قول اليونان غير خانات بالنسبة للقبور . ذلك لان المسكن يبنى ليأوي اليه الانسان في حياته والقبور يبقى خالداً على الدهر القبور — أصل الهرم الكبير قبر ملوكي والقبور القديمة هي من هذا النوع . وترى في مصر السفلى الى اليوم اهراماً مصطفة كالشوارع أو

مبددة هنا وهناك تختلف في الكبر والصغر . ثم صارت تقام القبور تحت الارض يعمر بعضها تحت التراب وينحت الآخر من حجر الصوان « الكرانيت » في الجبال ولكل جبل قبور جديدة . وكانت مدينة الموتى أي مدافهم على مقربة من مساكن الاحياء ولكنها ازهى وأوسع

المعابد — يتطلب الارباب كذلك مساكن طيبة خالدة وتتألف معابدهم من هيكل جميل وهو مأوى الرب تكتنفه القصور والحدائق وغرف الكهنة وحاشيتهم ودروج جواهرهم وأدواتهم وملابسهم وقد صنع مجموع هذه الابنية المسورة في عصور كثيرة . فاشترك ملوك من جماع السلالات المصرية في تشييد معبد عمون في ثيبة من السلالة الحادية عشرة الى السلالة الاخيرة ومن العادة ان يفتح في أول المعبد باب عظيم محني الجوانب وتقام على طرفيه مسلتان مبنيتان بشعاف الصخر مذهبة الاطراف أو تمثالان من الحجر على مثال جبار جالس . وقد يوصل الى المعبد من طريق طويل نصبت في جوانبه تماثيل ابي الهول مصنوعاً من الحجر على صفين . هذه الاهرام والمنحنيات والتماثيل وأبو الهول والمسلات تنبيء بما بلغه المصريون من العناية بعقود الابنية وكلها نخبة قصيرة عميقة بحيث تبدو هذه المعاهد ضخمة لا يلبسها الدهر ولا تفنيها الغير

صناعة النحت — حاكى النحاتون من المصريين الطبيعة بنقوشهم . وان الناظر ليدعش من أقدم التماثيل لما فيها من الحياة والبساطة ولا شك انها كانت صور الموتى . ومن هذا الجنس صورة ذاك العامل الجاثي المحفوظة في متحف اللوفر بفرنسا . وعلى عهد السلالة الحادية عشرة تقيد النحات بقاعدة مقررّة دينية فلم يعد يمكنه تمثيل الجسم الانساني على حسب ما يظهر

له وأخذت التماثيل منذ ذاك العهد تتشاكل وغدت السوق متآزية والارجل ماتفية والاذرع مشتبكة على الصدور والهيئة غير متحركة لكنها مهية وابدأ ذات جلال ومتحدة في المنوال فانقطعت هذه الصناعة عن محاكاة الطبيعة وغدت رمزاً متفقاً عليه

الرسم — استعمل المصريون اصباغاً لاتنصل بقيت باهية زاهر ذبمد مضي خمسة آلاف سنة عليها . على انهم لم يعرفوا غير تلوين الرسم وظلوا ولا خبرة لهم بتوزيع الالوان ولا رسم الظلال والاشباح البعيدة . وكان للرسم كما للنقش قواعد دينية مطردة فاذا عرض على صانع ان يرسم خمسين شخصاً يصورهم على هندام واحد ونظام واحد .

الآداب — للمصريين آداب خاصة بهم فقد عثر في النواويس على كتب طب وسحر وزهد كما عثر على قصائد ورسائل ورحلات وروايات مصير التمدن المصري — احتفظ المصريون بآدابهم ودينهم وصنائعهم الى ما بعد سقوط مملكتهم فخصموا للفرس ثم لليونان ثم للرومان ولم يطرحوا شيئاً من عاداتهم القديمة ولا نسوا خطهم ومومياءهم وحيواناتهم ثم دثر التمدن المصري ببطء بين القرن الثالث والثاني ب م

الاشوريون والبابليون بلاد الكلدان

وصفها — ينبجس من قم جبال أرمينية المغطاة بالشلوج نهران سريع جريهما بعيد غورهما وهما الرافدان دجلة والفرات الاول من الشرق والثاني من الغرب . يتقاربان أولاً ثم يتباعدان عند بلوغهما السهل فيستقيم دجلة في جريته وينعطف الفرات في محاري الرمال ثم يجتمع النهران قبل أن يصلا الى البحر . فالبلاد التي يجتازها هذان النهران هي بلاد الكلدان . وهي سبب من صلصال تمطره السماء قليلا وتشدد فيه الحرارة والقيظ بيد أن الانهار تسقي بجداولها هذه الارض الصلصالية فتصيرها من أخصب بقاع الارض وانبث قيعانها . وان حبة القمح والشعير لتأتي مثتين وفي أعوام الرخاء ثلثمائة والنخيل في تلك البلاد غابات غيباء يستخرج منه الخمر والعسل والعاجين

الامة الكلدانية — باكرت الحضارة بلاد الكلدان في العهد الذي باكرت فيه مصر فسكنتها شوب . تمدنة . وتدهاجر اليها عدد من الاجناس من أصقاع كثيرة فاجتمعوا وامتزجوا في هذه السهول الفسيحة الارجاء . جاءها من الشمال الشرقي ناس من التورانيين أهل اللون الاصفر وهم بشبهون الصينيين وأتاهم من الشرق طائفة من الكوشيين ولونهم أسمر فاتم بهم أنساب المصريين ونزل اليها من الشمال فئة من الساميين وألوانهم صفية وهم أقرباء العرب فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج

✧ مدنها — زعم كهنة الكلدان ان ملوكهم تبسطوا في مناحي الساطعة منذ مائه وخمسين الف عام وهو زعم خرافي يمدرون عليه لان الحامل لهم عليه توغل مملكة الكلدانيين في القدم . هذه الارض تغلها هضاب وآكام

كلها كومة أنقاض من بقايا بلد غفته طوارق الدهر . وقد فتح كثير منها
واخرجت منه عدة دفائن مثل « أور » و « لارسام » و « بال ايلو » وظفر
الباحثون بمدة آثار . وما برح أمر هذه الشعوب مستوراً عن الانظار مجهولة
حقيقتهم على أرباب الافكار على انه من المأمول أن يظفروا بكتابات جديدة
في الاماكن الكثيرة التي لم تتناولها الايدي بالحفر واستخراج الدفائن . وبعد
فقد دعت هذه الامم نفسها بالسوميريين والاكاديين وانقرض ملكهم
حوالى سنة ٢٣٠٠ قبل المسيح وربما كانت اذ ذاك في إبان قدمها فيرد
عهدا اذا آلى ثلاثين قرناً قبل الميلاد على الاقل

الاشوريون

أشور — هذه البلاد واقعة وراء بلاد الكلدان على شاطئ دجلة
وهي مخصبة التربة قائمة على تلعات كثيرة فيها وأحاديث . تحترقها هضاب
وتغلغلها صخور . شالج فيها السماء في الشتاء لقربها من الجبال وتهب عليها
الاعاصير في الصيف

أصولهم — زخر ببحر العمران في بلاد الكلدان فكان فيها امصار
عاش فيها الاشوريون خاملين في جبالهم وقد أغار ملوكهم بنجيوشهم
الجرارة في القرن الثالث عشر على السباب والفدافد فاسسوا مملكة ضخمة
عاصمتها نينوى

أساطير قديمة — لم نكد نعرف عن الاشوريين منذ أربعين سنة الا
قصة ذكرها ديودورس الرومي من أهل جزيرة صقلية وقيل أن نينوس
بنى مدينة نينوى وافتتح آسيا الصغرى جملة واستخضعت امرأته سميراميس
بلاد مصر وكانت من الارباب فاستحالت بمد حمالة فخلفها ملوك خاملون

مدة ١٣٠٠ سنة . حوصر آخرهم في عاصمته واسمه سارداناپال فحرق نفسه ونسأه الى ما شا كل ذلك من الاقاصيص التي قل فيها الصدق واعوزت كلمة الحق

نينوى - هذا ما عرف عن مملكة اشور القديمة الى ان اكتشف المسيو بوثا قنصل فرنسا في الموصل سنة ١٨٤٢ اطلال قصر عظيم بالقرب من قرية خراساباد الحقيرة وقد غشيتها رمال صيرتها راية . وهذه هي المرة الاولى التي شوهدت فيها الصناعة الاشورية بمظهرها ووجدت الثيران المجنحة بالاحجار سالمة ماثلة على باب القصر . وقد جي بها الى باريز فجعلت في متحف اللوفر . ولقد استلفت بوثا بحفرياتة أنظار أوروبا فانفذت بعثات كثيرة وخصوصاً الانكليز . توفر بالاس وياارد على الحفر في آكام أخرى فاكشفت قصور غير هذه . سللت هذه الخرائب لجفاف الهواء في تلك الارعاء وبما غشيتها . بن طبقات التراب . ثم انه عثر على جدران مغطاة بنقوش بارزة وصور وتماثيل وكتابات كثيرة فتسنى درس حال تلك الممارات في اماكنها وأخذت عنها صور المعاهد والنقوش . وأول ما اكتشف قصر خراساباد وهو الذي بناه الملك سراغون مكان نينوى عاصمة ملوك اشور وهي قائمة على عدة هضاب يحيط بها سور ذو ابراج مربع الاضلاع ذرعه ٢٦٠ غلوة (نحو ٤٣ كيلو متراً) وقد بني خارج الجدران بالقرم ودخله تراب مهيل . أما دور المدينة فقد دثرت ولم يبق منها أثر ضئيل ولا رسم محيل . بيد انه ظهرت عدة قصور شادها غير واحد من ملوك اشور . وقد ظلت نينوى عاصمة الملوك الى ان اوغل الماديون والكلدانيون في احشاء مملكة اشور ومزقوها شذر مذر .

كتابات القرمذ - يتألف كل حرف في الكتابات الاشورية من مجموع علامات على شكل سهم اوزاوية ولذلك دعي هذا الخط بالخط المسماري وكانوا يستعملونه خنجراً مثلث النصل في آخره حد مثلث الاضلاع لرسم هذه العلامات يبلونه في صحيفة من الخزف الرطب ثم يدخلونه التنور فيصير صلباً لا ينمحي أثره . وقد كشفت في قصر اسوربانيال مكتبة تامة من الصفائح قام فيها القرمذ مقام الورق

الخط المسماري - غالى جملة من رجال العلم في حل هذا الخط أعواماً كثيرة فتعذرت عليهم قراءته اذ كان لاول عهده يستعمل في كتابة خمس لغات متباينة وهي الاشورية والسوسية والمادية والكلدانية والارمنية . دع عنك الفارسية القديمة . وكانت تلك اللغات مجهولة فدامت اللغة التي نتكلم عليها الآن مشوشة كل التشويش لاسباب عديدة أهمها تركبها من خطوط رمزية ينوب كل منها مناب كلمة مثل «شمس» «رب» «سمك» ومن خطوط ذات مقاطع . ولان لهذه اللغة مائتي خط ذي مقاطع يتشا كل بعضها مع بعض ويسهل التباسها وإشكالها ولان الخط الواحد كثيراً ما ينوب عن كلمة وعن مقطع ولان الخط الواحد يقوم مقام مقاطع مختلفة بمعنى أن خطأ واحداً يقرأ «ايلو» تارة «وآن» طوراً وهو أصعب هذه الصور وأشكالها .

كان هذا الخط عسراً حتى على من يكتبونه . ونصف مالدنيا من الآثار المسمارية هو كتب إرشادات من نحو ولغة وصور مما ساعد على حل النصف الآخر فتأني الرجوع اليها في حل المشكلات على ما كان عليه شأن المتعلمين في مملكة آشور منذ ٢٥٠٠ سنة . وقد أفلح العلماء في حل الكتابات الاشورية

كما أفلحوا في حل الكتابات المصرية . فكانت لهم كتابة مستطيلة في لغات ثلاث آشورية ومادية وفارسية ونفعت الفارسية في حل غيرها .

الشعب الاشوري — فطر الاشوريون على حب الصيد والحرب وان نقوشهم لتمثلهم مدججين بالاقواس والرماح راكبين صهوات الخيول بحث ساغ أن يوصفوا بانهم كحماة مجال وأبطال يحسنون الكر والفر . وان استولى في أعينهم رواحهم الى مناوشة ومغدهم في حرب زبون . ولقد عرفوا بالخيالة وسفك الدماء فوطئوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جباههم يغيرون على جيرانهم . ولطالما أبوا من غزواتهم وقد أسروا شعوباً باجمعها والظاهر أنهم ناشبون غيرهم القتال لمحض حب السفك والتدمير والنهب فانهم أشد خلق الله بأساً وأقساهم قلوباً .

الملك — رأى الاشوريون للملكهم الخلافة عن الله في الارض جرياً على العادة الآشورية فاطاعوه طاعة عمياء وبذلوا في حبه مهجهم . فكان الملك عندهم سيداً مطلقاً في حكمه رعاياه مهما اختلفت طبقاتهم يدعوم الى حمل السلاح تحت لوائه فيقاتلهم شعوب آسيا حتى اذا قفل منصوراً يصور ما أثره على جدران قصره ذا كراً انتصاراته وما ناله من الغنائم وحرقة من المدن وذبحه من الاسرى وساخه من احيائهم

الحملات — اليك بعض فقرات من نشرات الحروب قال اسورنازيرهابال عام ٨٨٢ : انني عمرت جداراً امام ابواب المدينة العظمى وساخت جلود زعماء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم وقد دفن بعضهم احياء في اساس البناء وصاب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الحائط وساخت جلود

كثيرين في حضرتي وكسوت الحائط بها وجمعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضممت جثثهم الى أشكال الالكاليل

وكتب توكلا بالازار عام ٧٤٥ ما نصه : حبست الملك في عاصمته ورفعت كوماً من الجثث أمام الابواب . هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقها وأقمرت البلاد وصيرتها آكاماً وقاعاً نصفاً ينق فيها يوم الخراب . وقال سنحاريب في القرن السابع : « انطلقت كالعاصفة المدمرة فسبجت السروج والاسلحة في دماء الاعداء كاهها في نهر والتراب مبلل وجمعت جثث جندهم كما تجمع الغنائم وبترت أطرافهم وقضت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما تقصف التبنة وقطعت أيديهم عقاباً لهم بما جنت أيديهم » هذا وقد صورت في إحدى النقوش التي تمثل مدينة سوس وهي ترد الى عهد اسوربانيبال وشوهدت فيها رؤوس المغلوبين يعذبهم الاشوريون وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين آخرين ونفت لحاهم . وهناك رجل يسليخ جلده وهو حي مما دل على ان أولئك الملوك كانوا يرتاحون الى ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب

خراب المملكة الاشورية — بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل وذلك نحو عام ١٢٧٠ وظل الاشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات ويشنون الغارات حتى أخضعوا وان شئت فقل خربوا بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر وكان المغلوبون يثرون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم . ثم ضعفت قوى الاشوريين واتحد البابليون والماديون فقلبوا عرش مملكتهم نينوى عاصمة بلادهم سنة ٦٢٥ وهي المدينة التي سماها أنبياء بني اسرائيل « عرين

الاسد » ومدينة الدم والغنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت فلم تقم لها قائمة بمد . قال النبي ناحوم (خربت نينوى فمن يشفق عليها ياترى ؟)

البابليون

المملكة الكلدانية — قامت مملكة اشورية جديدة مكان بلاد الكلدان القديمة الدائرة دعيت مملكة البابليين او المملكة الكلدانية الثانية . وقد تكلم احد انبياء اسرائيل على لسان الرب فقال : « انا احبي الكلدان تلك الامة الظالمة وسرعان ما تطوف الارض الاستيلاء على مساكن غيرها وان خيولها لا خف سيراً من النمر وفرسانها لينتشرون في الاطراف ويطيرون كالنسر ينقض على قنيصته » وبالجمله فقد ألف الكلدانيون الفروسية والحرب والفتح وهم يماثلون الاشوريين كل المماثلة فاستولوا على بلاد الفرس والجزيرة وبلاد اليهود وسورية وكانت مدة حكمهم قصيرة فقد أنشئت المملكة البابلية سنة ٦٢٥ وابادها الفرس سنة ٥٣٨ ق . م .

بابل — كان يحتنصر (٦٠٤ — ٥٦١) من اقدر ملوكها وهو الذي خرب بيت المقدس وساق اليهود امرى واسس في بابل عاصمة بلاده كثيراً من المعابد والقصور . اقيمت هذه المعاهد بالآجر لقله الحجر في سهل الفرات . ولما كتب عليها الدثور والعفاء لم يبق منها الا كوم من انتراب والانقاض وقد عثر في المكان الذي كانت فيه بابل على بعض كتابات فعرفت هيئة المدينة . بيد ان هيرودتس اليوناني وصف مدينة بابل وصفاً مسهباً وكان زارها في القرن الخامس ق . م فاذا هي محاطة بسور مربع يشقه الفرات وكانت المدينة تشغل حيزاً من الارض مساحته ٥١٣ كيلومتر مربعاً

(أي سبعة اضعاف مدينة باريز) ولم تكن كل هذه البقعة الفسيحة الارضاء عامرة بالدور والمساكن بل كان يتخللها حقول مزروعة تقوم بأود السكان آونة الحصار . فكانت بابل من ثم اشبه بمعسكر حصين منها بمدينة . وفي جدرانها ابراج ولها مئة باب من النحاس الاصفر وكان سمكها صالحاً لمرور مركبة عليها وفي حيال السور خندق عريض عميق مليء ماء وسترت حافته بالقرمذ . وكانت دورها ذات ثلاث طبقات او اربع والشوارع وسطها زوايا قائمة . وما اعجب بناء جسر الفرات وارضفته والقصر الحصين والجنان المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع . وهذه الجنان سطوح مفروسة بالاشجار قائمة على عمد وقباب مصفوفة طبقات الاولى بعد الثانية .

برج بابل - بنى بختنصر في طرف المدينة برج بابل وقال في احدى كتاباته «لقد جددت اعجوبة بوريثيا (من ضواحي بابل) ليعجب الناس منها وهو معبد السيارات السبع في الدينا فاعدت تأسيسه على النحو الذي كان عليه في الازمان السالفة » . وهذا المعبد على شكل مربع مؤلف من سبعة ابراج بعضها على بعض وخص كل برج باحدى السيارات السبع وصور باللون الذي اختاره الدين لتلك السيارة . وهذه الالوان اذا بدى بها من أسفل فهي : زحل (سواد) والزهرة (بياض) والمشتري (ارجوان) وعطارد (ازرق) والمريخ (قرمزي) والقمر (فضي) والشمس (ذهبي) . وكان في أعلى الابراج مصلى ومنضدة من ذهب وفراش وثير تسكن اليه كاهنة .

اخلاقهم وديانتهم

اخلاقهم — لانعرف هذه الشعوب الا بمآهدها ومعايدها تكاد لاتتعدى اعمال ملوكها فلا ترى الاشوريين أبداً الا وهم مصورون في حرب او في صيد او في احتفالات وما صور نساؤهم قط اذ كنّ حلس بيوتهن لايخرجن للناس . وعلى العكس في الكلدان فانهم كانوا اهل حراثة وتجارة ولكننا لانعرف شيئاً عن حياتهم . يقول هيرودتس ان هذه الامة كانت تجمع البنات في مدنها مرة واحدة في العام لتزويجن فيبيعون الجميلات منهن ويؤخذ ثمنهن ليعطى جهازاً الى مشوهات الخلقة . قال وعندي ان هذا القانون من احكم ماوضع من القوانين والشرائع .

ديانتهم — دين هاتين الامتين واحد فالاشوريون تمذهبوا بمذهب الكلدانيين وقد التبس علينا هذا الدين لانه نشأ كدين الشعب الكلداني من مزيج ديانات متباينة مشوشه كلها . فكان التورانيون يعتقدون على نحو ماتوهمه قبائل سبيريا الصفر ان العالم غاص بالشياطين (مثل الطاعون والحمى والاشباح والنفاريت) دأبها تربص البشر بالشر والاخذ بمخنفهم ولذلك تراهم لايلجأون الى السحرة ليطردوا عنهم هاته الشياطين برقياتهم . وكان الكوشيون يعبدون ريين ذوي اقنومين الذكر وكان القوة بزعمهم والانثى وهي المادة وكان الكهنة الكلدان وهم مجموع طوائف قوية من المنعة بحيث ساغ لهم ان يعنوا بتوحيد الدينين .

الارباب — الرب المتعال هو ايلوفي بابل واسور في اشور وقلم يقيمون له معبداً ومنه يشتق ثلاثة ارباب وهم آنو رب الظلمة وصورته صورة رجل وذنب نسر معصب رأسه برأس سمكة . وبعل ملك الارواح مصور

كالمملك على عرشه . ونواح وهو العالم المنظور هيئته هيئة جبار ذي اربعة اجنحة
منتشرة . ولكل من هذه الارباب ربة انثى اشارة الى كثرة الاولاد
والذري . ثم ترد من اسفل صور القمر والشمس والسيارات الخمس
والكواكب وفي هواء بلاد الكلدان الشفاف يضيئ سناها اضاءة لم نعهدها
فتتلاً كالارباب . وقد اقام الكلدانيون معابدهم باسم هذه الارباب وما
هي في الحقيقة الامراض يتمكن منها المتعبد من مراقبة سير الافلاك .
علم التنجيم — ذهب الكهنة الى ان هذه الكواكب ارباب عظيمة
تعمل عملها في حياة الانسان . فكل امرئ يولد في الدنيا في طالع كوكب
من الكواكب فينأى التنبؤ بسعده اذا علم الكوكب الذي ولد في
طالع . ومن هنا نشأ علم التنجيم والفأل فما يحدث في السماء علامة على
ما سيحدث على الارض . فالنجمة المذنبه مثلاً تنبئ بحدوث ثورة .
ويعتقد كهنة الكلدانيين انهم اذا رصدوا القبة الزرقاء وسياراتها يتنبأون
بالحوادث وهذا أصل التنجيم .

علم السحر — للكلدان ضروب من الرقى والطلسمات يدممون بها
لطرده الارواح أو استحضارها . وهذه العادة من بقايا ديانة التورانيين وهي
أصل السحر . نشأ علم السحر والتنجيم في بلاد الكلدانيين وانتشر في أفق
المملكة الرومانية ثم تعداها الى بلاد أوربا . عرف ذلك من تتبع القوانين
السحرية في القرن السادس عشر وكان فيها اذ ذاك كلمات آشورية محرفة .
العلوم — نشأت علوم النجوم في بلاد الكلدان فمنها عرفنا منطقة
البروج وتألف الاسبوع من سبعة أيام اكراما للسيارات السبع وتقسيم السنة
الى اثني عشر شهراً واليوم الى اربعة وعشرين ساعة والساعة الى ستين

دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية . وعندهم أخذنا طريقة الاوزان والمكاييل محسوبة على مقياس الطول مما ألف بالاستعمال عند الشعوب القديمة كافة

الصنائع

علم عقود الابنية — لا نعرف صنائع الكلدانيين حق معرفتها اذ قد سجل العفاء على معاهدهم . وقد هذا أهل الصنائع من الاشوريين ممن رأينا صنائعهم حذو الكلدانيين فصيح الحكم على الملكتين جملة واحدة . كان الاشوريون يبنون كالكلدانيين بآجر مجفف بالشمس ويفشون ظواهر الابنية بالاحجار .

القصور — اقام الكلدانيون قصورهم على آكام صناعية جعلوها واطمة مسطحة تشبه سطوحاً كبيرة واقتضى جعل العاللي والغرف ضيقة واطمة واكتفي بتطويلها كثيراً لان الآجر لم يكن لينفع في بناء القباب المنبسطة العالية . فالقصر الاشوري يشبه سلسلة أروقة ودهاليز . والسقوف سطوح ممتدة ذات شرفات وفي الباب ثيران ضخمة مجنحة على هيئة الانسان . والجدران مغطاة من الداخل تارة بروافد من الخشب النفيس وطوراً من الآجر المزين بالمينا وأخرى بصفايح من الرخام الابيض المنقوش وآيات تزدان الغرف بالصور ويحلى الاثاث بالترصيع البديع

النقش — يعجب المرء من نقوش الصور الاشورية خاصة ومن المحقق ان التماثيل نادرة ولا اتقان فيها لان النحاتين يؤثرون تحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش ناتئة تشبه الصور ويرسمون مشاهد لانظام فيها احياناً وحروباً وصيوداً وحصارات مدن واحتفالات يخرج الملك بها في مركب حنل وهناك تتجلى التفاصيل الدقيقة . فترى بنات الخدام الموكلين بطعام

الملك وزمر العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول وللفردان والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكناتها أو تتطاير من شجرة الى أخرى . وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان أهل الصناعة ما عرفوا تصويرها من الامام . ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف . وتظهر الحيوانات في الاحابين وخصوصاً في الرسوم البارزة في الصيد وفي العادة أن تنقل نقلاً حقيقياً مدهشاً . وكان الاشوريون يأملون الطبيعة ويرسسونها أصح رسم وبهذا تعرف قيمة صنائعهم حتى ان اليونان اقتدوا بمذهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم وليس في الامم حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشوريين /

الفينيقيون

صور وقرطاجنة

وصفها — فينيقية من بقاع الارض الضيقة طولها خمسون فرسخاً وعرضها من ثمانية فراسخ الى عشرة وهي بين بحر سورية واعلى سلسلة في جبل لبنان . بل هي على التحقيق عبارة عن سلاسل أودية ضيقة ومجار - حرجة متخللة بين هضاب وعرة ممتدة الى البحر ومسائل من الثلوج . تعبت بها العواصف الى آخر الربيع اما في الصيف فينضب ماؤها الا ما خزن منه في الآبار والصحاريج . ولقد كسيت جبال هذه الناحية بالاشجار فكان في القمم ارز لبنان المشهور وفي المنحدرات الصنوبر والسرو وفي السفوح اشجار النخيل بالغة شاطئ البحر وفي الاودية ينمو الزيتون والكرم والتين والرمان .

مدنها - تتألف عن بعد على طول الشاطئ الصخري رؤوس من البحر
او جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية في هذه الموانئ أقام الفينيقيون مدنها.
فقامت صور وارواد في جزيرة يزدهم فيها السكان في المنازل وكانت ذات
طبقات ست وسبع وثمان . ويجلبون الماء لشفاهم في القوارب . أما مدينة
جبيل ويروت وصيدا فكانت في اليبس . ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم
باود هذا العدد الدثر من الناس ولذلك مال الفينيقيون الى الملاحة والتجارة .
الخرائب الفينيقية - لم يحفظ عن الفينيقين كتاب فقد ضاعت حتى
كتبهم المقدسة . ولقد جرى الحفر في مواضع مدنها ولكن الخرائب على ما
قال العالم المندوب الى ذلك لم تسلم إلا في البلاد المهملّة المتروكة . على ان
السوريين عنوا كثيراً بالخرائب فأنهكوا حرمة القبور واخذوا حلي الموتي
وهدموا العمارات ليستعينوا باحجارها على البناء وحطموا النقوش وذلك لكرههم
المسلم الصور المنحوتة بحيث لم يبق اليوم سوى شقيف من الرخام المحطم
واحواض ومعاصر نحتت في الصخر وبضعة نواويس من الحجر . اطلال فلما
تجدي نفعا وتأتي العلم بفوائد . وليس ما عرف عن الفينيقين إلا ما علمناه
كتاب اليونان وانبياء اسرائيل .

حكومة الفينيقين - لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل
مدينة ناحية صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث
بمندوبيها الى الأنظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة وكانت صور محط
رحال المندوبين منذ القرن الثالث عشر . واذ لم يكن الفينيقيون أمة حربية
خضعوا لسلطة جماع الناحيين من مصريين واشوريين وبابليين وفرس وادوا
لهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

صور - كانت هذه المدينة منذ القرن الثالث عشر من أهم المدن الفينيقية ضاقت على أهلها فاقامت اذ ذاك مدينة جديدة قبالتها . ولقد أسس تجار صور مستعمرات في البحر الابيض كله يصيدون الفضة من مناجم اسبانيا وطلع العالم القديم أجمع ، دعاهم أشعيا النبي الامراء ووصف حزقيال النبي تلك القوافل التي كانت تأتيهم من كل صوب وأوب وطلب سليمان النبي الى هيرام احد ملوك صور عملة يشغلهم في بناء القصر والمعبد في بيت المقدس .

قرطاجنة - كانت هذه المدينة مستعمرة صور فقاتت هذه بالعظمة وذلك ان الصوريين نبذتهم احدى الثورات فاسسوا مدينة قرطاجنة على شاطئ افريقية بالقرب من تونس بعثتهم على ذلك امرأة اسمها ايليسار ونحن ندعوها ديدون (الفارة) ويحكى ان سكان البلاد ابوا ان يبيعوها إلا مسافة تكفي لتغطية جلد ثور ففصلت جلد الثور سيوراً رفيقة بحيث اقتضت مكاناً واسعاً يستوعبها فبنت القلعة اذ ذاك . ولقد اتسمت قرطاجنة لموقعها في منتصف البحر الرومي ولان فيها مرفأين فاقامت مي أيضاً مستعمرات وفتحت فتوحاً حتى آل امرها الى ان حكمت شاطيء افريقية باجمعه واسبانيا وسردينيا وكان لها في كل مكان مكاتب لتجارها ورعايا يؤدون لها الجزية .

الجيش القرطاجني اقتضى لقرطاجنة ان تدرب لها جيشاً لتصون مكاتبها التجارية من حيف الوطنيين وتربأ برعاياها عن الانتقاص . ومن ثم كانت حياة القرطاجني ثينة لا يخاطر بها إلا عند الضرورة . آثرت قرطاجنة اكتراء الجند فجندت لها جنداً من البربر سكان بلادها ومن متشردى كل صقع وناحية فصارت صبغة جيشها مبرقشة ملونة يتكلم اللغات كلها ويدين بالاديان كافة . ولكل جندي بزته واسلحته الخاصة به تخالف بزة رصيفه

واساحته. فترى فيهم النوميديين يلبسون جلد الاسد يتخذونه وطاء كما يتخذونه غطاء يركبون خيلاً سرية صغيرة بدون نظام ويطلقون القوس وخيولهم تعدو عدواً. كما كنت ترى فيهم الليبيين وجلودهم سوداء مسلحين بحراب. وطائفة من الايبيريين في اسبانيا لباسهم يباخ مزين بحمرة وسلاحهم سيف طويل محدد. وغالين حراة الى الزنار يحملون تروساً كبيرة وسيناً محدداً يسكونه بكلتا يديهم. وجماعة من البالياريين مدرين من طفولتهم على رمي الحجارة او كرات الرصاص بالمقاليع أما القواد فكانوا قرطاجنيين يخافهم الحكومة فترقبهم عن أمم وربما صلبتهم اذا غلبوا ولم يحرزوا نصراً مؤزرًا

القرطاجنيون - كان في قرطاجنة ملكان والامر والنهي لمجلس الشيوخ وهو مؤلف من أغنى تجار المدينة ولذلك كانت كل قضية ينهى بها الى الحكومة مسألة تجارية. كره الناس القرطاجنيين لقسوتهم وطمعهم وغدرهم ولما كان لهم أسطول منظم وعندهم مال يستأجرون به جنداً وحكومة باطشة تهيأ لهم توطيد دعائم ملكهم في غرب البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون (من القرن السادس الى الثالث) بين ظهري شعوب بربرية منشقة على نفسها مختلفة كلمتها الديانة الفينيقية - للفينيقيين والقرطاجنيين دين يشبه الديانة الكلدانية فالرب الذكر ويسمى عندهم بعل هو الشمس والربة الانثى وتدعى بعلت هي القمر والشمس والقمر في نظر الفينيقيين قوى هائلة تحيي وتميت. ولكل من المدائن الفينيقية ربان. فلصيدا بعل صيدون (الشمس) وعشروت (القمر) ولقرطاجنة بعل عمون وتانيت ولجبيل بعل تموز وباليت. ويختلف اسم الارباب في الاعتبارات ايجاداً وعدمًا وهكذا يمد بعل مثلاً في قرطاجنة باسم واورش ويعتبر عدمًا. وقد تنوب عن هذه الارباب أصنام ولها معابد ومذابح وكهنة

يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والاعیاد الحافلة باعتبار كونهم
 موجدین ويقدمون لهم ضحايا بشرية باعتبار كونهم مخربین وتعبد عشتروت
 ربة الصيد العظيمة في الغابات المقدسة ويصوروها على شكل هلال القمر
 والحمامة ويرسم بعل مولوش في قرطاجنة تمثالاً عظيماً من القنز باسطاً ذراعيه
 ومدليهما وإذا ارادوا تسكين غنمهم يرفعون على يديه اطفالا تسقط للحال في
 هاوية من نار. وقد قدم اعيان مدينة قرطاجنة مائتي طفل من اولادهم ضحايا
 للربة مولوش في خلال حصار اغانوكل لقرطاجنة

هذا وان تلك الديانة على ما نشأت عليه من الشهوات وسفك الدماء
 لترهب الشعوب الاخرى ولكنهم يحاكونها ويأتمون بها فكان يذبح اليهود
 لبعل على الجبال ويبعد اليونان استارتيه وصيدون باسم افروديت وبعل ملخارت
 من صور تحت اسم هيراكليس

التجارة الفينيقية

اشغال الفينيقيين -- عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة
 ضيقة من الارض ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين
 واشوريين ولا قبائل الغرب البربرية (الاسبان والغاليين والطلليان) عهد
 بركوب البحار وشق العباب والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الايام على
 تجشم البحر فصيح ان يدعوا من اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة
 البيع والشراء يتبعون من كل شعب سلعه ويتقايضون معه على غلات البلاد
 الاخرى تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برأ والغرب بحراً
 القوافل -- اعتاد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاث
 حذاها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليمني والبخور والصبر

وعطور بلاد العرب واللؤلؤ والابازير والعاج والابنوس وريش النعام وقرود الهند. والقافلة الثانية ترحل الى بلاد اشور لتعود منها بانسجة القطن والكتان والحمر والاحجار الكريمة والماء المعطر وحرير الصين . وتقصد القافلة الثالثة انحاء البحر الاسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والالوانى النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا « القوقاز »

بحريتهم - بنى الفينيقيون بخشب ارز لبنان المتين قوارب باسرة ومجاذيف حملوا عليها متاجرهم البحرية وما مست حاجتهم ان يكونوا ابداء على مقربة من الشواطئ في ركوبهم البحر اذ كانوا يتجهون حيثما ارادوا بجمل نجمة القطب قيد نواظرهم وكانوا يستدلون بها على الشمال . ولقد فطر الفينيقيون على الاستخاف بركوب اليم فالهوا بانفسهم في مراكب صغيرة تغدو بهم وتروح في اطراف البحر الرومي بل جرأوا على اجتياز مضيق جبل طارق او كما دعاه القدماء « اعمدة هيركول » فيجتازون البحر المحيط الى شواطئ انكلترا وربما يلقوا بلاد النروج . سافرت عصابة منهم في خدمة احد ملوك مصر في القرن السابع وجازت البحر الرومي لتطوف حوالى افريقية ثم رجعت على ما قيل بعد ثلث سنين من البحر الاحمر وغادرت قرطاجنة حملة ضربت نحو شاطئ افريقية الى خليج غينة . وقد كتب القائد حانون قصة في هذه الرحلة

البضائع -- كان الفينيقيون يتعاون محاصيل صناعات الشعوب المتقدمة ويبحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من الحاميل . يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ومنه يستخرجون صباغاً احمر وهو الارجوان . وكانت الانسجة الارجوانية تستعمل عند القدمين كافة

ملابس للملوك والامراء ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل اسبانيا وسرديا من مناجهم وكان القصد ير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر وهو مركب من نحاس وقصدير لا أثر له في بلاد الشرق ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه وينشدونه حتى في شواطئ انكترا في جزائر القصد المعروفة بجزائر كاسيتريد . وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة كما كانوا يبتاع النحاس العبيد في ساحل افريقية . اذ الشعوب القديمة كلها كانوا تجر بالرقيق . وينزلون طوراً في احدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والاطفال وينقلون بهم الى بلادهم او يبيعونهم في القاصية . واذا واتتهم الحال ينقلون قرصاناً ولا يتحامون إطالة يد التعدي على الاغيار

سرّ اختص به الفينيقيون — لم يقلق الفينيقيون إلا من قيام بحارة الاء الاخرى الى منازعتهم السلطة على البحار ومجاراتهم في الملاحة والاتجار فز ثم كانوا يكتمون الطريق التي يسلكونها لدن عودتهم من لافطار النائي ولذا لم يعرف احد في القديم جهة جزر الكاسيتريد المشهورة التي جلبوا منه القصدير . وقد رأت احدى المراكب بلاد اسبانيا التي كانت لها صلات تجارية مع فينيقية منذ قرون عرضاً بدون تعمل . وكانت قرطاجنة تفرق من تصادفهم من التجار الاجانب في سردينيا او في ناحية جبل طارق . حذ ان ربان احدى المراكب أغرق سفينته ذات يوم عند ما رأى سفينة غربية تطارده مخافة ان تطلع على خطة سيره

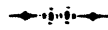
مستعمراتها — انشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيه وهي مراكز للبرد حصينة واقعة على شاطئ بحر على مرفأ طبيعي يخرجوا اليها بضائهم وهي في العادة انسجة ونغار وحلي واصنام فيأتي أهل تلك البلا

بغلاتهم فيقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين ذنوج افريقية .
 تقام أمثال هذه الاسواق في قبرص ومصر وجميع بلاد البحر الرومي التي
 كانت على همجيتها مثل اقريطش (كريت) وبلاد اليونان وصقلية وافريقية
 ومالطة وسردينيا وشواطئ اسبانيا (مالقة وقادس) وربما أقاموها في بلاد
 الغول (موناكو) وكان اهل البلاد يننون اكواخهم حول بنايات الفينيقيين
 فيصبح السوق مدينة ويقتبس السكان ارباب الفينيقيين وقد دامت عبادة ربة
 على صورة الحمامة حتى بعد ان صارت المدينة يونانية كما في سبتير والرب
 ملخارت كما في كورنت ورب ذو جهة ثور يفترس الضحايا البشرية كما في
 اقريطش

نقوذ الفينيقيين - لم يكن يخطر للفينيقيين شيء على بال لما أسسوا
 مكاتبهم التجارية إلا الاحتفاظ بمصالحهم الخاصة ولكن حدث ان نفعت
 مستعمراتهم التمدن فان برابرة الغرب اخذوا عن أمم الشرق وكانت أكثر
 منها تمدناً كيفية صنع الإنسجة والحلي والماعون وتعلموا محاسنها . مضى حين
 من الدهر واليونان لم يعرفوا غير الاواني والحلي والاصنام التي يأتيهم بها
 الفينيقيون وعلى منوال هذه البضائع نسجوا بعد فان الفينيقيين حملوا من
 مصر واشور الصناعة والبضائع معاً

الابجدية - حمل الفينيقيون ايضاً الى البلاد التي نزلوها ابجديتهم وحروف
 الهجاء ولم يبتدعوا الخط اذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون وقد
 استعملوا حروفاً تدل كل منها على صوت كما هو الحال في حروف الافرنج .
 على ان خطهم كان مشوشاً بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على
 كلمة برمتها . لا جرم انه اقتضى للفينيقيين اذ ذاك طريقة أبسط لكتابة

رسائلهم التجارية فاطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور ولم يبقوا سوى
 اثنين وعشرين حرفاً يدل كل منها على صوت او على لفظ باللسان فاقبست
 الشعوب الاخرى هذه الابدجية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. فقد كتب
 اليهود من اليمين الى الشمال كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من
 الشمال الى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف إلا قليلاً . واخلط الفينيقي على
 التحقيق أصل الابدجيات كلها من يهودي وليسي ويوناني وايتاليكي
 وابتروسي وايبيرسي وربما كان الخط النروجي ايضاً فالفينيقيون هم الذين
 علموا العالم الكتابة . ✓



الاسرائيليون

الebraيون

التوراة - جمع اليهود أسفارهم المقدسة بأسرها في سفر واحد دعوه
 التوراة وهو اسم يوناني معناه الكتاب هذا هو سفر اليهود الجليل وقد صار
 لاهل النصرانية ايضاً كتاباً مقدساً . وفي التوراة ايضاً تاريخ الامة اليهودية
 ولقد استفدنا كل ما اتصل بنا عن الشعب المقدس من الكتب المقدسة

الebraيون - لما نزل الساميون من جبال ارمينية الى سهول الفرات
 أخذت احدى قبائلهم على عهد مملكة الكلدان الاولى تضرب نحو الغرب .
 فجازت الفرات فالفقر فسورية وبلغت بلاد الأردن وراء فينيقية وتعرف هذه
 القبائل بالebraينين يعني اهل ما وراء النهر وهم كمعظم الساميين شعب من
 الرعاة الرحالة لم يحرقوا الارض ولا سكنوا الدور والمنازل بل كانوا يتنقلون

من مكان الى آخر في قطعان بقرم وغنمهم وجمالهم متجعين المراعي آوين الى
الخيام على نحو ما يعش العرب في البادية اليوم . وفي سفر التكوين وصف
هذه القيشة البدوية

البطاركة - كان السبط منهم أسرة كبيرة مؤلفة من الرئيس ونسائه
واولاده ومواليه وكان للرئيس على الجميع سلطة مطلقة فكان بهذا السبط
أباً وكاهناً وقاضياً وممكاً . من اجل هذا دعونا هؤلاء الرؤساء البطاركة
واعظمهم ابراهيم ويعقوب فالاول اب العبرانيين والآخر والد الاسرائيليين
اظهرتهما التوراة في مظهر رجلين ارسلهما الله ليرأسا شعباً مقدساً وقد اعطى
ابراهيم ربه ميثاقاً ووعد الطاعة هو ومن يأتي بعده من قومه فبشر الله
ابراهيم بذرية تفوق نجوم السماء عدداً واطمأنت نفس يعقوب بان تكون منه
امة عظيمة وشعب جم

الاسرائيليون - سمي يعقوب باسم اسرائيل اي مدافع عن الله لرؤيا
رآها ودعي سبطه بني اسرائيل او الاسرائيليون . وذكرت التوراة ان
القطط حدا يعقوب ان يغادر بلاد الاردن ليسكن واهل بيته صغارهم وكبارهم
على النجوم الشرقية من مصر وهي البلاد التي دعاه يوسف احد ابائهم الى
هبوطها وقد صار وزيراً لمميزها احد القراعة . وظل بنو اسرائيل في تلك
الأرجاء قروناً كثيرة فجاءوا عددهم سبعون نسمة ونموا على قول التوراة حتى
صار عددهم ستمائة الف رجل . خل عنك النساء والاولاد

نزول الوحي على موسى - افتتح عزيز مصر يسوم الاسرائيليين ضروب
المظالم ويضطرم الى صنع الملاط والقرم لا بناء مدن حصينة فقام من بينهم
اذ ذاك موسى احد بنيهم وقد اوحى اليه ربه وعهد اليه ان ينقذهم من الجور

والمسب. وكان يرعى غنمه ذات يوم على الجبل فظهر له ملك وسط عليقة
تتظلى ثم سمع هذه الكلمات : « انا رب ابراهيم واسحق ويعقوب رأيت
مادم شعبي في مصر من الحزن وسمعت شكواه ممن يظلمونه وعرفت مايناله
من العذاب ولذا نزلت لخلاصه مما ينتابه من المصريين لانزله بلاداً من ارض
كنعان فيفيض لبناً وعسلاً فتعال اذا ارسلك الى فرعون تخلص شعبي ابنا
اسرائيل وتخرج بهم من مصر » فقاد موسى الاسرائيليين. وهاجروا من
مصر وهذا مايدعى بالخروج اوسفر الخروج واجتازوا بسفح جبل طور سيناء
وهناك تلقوا شريعة الرب وأخذوا يتهون جيلاً كاملاً في القفار جنوبي سورية
اسرائيل في القفر — وكثيراً ما كان الاسرائيليون يودون الرجوع الى
البلاد التي تركوها فيقولون : « انا لنذكر ما كنا نطعمه في مصر من السمك
والقثاء والبطيخ والكراث والبصل نخليق بنا أن نؤمر علينا زعيماً يقودنا الى
بلادنا وكان موسى يدعوهم الى الطاعة ثم بلغوا الارض التي وعد الله اباؤهم
الارض الموعودة — دعيت ارض كنعان أو فلسطين فدعاها اليهود
بلاد اسرائيل ثم دعيت بعد بلاد اليهودية ودعاها أهل النصرانية الارض
المقدسة وهي بلاد جافة قاحلة في الصيف ولكن فيها جبال وآكام وصفتها
التوراة بما يلي : لقد سافلك ربك القيوم الى بلد طيب ذات أنهار وينابيع في
الارض تنبجس من الوادي وعلى الجبل بلد البر والشعير والكرم والتين
والرمان والزيتون والزيت والعسل بلاد تأكل فيها خبزك آمناً من القحط لا
ترزأ في مال ولا يتقصك شيء من رفاة الحال. وبلغ عدد الاسرائيليين بعد
الاحياء عندئذ ٦٠١٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطاً
عشر منها من نسل يعقوب واثان من نسل يوسف هذا عدا عن اللاويين

أو الكهنة وعددهم ٢٣ ألف رجل . وكانت تسكن البلاد التي نزلوها عدة شعوب صغيرة تدعى الكنعانيين فابادهم الاسرائيليون واستولوا على بلادهم

« ديانة الاسرائيليين »

الله الفرد — عبد سائر الشعوب القديمة اربابا كثيرة أما الاسرائيليون فاعتقدوا بوجود إلهٍ منزّه عن الهوى برأ العالم ودبره . ففي سفر التكوين ان الله خلق في البدء السموات والارض . وقد خلق النبات والحيوان وخلق الانسان على صورته ومثاله فالبشر كلهم صنعة الله

شعب الله — بيد ان الله اختار من بين الناس جميعاً ابناً بني اسرائيل ليجعلهم شعبه وامته فدعا ابراهيم وقال له ساجعل بيني وبينك وبين ذريتك عهداً لا كون ربك ورب ذريتك من بعدك . وقد تمثل الله ليعقوب قائلاً له : انا الله القادر اله آبائك فلا تخاف من مصر فساجعلك فيها امة عظيمة . ولما سال موسى ربه عن اسمه اجابه : تقول لابناء اسرائيل انني انا الله السرمد اله آبائك ابراهيم واسحق ويعقوب ارسلني ربي اليكم هذا هو اسمي على الدهر

العهد — فبين الاسرائيليين والمولى تعالى اذا انحاد او عهد فالقيوم جلّ جلاله يحب الاسرائيليين ويدفع عنهم البوائق فهم والحالة هذه امة مقدسة « واعلى الشعوب كافة في نظره » وقد وعد ان يجعلهم سعداء اقوياء وتعهدهم الاسرائيليون ان يقابلوه على ذلك بان يعبده ويخدموه ويطيعوه فيما يريدون عليه كما بطاع المشرع والقاضي والمعلم

الوصايا العشر — أوحى القيوم الصمد عزّ شأنه مشرع بني اسرائيل وصاياه الى موسى على جبل طور سيناء بين البرق والرعد وهي مستورة في

لوحين وهما اللوحان اللذان كتب الله عليهما وصايا العشر بما نصه : لا يكن لك آلهة اخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لاني انا الرب الهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واصنع احساناً الى ألوف من محبي وحافظي وصاياي لا تنطق باسم الرب الهك باطلا لان الرب لا يبيري من نطق باسمه باطلا اذكر يوم السبت لتقدسه ستة ايام تعمل وتصنع جميع عملك واما اليوم السابع فقيه سبت للرب الهك لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمنتك ونزبك الذي داخل ابوابك لان في ستة ايام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الهك لا تقتل لا تزني لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك

الشرية ... على الاسرائيليين ما خلا هذه الوصايا العشر ان يعملوا بكثير من الاوامر الالهية مما ذكر في اسفار التوراة الخمسة الاولى وهي التي تتألف منها شريعة اسرائيل . فالشرية تنظم عندهم احتفالات العبادة وتعين اعياد (السبت كل سبعة ايام والفصح ذكرى خروجهم من مصر وجمعة الحصاد وعيد المظال في موسم قطف العنب) والشرية هي التي ترتب الزواج والاسرة والتملك والحكومة وتعين العقوبات على الجرائم وتحدد الاطعمة والادوية فالشرية عندهم والامر على ما ذكر مجلة الاحكام الدينية والسياسية والمدنية

والجزائية ولمولى الاسرائيليين تعالى أن ينظم أعمال حياتهم جميعها
 (الديانة الفت الشعب اليهودي) لم يقبل الاسرائيليون بحكم الله قبول
 من خضع وخضع فقد قال موسى للاويين وهو على فراش الموت دافعاً اليهم
 كتاب الشريعة « خذوا هذا الكتاب ليكون شهادة عليكم يا اسرائيل لاني
 عارف بما أنتم عليه من شكاسة الخلق وقساوة القلب ولم تبرحوا طول حياتي
 تبدوون نواجذ العصيان على المولى القيوم فليت شعري ماذا يكون من شأنكم
 بعد مماتي . وقد حدث أن مرت قرون ومن العبرانيين من يعبد الاصنام
 وربما كانت هذه الفئة هي السواد الاعظم من الامة على انهم أصبحوا أشبه
 بسائر الساميين في سوربة وظل الاسرائيليون وخدمهم على قدم الاخلاص
 للمولى جل شأنه فتألف منهم الشعب اليهودي وخرج الشعب المبارك بدين
 الله المتعال من قبيلة مجهولة على التدرج . نعم انها لامة قليلة الحضا والعدد
 ولكنها من الامم التي لها الشأن الاعظم في تاريخ العالم

• " مملكة القدس "

القضاة — نزل العبرانيون أرض فلسطين ولكنهم ظلوا منشقين قروناً
 كثيرة لم يكن لذلك العهد كما تقول التوراة ملك لاسرائيل بته بل كل يعمل
 على شاكلته ويحكم بما يوحى اليه رأيه . وكثيراً ما كان الاسرائيليون ينسون
 ربهم ويعبدون آرباب القبائل المجاورة فاستشاط ربهم عندئذ غضباً من سيئات
 أعمالهم وأسلمهم الى أيدي أعدائهم يفعلون بهم الافاعيل حتى اذا ندموا على
 ما فرطوا في جنب الله وأصبحوا خاضعين خائعين يرسل ربهم اليهم قضاة
 يسمعون في خلاصهم من أعدائهم المباغتين وربما مات القاضي وعاد ديب
 الفساد يدب في نفوس الاسرائيليين فيسجدون لمعبودات أخرى . وكان

هؤلاء الفضاة مثل جدعون ويفتاح وشمشون من الغزاة يحررون القبائل باسم التيوم الابدي ثم لا يلبث الشعب أن يعود الى عبادة الاوثان والتلطخ بحمأة العبودية

الملوك - سثم الاسرائيليون آخر الامر وطلبوا الى شمويل (سؤال) الكاهن العظيم أن يجعل لهم ملكاً فلما عليهم شاول على رغم ارادته وكان على هذا الملك أن يكون منفذاً خاضعاً لارادة ائب لكنه حاول الخروج عن الطاعة وشق عصا الجماعة فراح الكاهن العظيم يقول له : لقد نبذت كلام الله ظهرياً فسيبعذك ربك عن الحكومة وينزع السلطة من يدك . ثم ان داود وكان زعيماً جندياً خلفه وحمل على أعداء اسرائيل كافة واسترجع لهم جبل صهيون ونقل اليه عاصمته وهي القدس .

بيت المقدس - كانت القدس بالنسبة الى بابل وثنية عاصمة بلادفقيرة . وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويميلون الى العمران بل كانت ديانتهم تحظر عليهم اقامة المعابد وكان يقضى على مساكن الخاصة أن تشبه تلك المكعبات من الحجر التي لا تزال تشاهد الى اليوم في شواطئ لبنان وقد غشيتها الكروم والتين ولكن كانت القدس بلد اليهود المقدسة وكان فيها للملك قصر يسكنه ألا وهو قصر سليمان الذي دهش العبرانيون بعرشه المصنوع من العاج وهناك أقيم بيت الرب وهو أول معبد عبراني

المعبد - كان المعبد الذي أقيم على عهد سليمان كبيت القربان المقدس عند النصارى مقسوماً الى ثلاثة أقسام في داخله يقوم قديس القديسين حيث كان تابوت العهد ولم يكن يسمح لغير الكاهن العظيم أن يدخله مرة في السنة وفي وسطه المكان المقدس وكان فيه مذبح البخور ومسرجة ذات أغصان

سبعة ومائة الخبز يدخل اليه الكهنة لحرق الغالية ووضع القرابين وفي المقدمة ساحة البيعة مفتحة أبوابها للناس تنذر فيها الضحايا على المذبح الكبير. وعليه فقد صار معبد القدس بعد واسطة عقد الامة يقصدونه من اقاصي فلسطين لحضور الاحتفالات وكان الكاهن الكبير الذي يرجع اليه امر العبادة من أعظم الرجا وربما كان في الاحايين اكبر سلطة من الملك

الانبياء

نكبات اسرائيل - ان سليمان آخر ملك عرف بالحول والطول وانفصل بعده عشرة اسباط ألفوا مملكة اسرائيل تلك المملكة التي عبد سكانها عجول الذهب وأرباب الفينيقيين ولم يخلص منها الدين لله وحده أو لملك بيت المقدس سوى سبطين ومنهما قامت مملكة يهوذا (٩٧٧) ولقد انتهكت قوى تينك المملكتين بما اضطررا الى دخوله من المعارك حتى اذا جاءتهما جيوش الفاتحين من الشرق خربت مملكة اسرائيل بايدي مختصر ملك الكلدان (٥٨٦)

احساس الاسرائيليين - رأى المؤمنون من الاسرائيليين هذه المصائب عقوبة لهم وان الله عذب شعبه لخروجه عن طاعته على نحو ما جرى قديماً على عهد التتضاة وأسلمه للفاتحين يمزقونه كل ممزق . وركب ابناء اسرائيل هوامم واجتروا الآثام في جانب مولا هم فبنوا علالي وقصوراً في المدن كافة وحذوا حذو الامم المحيطة بهم فخالقوا بذلك أمر ربهم وما حرمه عليهم فصنعوا صوراً مسبوكة وسجدوا للكواكب وعبدوا الصنم بعزل ولذا نبذ الله تعالى أصل اسرائيل وعاقبهم فجعلهم طعمة لمن يكتسح بلادهم ويسلب طارفهم وتلاذم الانبياء - على ذاك العهد ظهر الانبياء وهم الياس وأرميا وأشعيا وحزقيل وفي العادة أن يخرجوا من القفر بعد أن يقضوا زماناً في الصيام والصلاة

والاعتبار والتدبر يأتون باسم الله لا غزاة مثل القضاة بل منذرين ومبشرين يدعون الاسرائيليين الى الالة نابعة وقلب الاصنام والتوبة الى باري النسم وينذرونهم بالخطوب التي يبعثها الله عليهم بعد اذا لم ينيبوا اليه فكانوا من ثم يدعون ويتنبأون التعليم الجديد - رأى هؤلاء الرجال المستمسكون بالامر الالهى أن العبادة الرسمية في القدس غثة باردة . وليت شعري لم يذبجون البقر ويحرقون البخور اجلالاً لله على نحو ما يفعل الوثنيون . يقول عيسو : « أصبحوا الى باسماءكم وعوا ما يقوله تعالى : ما ذا اعمل بجموع قرايبتكم فقد شبت من ضحايا الغنم ومن دهن الحيوانات السمينة وما عاد يلذ لي دم الثيران ولا الخرفان ولا التيوس فكفوا إذا عن أن تقدموا لي ضحايا من العبث فان نفسي عزفت عن استنشاق بخورك ومتى ترفعون أيديكم أحول نظري عنكم لان أيديكم ملأى بالدم المهرق فقوموا وطهروا أنفسكم وارجعوا عن سيئات أعمالكم عودوا أنفسكم عمل الصالحات وخذوها بتوخي طريق الرشاد وحماية المظلومين واقسطوا اليتيم ودافعوا عن الاليم وعند ما تصير خطاياكم كالقرمزي حمراء تبيض كالثلج » وبهذا رأيت ان الانبياء أرادوا الاستعاضة عن القيام بالندور والضحايا بالعدل وصالح الاعمال

المسيح - استحق بنو اسرائيل ما دهمهم من المصائب ولكن لكل قصاص حد ينتهي اليه وغاية يقف عندها فقد قال عيسو باسم الحي القيوم أيها الشعب لا تخشى الاشوري أبداً فانه سينالك من عصاه مثل ما كان ينالك من المصري في الزمن الغابر ولكن ستفتأ سورة غضبي قريباً ويرفع عن كاهلك ذاك العبء الثقيل . وعليه فقد علم الانبياء الشعب اليهودي أن ينتظروا بعثة من يخلصهم وهياوا السبل للمسيح

الشعب اليهودي

الرجوع إلى بيت المقدس - جاء أبناء يهوذا من سهل الفرات وغرب نيسوا وضئهم ولطام حنفلوا ه وتذكروهم في أنشيدهم يقولون جاسد على شاطئ - انهر - بل وبكينا وقد ذكرنا صهيون - فعيداننا كانت معلقة في شجر الصفصاف على ضفة النهر وكان يقول لك من اتوا بنا : اتعنوا بضع أنشيد من جبل صهيون ولكن أنفي لنا ان نغنى أنشيد الرب في ارض عربية وبعد سبعين سنة في العبودية اذن ساروس فأنقح بلاد بل ان يعودوا إلى فلسطين جددوا بيت البيت المقدس والمعبود واعدوا إلى احياء الاعيد والاحتفاد ككتب المقدسه وجددوا العيد مع ربهم علامه على انهم سددوا إلى طاعته وندوا من نعمه وهذا العيد عبارة عن ميثاق على لاصول كتبه اعين الشعب ووقعوا عليه .

اليهود - دامت مملكة القدس الصغرى مدة سبعة قرون يحكمها ملكات وكنهن كبير آخرى وفي كتبه احداث كانت تؤدي حربه إلى رستم - ١٠٠٠ به بجى جبراء - الفرس اولا ثم المقدونيين ثم السور يون ثم اربوه - نيم - يهود سددى اليهود ا دله كدات لم رجوسيه (مع ربهم طاولوا على عبيدهم الاول من مهن سبعة مهن - ١ - لاحتفاد - لاحتفاد وخذية التذور في القدس وكان الكهنة الاكبر يحتفظ سبعة تطهرة مجمع لاحتفاد وكتبه ينقبون واعلم : يفسرونها شمع وحبوب مؤمنين يرون من واحباتهم اخري طيبا واهل مدقية وجليلا واشتهر الفريسيون خاصة بغيرتهم وتفاخيرهم في التقيم بمسروب لاعمل العنافة

المدارس (الكنائس) - ومع هذا فقد كان اليهود يرحلون في التجارة وينشرون خارج بلادهم في مصر وسوريا وآسيا الصغرى وايضاليا وكانت طائفة من اهل مذهبهم في المدن الكبرى جميعا كالاسكندرية ودمشق وانطاكية وافيس وكورت ورومية وكانوا اذا يجتمعون في صعيد واحد يحتفظوا كيانهم ويجمعوا شملهم انشأت بن الوثنيين ولم يقيموا المعاد لان الشريعة كانت تحظر عليهم ذلك وليس لهم ان يبنوا سوى معبد يهودي واحد الا وهو معبد القدس حيث كان يحتفظ الاعيد وانه المواسم والشعار يدانهم كانوا يجتمعون ليشرحوا كلام الله ويتوبوه ودعيت هذه الاماكن باسم يوناني (الكنائس) ومعناه المجالس خراب المعبد - ظهر المسيح في حلال تلك المدة فصلى اليهود واضطهدوا حواريه سوا : كان في بلادهم او في المدن الكبرى التي حل فيها امر الفخير منهم - ولقد شقت القدس عصا الطائفة عام ٧٠ على الرومانيين فاخذت عنوة وذبح سكانها كافة او بيعوا بيع الاما والبيد اتى الرومانيون النار في المعبد وقد حنق وضاهيه بالاغلاق المقدسة - ومن يومئذ لم يعهد لليهود بحجم دينهم

ما كتب على اليهود بعد تفرقهم - عاشت الامة اليهودية بعد خراب عاصمتها ولما تشنت شملها تحت كل كوكب في العالم انشأت تستغي عن المعبد وابقت كتبها المقدسة مكتوبة بالعبرية . والعبرية لغة بني اسرائيل الاصلية لم يتكلم بها اليهود منذ رجوعهم من بابل بل اقتبسوا لغات الشعوب المجاورة كالسريانية والكلدانية وخصوصاً اليونانية . على ان المتأثرين في الدين من الرابانيين ظالوا يعرفون العبرية وهم يشرحون التوراة ويفسرونها وهكذا حفظت الديانة اليهودية وبفضل اللغة العبرية ايضاً بقي الشعب اليهودي وكثير اشياع هذا الدين في الاغيار فكان في المملكة الرومانية اناس كثيرون ممن يدينون باليهودية وليسوا من العنصر اليهودي في شيء .

قويت شوكة الكنيسة المسيحية في القرن الرابع فطفقت تضطهد اليهود اضطهاداً دام الى يوم الناس هذا في البلاد المسيحية جمعاء . ومن العادة ان يتسامح مع اليهود في اجراء مراسم ديانتهم لقنهم واستثمارهم بفروع الاعمال المالية واكنهم يخونهم عن ممارسة الوظائف الادارية ولقد اكرهوا في معظم المدن ان يلبسوا ثياباً خاصة ويزلوا في حي خاص مظلم وخيم وبيل وان يمشوا احياناً باحدهم يصنع في عيد الفصح والناس يرمونهم بانهم يسمحون النايغ ويقتلون الاطفال ويدنسون القربان المقدس ورتبا يثورون بهم في الاحايين فيقتلونهم ويغتمون ما في دورهم ويسقيهم قضاة البلاد السم او يعذبونهم او يحرقون لاقبل حجة تافهة ولطالما نفتتهم الحكومات زرافات من بلادها وصادرت اموالهم ولقد اجتث دابر اليهود من فرنسا واسبانيا وانكاثرا وايطاليا ولم تبق منهم بقية الا في بلاد البرتغال والمانيا وبولونيا وفي البلاد الاسلامية ومن هذه الممالك رجعوا الى سائر قارة اوروبا منذ انتهت ايام اضطهاداتهم وكف الناس عن ارهاقهم واعنائهم



الفرس

دين زردشت

ايران - بين نهري دجلة والسند وبحر الخزر والخليج الفارسي صقع عظيم يعرف ببلاد ايران تبلغ مساحته خمسة اضعاف مساحة فرنسا او تزيد ولكن معظمه مجذب قاحل فهو يتألف من صحارى رمال محرقة ومن انجاد باردة فارسة تشقها اودية عميقة شجواء وتحيط بها جبال شاهقة. واذ حيل بين الانهار وجريها فهي لا تسير الا ريثما تضيع في الرمال او في بحيرات مالحة. ويشتد هواء هذه البلاد وينقلب فيكون حراً في الصيف وقرّاً في الشتاء وقد يجتاز من يهبط هذه البلاد من منطقة تبلغ درجة حرارتها نحو ٣٢ تحت الصفر الى منطقة حرارتها ٤٥ سنغرادا بمعنى ان تلك البلاد جمعت الى برد سيبريا حرارة السنيغال. وهناك تصف الرياح الزعازع فتفعل في الاجسام فعل الحسام. بيد ان الاودية وضفاف الانهر مخصبة مذبذبة. وهذه البلاد هي ولا جرم مصدر الدراق وشجر الكرز ومستنبت الثار والمراعي الايريانيون - سكنت بلاد ايران قبائل من الآريين (١) (القاطنين ببلخ اي بكتريا وهي الوطن الاصلي للجنس الآري) كانوا كسائر ابناء هذه البلاد جنساً من الرعاة المسلمين المحاربين. ولقد كان الايريانيون يقاتلون على ظهور الخيل وبطلقون السهام ويلبسون البسة من الجلد يجعلونها وقاية على ابدانهم من هواء بلادهم الشديد.

زردشت - عبد الايريانيون اولاً ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة وخصوصاً الشمس «ميتر» وقام بين اظهرهم حكيم اسمه زردشت (مه اباد وله كتب كثيرة منها ما له علاقة بالشرعية ثم ظهر زردشت واصلىح هذا الدين) ويدعوه الافرنج زرواستر فاصلىح ديانة الايريانيين بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد ولم يلقنا من اخباره غير اسمه. الزانداستا (الزندوبازندواستا) - لم يبق شيء مكتوب يؤثر عن زردشت ولكن تعاليمه المؤلفة بعده يزمن طويل قد حفظت في الزانداستا اي الشرعية والاصلاح وهو كتاب الفرس المقدس. وقد كتب هذا السفر بلغة قديمة لم يفهمها اتباع هذا المذهب انفسهم ودعواها

(١) ما كان في هذا الفصل بين هلائين هو في الغالب من املاء العالم الدكتور مرزا مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء صاحب جريدة حكمت الفارسية النراء بمصر واليه رجعنا في تصحيح بعض الاعلام

اي الافرنج بازند » وكانت تنقسم علي ماورد في اساطيرهم الي احدى وعشرين نسخة كتبت علي اثني عشر الف جلد ثور ضم بعضها الي بعض باسلاك من الذهب وابادها المسلمون لما فتحوا بلاد فارس واحتفظت بعض اسرات ايرانية بتعاليم زردشت واخلصوا دينهم له فلجأوا الي بلاد الهند فحفظ فيها اخلافهم المدعوون بارسيس تلك الديانة القديمة . وقد وجد عندهم سفر تام من الزانداستا وقطع من الكتابين الآخرين .

اورمزد « هرمز وهرمس » واهرمين « رمز الي العقل والنفس وعند العامة اله الخبير والشر » هذه ديانة زردشت علي نحو ما ورد في تلك الكتب الا ان هرمز الذي يدعوه الافرنج اورمزد وهو الديان الذي لا يخفى عليه شيء خلق العالم والقوم يصلون له بهذه الالفاظ : ادعو الخالق هرمز واحنفل بشعائره فانه النور والضياء عظيم رحيم كامل شهيم ذكي جميل سام طاهر يعرف العلم الصحيح مصدر اللذة وهو الذي برأنا وصورنا واظمنا » واذ كان علي جانب من الصلاح لم يخلق الا ما هو كذلك وما يرى في العالم من شر فقد برأه رب الشر انكره انيو اي روح العذاب وندعوه اهرمين (وديو اي شيطان)

الملائكة والشياطين - يقف اهرمين الشقي انخر بقبالة هرمز الباريء الحلیم ولكل منهما طائفة من الارواح فجنود هرمزم الملائكة المطهرون « يازاستا » وجنود اهرمين شياطين خبيثة (ديو) ويسكن الملائكة في الشرق في ضوء المشرق والشياطين في الغرب في ظلمات الشفق وكلا الجيشين لا يزالان في حرب دائمة والعالم ساحة قتالهما لان كليهما حاضر في كل مكان فيسعى هرمز وملائكته الي الاحتفاظ بالخلق واسعادهم وصلاحيهم ويطوف اهرمين وشياطينه حولهم لاهلاكهم وسوء طالعيهم وظالحيهم

خلائق هرمز واهرمين - كل حسنة في الارض هي من صنع هرمز وتستخدم للخير فالشمس والضياء اللذان يطردان الليل والنكواب والشراب المخمر الذي يتراءى كأنه ضوء سيال والماء المروي للانسان والحقول المزروعة التي تغذيها والاشجار التي يستظل بها والحيوانات الاهلية والكلب والطيور منها خصوصا ما يعيش منها في الضوء ولا سيما الديك لانه يبشر بالنهار هذه كلها برأها هرمز . وعلي العكس ينبعث كل ما يفسد من اهرمين فيكون شراً مثل الليل والجفاف والبرد والقفر والنباتات السامة والشوك والحيوانات الكاسرة والافاعي والحلمات الطفيلية (كالبعوض والبراغيث والبق) والحشرات التي تعيش في الحجور المظلمة كالضباب والمقارب والضفادع والجردان والنمل - وهكذا تبعث الحياة والطهارة والحقيقة والعمل وكل ما حسن في عالم الاخلاق من هرمز . والموت والقذارة والكذب والكسل وكل ما خبيث وساء ينبعث من اهرمين

العبادة - مصدر العبادة والاخلاق من هذا الاعتقاد فلي المرء ان يعبد رب الخير (١) وبناضل عنه . يقول هيرودتس : ان من عادة الفرس ان لا يقيموا هياكل ومعابد ومذابح الارباب وبعده من أتي ذلك كافرين بالنعمة لان هذه الامة لا تمنقذ اعتقاد اليونان من ان الارباب صورة على نحو صورة البشر . وان هرمليدو بهيئة النار او الشمس ولذا يحنل الفرس بهبادتهم في الخلاء على الجبال امام موقد مشتمل فينشدون الاناشيد عجيداً لهرمز ويذبحون له الحيوانات (كذا) دليلاً على عبادته

الاخلاق - ناضل الانسان عن هرمز محسناً لعمله مقبلاً لعمل امرين فيجاهد في الظلمات وهو يمد النار بالخطب الجاف والمطور ويجاهد في القفر بجرث الارض وابتناء البيوت ويجاهد حيوانات امرين بقتل الحيات والضباب والحلمات الطفيلية والحيوانات الكاسرة ويجاهد الدنس وذلك انه يتطهر ويدفع عنه كل ما مات وخصوصاً الاظافر والشعور وحيثما وجدت الشعور والاظافر المقصوفة فهناك يجتمع الشياطين والحيوانات القذرة . ويجاهد الكذب جاريّاً على قدم الصدق . قال هيرودتس ان الفرس يستنجون انكذب وهو عندهم عار وسبة كما انهم يكرهون الاستدانة لان المدينون يكذب بالضرورة . ويجاهد الموت وذلك بالزواج والاستمكثار من الولد . جاء في الزانداستاها افصح البيوت التي حرمت من النسل والفراري الجنائز - متى مات الانسان تعود جثته الى رب الشر ولذلك يقنعي انقاذ الدار منها لا باحراقها فانها تنجس الدار ولا بدفنها فانها تنجس الارض ولا باغراقها فانها تنجس الماء ومن فعل ذلك فيكون قد تلطخ بجمأة القذرة ابد الدهس وطريقة الفرس في دفن موتاهم تختلف عن غيرهم من الامم فيجعلون الجنة في مكان عال مكشوفة جبهتها نحو السماء مثقلة بالحجارة ثم يركنون الى الفرار خشية من الشياطين لانها تجتمع بزعمهم في اماكن الدفن حيث مأوى المرض والحمل والقذرة والرعب والشعور القديمة وعندها تجي الكلاب والطيور وهي من الحيوانات الطاهرة فنطهر اجثة باقتراسها

مصير الارواح - تنفصل روح الميت عن جسده وفي اليوم الثالث من موتها يؤثر بالروح على الصراط (شايواد) المؤدي الى الجنة ماراً فوق هاوية جهنم فيسأل هرمز الروح عندئذ عن حياتها السابقة فاب كانت محسنة تعيدها الارواح الطاهرة وارواح الكلاب وتأخذ بيدها لاجتياز الصراط ويدخل بها الى مقام السعداء (برودس اي فردوس)

(١) ان بعض زنادقة الفرس لعهدنا (هـ في ارض الجزيرة) يعبدون رب الشر على عكس ذلك ويزهون الى ان اذهب الخير ما كان في داته صالحاً ورحماً لا حاجة ان يخضع له وبقرب اليه بانواع القربات وتدعى هذه الطائفة اليزيدية (عبدة الشيطان) قاله المؤلف

فيهرب الشياطين لانها تتجافى عن روح الارواح النقية اما روح الشرير فتصل على العكس من ذلك الى الصراط ضعيفة مرتجفة لا يأخذ احد بيدها ويلقي بها الشياطين في الهاوية ويتناولها روح الشر ويقيدها في قمر الظلمات .

طبيعة الديانة الهرمزية او الهرمسية المزدية - نشأت هذه الديانة في بلد يستند فيه الاختلاف والتناقض فيها الاودية الباسمة بزرعها والاراضي البائرة المحزنة والواحات الرطبة والقفار المحرقة والحقول والسهول الرملية بحيث نترأى قوى الطبيعة فيها كأنها في حرب عوان ابدًا . وهذا الجهاد الذي يمثل للفارسي فيما يحيط به قد اتخذته شريعة للعالم . وهكذا تألفت ديانة خالصة من الشوائب تدفع بالانسان الى العمل والفضيلة على حين قد انتشر هذا الاعتقاد بالشیطان والجن في الغرب وشغل شعوب اوربا كافة بالاوهام .

المملكة الفارسية

الماديون (١) - سكنت بلاد ايران عدة قبائل ولم يشتهر من بينها سوى الماديين والفرس خيم الماديون في غرب بلاد فارس وهم اقرب الى الاشوريين ولذلك كان على ايديهم خراب نينوى وبلادها « ٦٢٥ » ولكن لم يلبثوا ان امتزجوا في الترف وانشأوا يتخذون ثيابا مسدولة وبألفون البطالة ويعتقدون اعتقادات خرافية شأن الاشور بين الساقطين وما زالوا على ذلك حتى امتزجوا معهم اي امتزاج .

الفرس - اما الفرس فكانوا في الانحاء الشرقية (واجنوبيه) واحتفظوا باخلاقيهم وديانتهم وشدتهم . يقول هيردوتس : ان الفرس لا يعلمون اولادهم اثنى سن العشرين غير ركوب الخيل ورمي النشاب وقول الصدق .

قورش اوسيروس او كينسرو - قام ريسه قورش حوالي سنة ٥٦٠ وخلق ملك الماديين (الذي هو جده لأمه) وجمع تحت لوائه شعوب ايران كافة ففتح بهم ليديا وبابل وجميع بلاد آسيا الصغرى . وروى لهذا الملك قصة فصلها هيردوتس في تاريخه تفصيلا شافيا قال انه دعا نفسه في بعض مازيره على الاحجار بقوله انا قورش منبت الكتاب والعظمة والافتداز انا ملك بابل وسومير واكاد ملك الاقاليم الاربعة وابن كبيبز (كيكاسوس) ووسلطان سوزيان رسوم يستون - اهلك كبيبز بكر اولاد قورش اخاه سمرديس وفتح مصر (على قول اليونان) علما ذلك مما اتصل بنا من الرسم الذي مثل فيه ذلك ولا تزال ترى الى اليوم في تخوم الفرس

(١) (بلاد مادي يسميها العرب بلاد الجبل والعراق المجعي وازر بايجين واستراباد اي ولايات فارس وكرمان ومكران اي بلوچستان وخراسان)

وسط سهل الفج صخرة هائلة نحتت نحتاً عمودياً علوها ٤٥٠ متراً وهي صخرة ليستون وهناك حروف ناتئة على الحجر تمثل ملكاً متوجاً ويده اليسرى على قوس وهو يدوس اسيراً وتسعة أسرى آخرون واقفون امامه وقد قديم بنفسه . وكتبت ترجمة حياة الملك في رسم ثلاث لغات فقد اعلن الملك دار يوس « دارا » ذلك فقال : هذا ما قت به قبل ان اغدو ملكاً فقد كان كبيز بن قورش من بني جنسنا يحكم هنا قبلي وكان له اخ لا يبه وامه واسمه سميرديس فقتل ذات يوم كبيز اخاه سميرديس ولا علم للقوة بما جنته يده . ثم وجه كبيز وجهته نحو مصر وبينما هو نازل فيها ثار به الشعب وكان قد اصبح الكذب مألوفاً اذ ذاك في تلك البلاد وفي بلاد مادي وسائر العائلات فقام موبدان « ١ » كان حاضراً اذ ذاك اسمه غوماتا وخدع الامة بقوله : انا سميرديس بن قورش وعندئذ انتقض الشعب اجمع وانصرفوا نحوه متخلفين عن كبيز . ثم قضى كبيز نجبه بجراح جرح نفسه به وبعد ان اتى غوماتا ما اتى من هذه الحيلة واستلب من كبيز بلاد الفرس ومادي وسائر الاقطار جرى في الخطة التي شاءها فصار ملكاً على هذه البلاد وحاكماً متحكماً في اهاليها . فخافه الشعب لظلمه وكان لا يستنكف من قتل الامة عن بكرة ابائها لئلا تنكشف حيلته ويعرف القوم انه لصيق بسميرديس بن قورش ودعي في نسبه وقد اظهر الملك دار يوس هذه الخديعة ولم يكن احدي في بلاد الفرس ومادي يجرا على استرجاع تاج الملك من هذا الموبدان غوماتا . قال دارا بعد ان قدم ما سلف وعندئذ تقدمت ودعوت الرب هرمز فاءانني بالتوسل به وكان في صحبتي ناس ذوو اخلاص وصدق فاءانوني على قتل غوماتا وخاصة رجاله فاصبحت ملكاً بشيئة هرمز واستعدت الملك الذي كان بنو قومنا سلبوه وارجعته الى حوزتي واخذت اعيد المذابح التي طوى بساطها الموبدان غوماتا وذلك لاني كنت مخلصاً للامة واعدت الاناشيد والاحتفالات المقدسة الى سابق عهدها . واضطر دارا بعد ان ضرب ذلك الدخيل غوماتا ضربة قاضية ان يقاتل عدة زعماء ثائرين فقال لقد قاتلت تسع عشرة موة وغلبت تسعة ملوك .

المملكة الفارسية — علم بامضى ان دارا اخضع المملكة المختلطة واعاد مملكة الفرس وقد وسع نطاقها بفتح تراس « تراثيا وهي اليوم بلاد البلغار والرومي » وولاية من الهند . وكان يضم تحت لوائه شعوب الشرق اجمع من ماديين وفرس واشوريين وكلدانيين ويهود وفينيقيين وسوريين وليديين ومصريين وهنديين فكان سيف سطوته يحمي الاصقاع الواقعة بين نهر الدانوب « الطونة » غرباً ونهر الاندوس (السند) شرقاً وبين بحر الخزر شمالاً الى شلالات النيل جنوباً . مملكة لم يعهد لها مثيل في النخامة (١٢٠ مملكة) بيد ان قبيلة جاءت بمد

(١) (موبد موبدان اي رئيس الكهنة)

قال كبيز وقد استشاط غضباً من هذا : اعلم اذا كان الفرس يقولون حقاً وصدقاً . فاذا انارميت
بسمي قلب ابنتك الذي تراه واقعاً امامك في هذا البهو فذلك ان الفرس لا يعرفون ما يقولون .
وما هو الا ان اعد قوسه وضرب ابن بريكتاسب نحر الفتي صريعاً فجاءه الملك ينظر ابن
اصابه سممه فراه قد اصماه ومزق حشاه . فاستنفر السرور الملك وقال لوالد الغلام وهو
ضاحك : لقد رأيت بهذا ان الفرس قد اضاعوا رشدهم فقل لي هل عهدت احداً يطلق
السهم اطلاقاً له فيصيب الغاية على ما رأيت من الرشاقة . فقال بريكتاسب لا اعتقد ايها
المولى انه في وسع الرب نفسه ان يرمي النبال مثلك في الدقة والاعتدال

اعمال الفرس — ادى شعوب آسيا في كل دور من ادوارهم جزية للفاتحين وخضعوا للظالمين
والغاشمين فنفعهم الفرس كثيراً بان كفوا بعضهم عن مقاتلة بعض وازالوا من بينهم اسباب
الشحناء وذلك لانهم اخضعوا كل الشعوب لرئيس واحد . وكان عهدهم عهد سلام لم تعهد
فيه مدن تحرق ولا ديار تحرب ولا سكان تذج او تؤخذ زرافات وافواجاً لتستعبد

مدينتا سوس وبرزوبوليس (١) -- 'عني ملوك الماديين والفرس باقامة القصور على نحو
ما كان يقيم ملوك اشور . واحسن ما اتصل بنا خبره من تلك القصور قصور دارا في سوس
وبرسو بوليس وقد حفر الميسو ديولافوا الافرنسي خرابات سوس فعثر فيها على نقوش وقرامد
مزينة بالمينا تبين ارتفاع الصنائع اذ ذاك وبقيت من قصر البرسو بوليس خرائب عظيمة
وقد نحت في صخر الجبل سطح عظيم قام عليه القصر وهو يوصل اليه بسلم واسع بانحدار قليل
بحيث كان يتأق لعشرة فرسان ان يصعدوه معاً

النقش الفارسي — حذا نقاشو الفرس حذو الاشوريين في اقامة قصورهم فقيدها في
برزو بوليس كما تجدها في بلاد اشور سقوفاً متسعة السطوح يحرسها اسود من الحجر والنقوش
النائية تمثل صيوداً واحتفالات . وقد احسن الفرس في اتمام نموذجاتهم في ثلاثة اشياء .
وذلك بان استعملوا الرخام عوضاً عن القرميد وجعلوا في الردهات سقفاً بالخشب المصور وانشأوا
اعمدة خفيفة على شكل جذوع الاشجار في اقصى ما يعلم من الخدافة واللفظ وهي اعلى من
محيطها باثني عشرة مرة . ولذلك جاءت نقوشهم اجهل اثرأ ووقع في النفوس من نقوش
بلاد اشور . وقبلما نفع الفرس في الصنائع ويظهر انهم كانوا احشم شعوب ذلك العصر
واطهرهم واشجعهم وكانت وطأة حكمهم في آسيا مدة قرنين اقل جوراً مما عرف من ضروب
الحكومات وكانوا اميل الى الرفق بن يحكمون

(١) (سوس في ولاية شستر هي التي ظهرت فيها شريعة همورابي وبرزو بوليس هي
اصطخر في ولاية فارس بالقرب من مدينة شيراز)

واستولت على تركة الممالك الآسيوية باجمعها

اقبال الفرس - قلما يعنى ملوك الشرق بامر رعاياهم الا ليستنزفوا اموالهم ويمتنعوا في سبيل سلطانهم ابناؤهم وينالوا مديهم وتناءهم وما قط اخذوا انفسهم بالنظر في شؤون من يحكمونهم. وكان شأن دارا (١) في هذا المعنى شأن سائر ملوك الشرق ترك كل قبيل في بلاده يحكم نفسه على ما يشاء ويشاء هواه مخفطاً بلغته ودينه وشرائعه واحياناً يبرؤ سائه وسادته من قبل . على انه كان يعنى بتنظيم دخل المملكة الذي ينقاضه من رعاياه فقسم بلاده الى عشرين (١) حكومة سماها امارة . وكان في كل حكومة شعوب مختلفة كل الاختلاف سواء كان بلغتها او عباداتها ومعتقداتها وكان على كل حكومة ان تؤدى مساهمة خراجاً معيناً بعضه نقد " ذهب وفضة " وبعضه غلات ونواتج " قمح وخيل وعاج " فيتقاضى حاكم كل مقاطعة او قبيلها من وسد اليه امرها الخراج ويبعث به الى مولاه الملك

دخل المملكة - بلغ مجموع دخل الملك ثمانين مليوناً بسكة زماننا ما عدا خراج الغلات . واذا اعتبرنا قيمة النقود في ذلك العصر فانها تعادل ستائة مليون جنيه (٢) في ايامنا . وكان الملك يذوق هذا على حكومته وجيشه وخاصته ويزخ قصره ويبقى عنده كل سنة سبائك عظيمة من العين يدخرها في صناديقه وكان ملك الفرس مثل سائر الممالك يرى امتلاك الكنوز العظيمة من دواعي الابهة والتمجد

السلطان الاعظم - لم يكن في العالم انفى ولا اقدر من ملك الفرس فقد كان اليونان يدعونه السلطان الاعظم . (ملك الملوك شاهنشاه) وكان له كسائر ملوك الشرق سلطة مطلقة على رعاياه كافة فرساً كانوا ام غيرهم من سائر الشعوب الخاضعة لعرشه . وانت ترى فيما ذكره هيرودتس كيف كان كبيز يعامل اعظم سادات قصره : سأل يوماً بريكستاسب (بري كشتاسب اي روح العظمة) وكان ابنه يسقيه ماذا نقول الامة في امري ؟ فاجابه : مولاي انهم يثنون على محامدك اطيب الثناء ولكنهم يذهبون الى ان لك ميلاً قليلاً للغير

١ (هو ابتدع طريقة البريد وتجنيد العشرة والمئات والالوف الخ وجعل لكل مملكة حاكماً مدنياً وحاكماً عسكرياً وجعل كلا عينا على صاحبه يرسلان اليه بتقاريرهما كل اسبوع)

٢ قال المؤلف ذكر هيرودتس عشرين حكومة وقد عثر في الرسوم المزبورة على احدى وثلاثين حكومة قال مرزا مهدي خان الظاهر ان هذا الالتباس في تقدير الاعداد جاء من ان ممالك هذا الفاتح العظيم كانت منقسمة لثلاثة اقسام منها مملكتا مادي والفرس الخاصة وما بقى منها قسمان قسم استعماري وقسم استملاكى

اليونان

العناصر اليونانية

• صورة هذه البلاد — ارض يونان من الاقاليم الضيقة المضطرب (هي ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة سويسرا ولكنها بما فيها من اختلاف الالهوية وما يتخللها من الجبال وينقسمها من الخلجان اقليم غريب في شكله خلق ليوثر تأثيراً كبيراً في اخلاق ساكنيه . ونقطع ارض اليونان من وسطها سلسلة من الجبال (البند) فيناوح الجبل فيها جبلاً مثله ويقوم الصخر الى جانب الصخر حتى اذا بلغ ترعة كورنت ينخفض وترفع مقاطعة المورة في الجانب الآخر من التربة فيعلو عن سطح البحر ستائة متر كأنه حصن احاطت به سلاسل عالية وعرة مثلجة تنزل في البحر على خط قائم وتمتد الجزر على طول الشاطئ وما هي الا جبال مغمورة يمراسها فوق الماء . ونقل في هذه الارض ذات الوهاد والتجاد التربة الزراعية وتكاد لا ترى حيثما القيت ناظرك غير صخور جرداء مرداء اما الانهار فتشبه سيولاً ليس فيها غير طريدة ضيقة من التربة المنبتة بين مجراها ونصفه جاف وبين صخور الجبال الجرداء . وكان في هذه البلاد الجميلة بعض غابات واشجار سرو وغار ونخيل وكروم غرست في مواضع من التلال ولكن قلمات بغلات جيدة او براعي خصيبة . فبلاد هذا شأن طبيعتها ينشأ ابناءؤها هموة قدودهم قوة اجسادهم قناعة نفوسهم .

البحر — تعد بلاد يونان من البلاد الساحلية وهي اصغر من البرنغال وشواطئها تكاد تقرب من شواطئ اسبانيا بكثرتها ينساب فيها البحر من عدة خلجان ووقائع (١) وتجاريم . ومن العادة ان يحيط باليم صخور نتقدّم او جزر نتقارب يتألف منها مرفأ طبيعي . وهذا البحر اشبه بحيرة لامتد فيها ولا جزر ولذلك سملت شواطئه من الضرر وليس لونه كالبحر المحيط ابيض كامداً كثيباً وهو في العادة هادي ، صاف ولونه كالبنفسج كما يقول هوميروس ولا اكثر استعداداً من هذا البحر للسفر فيه سفراً قصيراً . ولقد تهب ريج الشمال صبيحة كل يوم فتسير بها قوارب مدينة آثينة نحو آسيا وتقدفها ريج الجنوب في المساء الى المرفاء والجزر من بلاد اليونان الى آسيا الصغرى قائمة مثل صخور الكمين واذا صحت السماء نقطع السفينة المسافة وهي بمقربة من اليابسة تراها كل حين . ولذلك كان لسكان هذه البلاد من سكنون بحرهم باعث على ركوبه واجتيازه فاصبح اليونان من ثم بحارة وتجاراً وسياحاً

(١) في القاموس الواقعة نقرة في جبل او سهل يستنقع فيها الماء جمعه مرفاع ووقائع .

ولموص بحر ومتشردين على نحو ما كان الفينيقيون فانتشروا في العالم القديم اجمع وجلبوا الى بلادهم سلع مصر وبلاد الكلدان وآسيا واختراعاتها .

هواؤها — لطف هواء بلاد اليونان حتى ان الجليد في آثينة لا يحدث الا في كل عشرين سنة والحر معتدل في الصيف بما يهب عليها من نسيم البحر والى اليوم لا يزال الشعب فيها ينام في الطرقات منذ شهر مايو « ايار » الى اواخر سبتمبر « ايلول » والهواء فاتر جاف وكان يرى على بضعة فراسخ في القلعة المظلمة على آثينة ريش تمثال بالاس وليست دوائر الجبال القاصية مستورة بالضباب كما هو الحال عندنا معاشر الفرنسيين بل انها تخل بأسرها في السماء الصافية . هذه البلاد ببجالتها تدفع المرء ان يتخذ الحياة عيداً فيرى كل شيء يسم حواليه من نزهة في الحدائق بالليل واستماع اصوات الصراخ ومن الجلوس في ضوء القمر والضرب باشباب وقصد الجبال للشرب من مائها واستحباب الراح وشربه على النغات والاغاني وقضاء الايام في الرقص هذه هي ملاذ اليونان وما هي الا ملاذ جيل من الناس فقير مقنص فتي لا يعرف الهرم ابداً .

بساطة العيشة اليونانية — لا يتعب المرء من حرارة هذه البلاد ولا يشقى ببردها بل يعيش في الهواء الطلق مسروراً قليل النفقة ولا تقضيه البلاد غذاء غزيراً ولا ثياباً ثقيلة ولا داراً مرفهة . فقد كان اليوناني يتبلغ بحفنة من الزيتون وسمك السردين ولبس نعلًا وقيصاً ورداء كبيراً . وكثيراً ما كان يخرج حافياً مكشوف الرأس وداره بناية منيعة ليست من المئانة بحيث يدفع اللصوص عن دخولها بثقب حائطها ولا له من الاثاث غير فراش وبعض لحف وبضع اوان جميلة ومصباح وكانت الجدران خالية من الزينة مبيضة بالجير « الكس » ولا ياوي الى الدار الا آونة النوم فقط .

بلاد اليونان الاصلية

اصل اليونان — كان اصل الشعب الساكن في هذه البلاد الجميلة الضيقة النطاق من الجنس الآري انساب الهنود والفرس جاؤا مثلهم من جبال آسيا . ولقد نسي اليونان تطواف اجدادهم الطويل فكانوا يقولون انهم ولدوا من التراب كالصراخ . بيد ان لغتهم واسماء اربابهم لم تترك مجالاً للشك في اصلهم . وكان اليونان الاول كسائر الآريين يقتاتون باللبن ولحوم القطعان ويسرون مدحجين بالسحتهم وهم ابداً على قدم القتال ينضمون قبائل وفصائل تحت إمرة بطاركتهم .

اساطيرهم — جهل اليونان اصولهم كسائر الشعوب القديمة فلم يكن لهم من اسلافهم ولا بالزمن الذي غوطنوا فيه ارض يونان ولا بشيء من اخبارهم واعمالهم فيها . وان حفظ

ذكر الحوادث الطارئة كما وقعت ليتوقف على اعداد الاسباب لها ومن اسبابها الكتابة . غير ان اليونان لم يعرفوها الاً حوالى القرن الثامن (ق . م) ولم يكن لهم واسطة لحساب السنين ثم اتخذوا بعدُ طريقة حساب السنين اعتباراً من المهرجان العظيم الذي كانوا يحتفلون به في اولمبيا كل اربع سنين وتدعى هذه المدة الآلة الاولمبية وقد وضعت الاولمبية الاولى عام ٧٧٦ فتسلسل تاريخ اليونان منذ ذاك الحين ولم يتصل بما وراء ذلك . ومع هذا فقد نقلت اساطير كثيرة عن هذه المدة الاولى في البلاد اليونانية وخصوصاً قصص قدماء الملوك والابطال الذين كانوا يعبدونهم كأنهم نصف ارباب وهذه الاقاصيص مشوبة بحكايات يتعذر الامام بما فيها من حق وصدق فقد ذكروا في آثينة ان الملك الاول المدعوسكروبس كان نصفه ملكاً ونصفه حية وذكروا في ثيبة ان كادموس مؤسس المدينة جاء من فينيقية للبحث عن اخت اوروبا التي خطفها ثور وكان قبل نينياً وزرع اضراسه فنبئت منها مقاتلة ومنهم مناسلت الاسرات الشريفة في ثيبة وزعموا في مدينة ارغوس ان اصل الاسرة المالكة من ييلوبس وكان اعطاها المعبود زيوس كتنقاً من العاج للاستعاضة عن كنفه التي اكلتها احدى الارباب . وهكذا كان لكل بلد اساطير يتلونها ويتناقولونها وظل ابناؤ يونان يذكرونها الى ما بعد ويثبتون لابطالهم القدماء نصيباً من روح الربوبية مثل ابطالهم برسي وييلدروفون وهيراكليس وتيزي ومينوس وكاستورس وبولوكس وميلينا كرس وادينسي ومعظم اليونانيين بل ان الطبقة المتأخرة منهم اتخذوا هذه التقاليد حقائق لانزاع فيها الاً قليلاً . تلقوها على نحو ما تؤخذ الحوادث التاريخية اخبار الحرب بين ابني اديس ملك ثيبة وحملة الارغونوت التي سافرت في طلب جزء الكبش التي قام بحراستها ثوران لها ارجل من فلز تقذف النار من افواهها .

حرب طروادة — اشهر هذه الاقاصيص كلها حروب طروادة وهي اوسعها بياناً ونصيلاً فيروى انه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة غنية ذات سطوة اسمها طروادة وكانت الحاكمة المتحكمة على شاطئ القارة الآسيوية فجاء احد امراء هذه المدينة واسمه باريس الى ارض يونان وسبي هيلانة حليمة منيلاس ملك اسبارطة فاتفق اغاممنون ملك ارغوس مع سائر ملوك اليونان وانفذوا لحصار طروادة جيشاً يونانياً على اسطول مؤلف من الف ومائتي سفينة فدام الحصار عشر سنين اذ كان الرب زيوس راضياً عن الطرواديين عاقداً النصر بالويتهم . ولقد اشترك مقاتلة اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة بيد اشيل وكان اجمل اليونانيين خلقه واشجعهم نفساً وجراً جثته حول المدينة . قاتل اشيل سلاح الهي وهته اباه امه ربة البحر ثم هلك سهم اصابه في عقبه . حتى اذا

يش اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا الى الحيلة فاهموا انهم ازمعوا الرحيل وتركوا وراءهم حصاناً ضخماً الجثة من خشب اختبأ فيه زعماء الجيش فاخذ الطرواديون هذا الحصان وادخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القواد منه وقحموا ابواب المدينة لليونان فخرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء .

ولما قفل زعماء اليونان من غزائهم هبت عليهم العاصفة ففرق بعضهم في البحر وقذفت الانواء بفريق منهم الى شواطئ ، بعيدة وكان من حظ عولس اكثر هؤلاء الزعماء جريرة ودهاء واطولهم يداً في كيد المكاييد ان قضى عشر سنين تقاذف به البلا دحى ادت به الحال ان فقد سفنه جمعاء ونجا من الفرق برأسه .

وبعد فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعاً في القرون القديمة شيوع الاخبار الثابتة . فزعم القوم ان غاية الحصار كانت سنة ١١٨٤ وحددوا مركز تلك المدينة . وقد خطر للمسيو شيلمان من علماء الآثار سنة ١٨٧٤ ان يحفر محل هذه المدينة فاقضى له ان يزيل انقاض عدة مدائن منضدة بعضها فوق بعض فعثر على عمق خمسة عشر متراً في اعظم طبقة من تلك الانقاض على آثار مدينة حصينة استحوالت رماداً وظفر في خرائب اهم تلك الابنية بصندوق 'مليء بالخلي' من ذهب سماه 'كنز بريام' . وكان ثمة نقش وكانت تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة حقيرة وعثروا فيها على عدد كثير من الاصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس ثمة دليل يقوم على ان هذه المدينة الصغيرة دعيت باسم طروادة قديماً .

ميسينيا — ورد في الاساطير اليونانية ان الملك اغاممنون الذي كان قائد الحملة اليونانية على مدينة طروادة كانت عاصمته مدينة طروادة وان زوجته قتلته عند عودته من هذه الغزاة ودفن بالقرب من قصره . ولقد عرف اليونان مكان مدينة ميسينيا لانها كانت مأهولة الى القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال الى اليوم حول الجبل سور من الصخور الضخمة مصفوفة بعضها فوق بعض بدون ملاط يلحم بين اجزائها وتحتها خمسة امتار وكان اليونان يدعون هذا السور الحيطان السيكلونية اعتقاداً منهم بان الجبابرة سيكلون قد اقاموا بانيانها ورفعوا قواعدها . ويدخل الى هذا السور من باب علوه زهاء ثلاثة امتار مؤلف من ثلاثة صفوف هائلة وفوقها عمود بين اسدين منقوشين وهذا هو باب الاسود

ولما اكتشف شيلمان سنة ١٨٧٦ مدينة طروادة عزم ان يبحث عن قبر اغاممنون في ميسينا وكان الحفر قد جرى فيها غير بعيد عن سطح الارض فحفر شيلمان في التراب

حتى وصل الى الصخر فلما كان على عشرة امتار من الصخر عثر على ستة قبور فيها سبع عشرة جثة مع كمية كبيرة من الحلبي الذهبية واساور وعقود ودبابيس ونيجان وسبعائة سفيقة» ورقة ذهب» وزهاء مائتي سيف وخنجر مع نصال موهبة بالذهب والفضة . وكان على وجوه بعض الجثث برقع من السفيقة وكانت هذه القبور على ما ظهر مدافن امراء ميسينا .

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من انحاء اليونان اشياء كثيرة ومنها اواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها وقد عثر في بعض الاحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من ذلك بانه كان في يونان منذ الزمن العريق في القدم (بين القرن الثامن عشر والخامس عشر ق . م) ملوك اصحاب شوكة يستطيعون معها انشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم به ان يكتسبوا الكنوز ويستصنعوا الآثار النفيسة وهذا ما ادعي بالتمدن الميسيني .

• اشعار هوميروس - ان القصيدتين المنسوبتين للشاعر هوميروس وهما الالياذة التي ذكرت فيها حروب اليونان ورجولية اشيل امام طروادة والاوذيسية التي جاءت فيها حوادث عولس بعد سقوط طروادة . هاتان القصيدتان هما اللتان اذاعتا في اطراف العالم اجمع سقوط مدينة طروادة . وقد حفظتا قرونًا دون ان يكتبتا فكان المغنون الذين ألفوا الترحل يستظهرون اياتًا طويلة منها ويشدونها في الاعياد . وفي القرن السادس امر احد امراء اثينة واسمه بزيسترات ان يجمع القصيدتان وتكتبتا فاصبحتا بعد وما زالتا ابداً اجمل الآداب اليونانية المحممة المطربة . يقول اليونان ان مؤلفهما هوميروس كان احد ابناء يونان من مدينة ايونية وعاش نحو القرن التاسع او العاشر ويمثلونه على صفة شيخ ضريير فقير يهبط ارضاً ويصعد ارضاً وتنازعت سبع مدن شرف نسبته اليها تدعي كل منها انها مسقط رأسه وقد وقع التسليم بذلك تقليداً بدون مناقشة فيه . وفي اواخر القرن الثامن عشر قام احد علماء الالمان واسمه فولف وان بعض تناقض في هاتين القصيدتين اداه ان يجزم باسما ليسان من نظم شاعر واحد ولكنهما كتاب مؤلف من مقاطيع لشعراء مختلفين وقد حمل اهل العلم على هذه القضية حملات منكرة وهم بين مثبت لها تماماً ومنكر لها تماماً وظلوا مدة نصف قرن يتنازعون في وجود هوميروس او دمه وما زال فريق اهل العلم الى اليوم على ان هذه المسألة متعذر حلها . ومن المؤكد ان هاته القصائد قديمة العهد جداً . ربما كانت من القرن التاسع . الفت الالياذة في آسيا الصغرى وربما تألفت من مجموع قصيدتين خصت احدهما بحروب طروادة وثانيتهما بجمادات اشيل اما الاوذيسية فانها على ما يظهر من نظم شاعر واحد . ولكن ليس ثمة من دليل يقوم على انها من نظم مؤلف الالياذة بعينه .

اليونان على عهد هوميروس — يتعذر علينا أن نوغل في تاريخ اليونان إلى قرون بعيدة .
 وأشعار هوميروس أقدم مستند بشأنهم . ولما نظم هذا الشاعر منظومته نحو القرن التاسع
 قبل المسيح لم يكن لبلاد اليونان اذ ذاك اسم يطلق على سكان اليونانية قاطبة فسماهم هوميروس
 باسم قبائلهم الاصلية ويظهر انهم كما وصفهم قد نجحوا منذ غادروا آسيا فعرفوا حرث
 الارض وبناء المدن الحصينة وتألفوا شعوباً صغيرة . واطاعوا ملوكاً لهم وكان لهم مجلس
 شيوخ ودار ندوة وقد فاخر اليونان بحكومتهم واحنقروا الشعوب النازلة بقرهم لانهم
 كانوا دونهم فدعواهم البرابرة . ولقد صرح عولس بنحشونة السيكيوليس بقوله : (ليس لهم
 قواعد في العدل ولا اندية يتشاورون فيها وافرادهم يحكون نساءهم واولادهم بالذات ولا
 يعنى بعضهم ببعض) ومع هذا فقد كان اليونان الى ذاك العهد نصف برابرة فلم يعرفوا
 الكتابة ولا النقود ولا تطريق الحديد وقلما كانوا يجرأون على ركوب البحر وتجهه اخطاره
 ويزعمون ان الغول سكن جزيرة صقلية . .

غارات على ارضهم ورحلات اليها

تاريخ اليونانية — لم يسكن جميع شعوب يونان منذ الزمن الاطول البلاد التي كانوا
 فيها في القرن السابع اي في العصر الذي اخذ اهل العلم يعرفون عنهم شيئاً يوثق به . وقد حفظ
 كثير من هذه الشعوب ذكرى زولهم في تلك البلاد وامتازوا عن الشعوب العربية في القدم النازلة
 في تلك البلاد . جاءت ام كثيرة فاحتلت ارض يونان بقوائم سيوفها وتشنت شمل غيرهم امام
 المغيرين عليهم . ويقول اليونان ان بدء هذه الغارات الشعواء والرحلات كانت من القدم
 بحيث لم تصلنا اخبارها مسطورة ونقلت وشاع ذكرها تقليد أو يقولون انها كانت في القرن الثاني
 عشر (اي بعد اخذ طروادة بثمانين سنة) ولا عبرة بهذا التاريخ اذ لم يكن لليونان وسائل يحسبون
 بها في ذاك العهد المتطاوّل على ان هذا التاريخ اخذ قضية مسئلة بدون جدال ولا نزاع فيه .
 دعي اقدم سكان يونان بالبلاسيج (ولعل معناه القدماء) ولم يعرف عنهم شيء ولا
 فيما اذا كانوا من جنس يوناني او من جنس آخر . ومن هؤلاء السكان لا يعرف غير اليونان
 ولا يعلم ايضاً كيف ابدل اسم ييلاسيج بالهيلانيين اذ لم يرد في اشعار هوميروس ايضاً
 ذكر لهذا الاسم . ومن المقرر ان بضعة بلاد حفظت أثراً من آثار فاتحها وغزاتها . فقد
 جاء قوم برابرة من البلاد المشهورة ببلاد الالبانيين « الارناؤط اليوم » وهاجوا سهل بينيه
 الفسيح فدعي بعد باسم تساليا وتألفت من هؤلاء المهاجرين عصاية من الفرسان الاشرف
 وامسى سكان البلاد الاصليون عملة يزرعون ويحرثون ليس الا . وقد رحل الى وادي
 سيفيز الذي سمي باسم (ييوسيا) كل من لم تخضع نفسه لهذا الحكم

وبعد ربح من الدهر خرج الدور يون من جبال البندوا اجتازوا برزخ كورنت واغاروا على بلاد المورة واستوطنوا من اقاليمها ما امرت تربته وغنيت رباؤه وبقائه مثل لاكونيا ومسينيا وارغوليدا وسيكيونيا وكورنت وميكار . ويروى ان قدماء ملوكهم دعوم الميرا كليديين (اي نسل المبود هيراكليس) ليغلبوا رعاياهم الثاثرين ويعيدوهم الى عروشهم وكان ملوك اسبارطة يرون انهم من نسل قدماء السكان لا من الدوريين وقد استحل الشعب الذي احتل البلاد التي اغار عليها الدور يون الى زراع واهل فلاحه واستولت عصابة من الايتوليين الذي صحبوا الدوريين في تلك الحملة على مقاطعة ايلديا في الغرب . وانهال الاشيانيون ممن ابت نفوسهم الخضوع على شاطيء شبه جزيرة المورة الشمالي وطردها منها الايونيين واسسوا الاثنتي عشرة مدينة الآشيانية فلجأ الايونيون المطرودون الى مقاطعة اتيكيا وامتزجوا بسكانها الاقدمين ومن ذاك العهد عرف الاثينيون اي سكان اتيكيا شعباً ايونياً . ثم انفصلت عصابات من عدة شعوب وراحوا يؤسسون مستعمرات في السيف الآخر من البحر . والايوليون اقدم هذه العصابات النازلة في آسيا ثم سكنوا بعد ذلك الشاطيء بعينه . واحتل الدور يون جزيرة اكريطش (كريت) وبعد زمن استعمر اليونان صقلية وايطاليا الجنوبية .

الدور يون — يراد بالدوريين نسل سكان الجبال النازلين من الشمال ممن طردوا او اخضعوا سكان السهول وشاطيء بلاد اليونان الجنوبية المعروف ببلاد المورة ويذكر هؤلاء المغربون ان ملوكاً من اسبارطة من نسل البطل هيراكليس قد طردهم رعاياهم فجاءوا يبحثون عنهم في جبالهم فتبع الدور يون اخلاف هذا البطل حجاجاً به ونصبوهم على عروشهم ثم اغاروا على السكان واستصفوا ارضهم وديارهم . وكان هذا العنصر جيلاً من الناس اشتهر بجأله وقوته وصحة اجسامه وتعود البرد وشظف العيش وحياة الفقر والفاقة فترى رجالهم ونساءهم يلبسون ثياباً قصيرة لا تصل الى ركبهم . والدور يون امة حربية دعاها الاضطراب الى ان تكون ابدأ على قدم الدفاع تحمل عدتها وعتادها وهم اقمى اهل يونان لبعد اقليمهم عن البحر ولذلك احتفظوا باخلاق الاجيال المتوحشة وهم اعرق في اليونانية من غيرهم من سكان تلك الامصار لانهم كانوا على وحدتهم لا يستطيعون الامتزاج بالغرباء ولا تقليدكم في منازع اخلاقهم .

الايونيون — يدعى شعوب اتيكيا والجزائر وشاطيء آسيا بالامة الايونية . ولا يعلم من اين جاءتهم هذه التسمية وهم على عكس الدور بين جنس من الهجرة او التجار . ومن اكثر شعوب اليونانية تهدياً لانهم اسفادوا من الاحتكاك بامم مشاركة اعرق منهم في الحضارة

واقنيسوا من النظر اليهم وهم ضعاف في صفتهم اليونانية لامتزاجهم بالآسيويين ولأنهم
نحوا نحو هؤلاء في عاداتهم الا قليلاً يميلون الى السلم ويولعون بالصناعات ويعيشون عيش
الترف يصفون الكلام ويرققونه ويلبسون ثياباً ضافية الاذيال على مثال المشاركة

الهيلانيون - هذان العنصران او الجنسان المتباينان المعروفان بالدوريين والا يونيين
هما اشهر عناصر اليونان واقدرها . فاقليم اسبارطة للدوريين واقليم اثينية للايونيين وليس
السواد الاعظم من اليونان دوريين ولا ايونيين ويعرفون بالايوليون وهو اسم مجهول يطلق
على شعوب مختلفة في تلك الاصقاع من ايوليين واكرنانيين وفوسيديين ويوسيين من
اهل البلاد اليونانية الوسطى والاشانيين من اهل المورة . وكل من تقدم ذكرهم يسمون
باسم الهيلانيين الذين عرفوا به منذ ذاك العهد وهم لا يعرفون وجه تسميتهم هذه كما نجعل
نحن ذلك على انهم يقولون ان دوروس وعولس كانا اولاد هيلانة وايون حفيدها

(١) مستعمرات اليونان

الاستعمار اليوناني لم يقتصر الهيلانيون على سكنى بلاد اليونان فقط بل قام منهم
طواري، من اهل المدن انشؤا بلداناً في جميع الانحاء المجاورة وكانت عدة من هذه الممالك
الصغيرة اليونانية في جميع جزائر الارخبيل وعلى جميع شاطئ آسيا الصغرى واقریطش
وقبرص وفي كل ما احاط بالبحر الاسود الى بلاد القافقاس والقرية على طول البلاد العثمانية
في اوربا (المعروفة اذ ذاك بتراسيا) وعلى شاطئ افريقية وفي صقلية وإيطاليا الجنوبية الى
شواطئ فرنسا واسبانيا

اخلاق هذه المستعمرات - يبدأ تاريخ المستعمرات اليونانية من قرون كثيرة اي من
القرن الثاني عشر الى القرن الخامس وهذه المستعمرات اشنت من كل المدن ونجت عن كل
جنس دورياً كان او ايونياً او ايولياً . ولطالما قامت المستعمرات في امكان قفرة تارة وفي
بلاد مأهولة اخرى أسست حيناً بالفتح وآونة بالاتحاد مع السكان وانشأها بحارة او تجار
او منفىيون او متشردون . وتمتاز هذه المستعمرات على اختلاف زمانها ومكانها وجنسها واصلها
بخلق عام وانها نشأت دفعة واحدة بمقتضى قواعد ثابتة . وما كان الطواري او المستعمرون
من اليونان يملكون في بلد واحد بعد واحد عصابات صغيرة ولم ينزلوا بقعة عرضاً فيقيمون لهم
مساكن تصبغ بالتدرج مدينة على نحو ما يفعل الطواري من الاوريين في اميركا اليوم
بل كان الطواري منهم يسافرون قضم وقضيضم دفعة واحدة ورئيسهم واحد فنؤسس

(١) جاء هذا الفصل متأخراً عن هذا بضعة فصول في الطبعة الاخيرة

البلدة الجديدة في يوم واحد . وكان تاسيس احدى المدائن 'بعد احتفالاً دينياً في المؤسس لها سوراً مقدساً ويحمل بيتاً مباركاً يوقد فيه ناراً مقدسة

تقاليد المستعمرات -- ينفج مما نقل من القصص القديمة في تأسيس بعض المستعمرات وجه الاختلاف بينها وبين المستعمرات الحديثة . واليك كيفية استعمار مرسيليا والبداءة به فقد جاء الى بلاد الغال (فرنسا اليوم) او كسينس احد اهالي مد فومسي في آسيا الصغرى على سفينة تجارية فدناه احد زعماء الغالين الى عرس ابنته ، عادة هذا الشعب ان تدخل العروس بعد الطعام حاملة كأساً تقدمها لرجل تختاره من الج فوفقت امام اليوناني ومدت الكأس نحوه . فظير للقوم ان هذا العمل كان بالهام من ال اذ لم يكن متوقعا . فما كان من الزعيم الغالي الا ان زوج او كسينس من ابنته وسمح له يؤسس ورفاقه مدينة على خليج مرسيليا ثم لما رأى اهل فومسي ان الجيش الفارسي يحا مدبتهم قاموا يعدون لهم سفناً نقل عيالهم واثقالهم واصنامهم وحلي معابدهم وغادروا مـ

ماخرين في سفنهم واقسموا عند منصرفهم ان لا يعودوا اليها الا اذا غامت على وجه الجديدة المحاة التي القوها في البحر . وقد نكث كثير منهم هذا العهد وعادوا الى مس رؤوسهم اما الباقون فظلوا يشقون المـباب بعد العباب حتى وصلوا الى مرسيليا بعد ان تجشـ

اهوالاً كثيرة . واسس الايونيون مدينة ميلت نركين نساءهم وراءهم واست على بلد يقطنها ناس من آسيا فذبجوا الرجال وتزوجوا بنسائهم وبناتهم قسراً . ويـ

ان هؤلاء النساء اقسمن ان لا يتناولن الطعام مع ازواجهن وان لا ينادينهم بيا ازواج عادة بقيت قرونا يعمل بها عند نساء ميلت . اما مستعمرة برقة في افريقية فقد أسـ

بامر صريح من المعبود ابولون ووحى منه . فلم يكن سكان مدينة تيرا الذين أمروا بذ يحاذرون من نزول بلد مجهول ولم يملوا بهذا الامر الا بعد سبع سنين وكانت جزير

عرضة للجفاف فاعنقدوا ان ابولون ساقهم الى تلك الجزيرة عقاباً منه لهم . وحاول الطوار الذين انفذوهم ان يرجعوا فداهمهم مواطنوهم واكرهوهم على السفر . وبعد ان قضوا عا في احدى الجزر وقد خانتهم فيها اسباب الفجج انتهى بهم الحال ان يستوطنوا ابد الدهر مدينة فكان منها مدينة عامرة راقية .

خطورة المستعمرات -- من شأن هذه الطواريء ان تؤسس حكومة جديدة في مكان تنزله ولا تخضع لأـم القرى التي انفصلت عنها بـة . وهكذا بلغت الحال بان البحر المتوسط محاطاً بـدن يونانية كل منها مستقلة تمام الاستقلال . فاصبح كثير من المدن آية في غناه وقوته لم تضاهه بهما المدن التي خرجت منها وكان لها اصقاع اـ

رخصب وسكان اوفر واكثر . ويقال انه كان في مدينة سيبارس في ايطاليا ثلثائة الف رجل يحمل السلاح وان كروتون جيشاً مؤلفاً من مئة وعشرين الف مقاتل وذات سيراكوزة في صقلية وميلت في آسيا بقوتها مملكتي اسبارطة وآثينة وكان يدعى جنوب ايطاليا يونان الكبرى . وما كانت المملكة الاصلية غير بلاد صغرى بالنسبة لتلك المملكة المأهولة كلها بالطواريء من اليونان . وحدث ان كان الهيلانيون اوفر عدداً في البلاد المجاورة منهم في بلاد اليونان نفسها . وترى بين رجال تلك المستعمرات طائفة صالحة من المشاهير مثل هوميروس والسيوس وسفوس وطاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ودموقريطس وانفيدكس وارسطوطاليس وارخميدس وتيوكريتس وغيرهم .

المدن - ظل اليونان منقسمين الى طوائف صغيرة في كل البلاد التي نزلوها كما كانوا على عهد هوميروس . وغير ذلك ان ارض يونان وايطاليا الجنوبية متقطعة بالبحر والجبال ولذلك انقسمت بالطبع الى عدد كثير من المقاطعات الصغيرة كل منها منفردة عن جارتها برأس من البحر او يجدار من الصخر بحيث يسهل الدفاع عنها وتععب المواصلات فكانت تتألف من كل مقاطعة حكومة على حدتها تدعى مدينة وقد بلغت اكثر من مئة مدينة . واذا احصيت المستعمرات بلغت زهاء الالف (١) وليست مملكة اليونانية الا صورة مصغرة بالنسبة اليها فان ايتاليا كلها لاتساوي نصف اصغر مقاطعات فرنسا لهذا العهد اما اراضي كورنت او ميكار فقد صارت ريفاً ومزارع . ومن العادة ان يكون مايعرّفون بمملكة عبارة عن مدينة وساحل ومرجاً او بضع قرى مبعثرة في الفلاة حول قلعة قرى من المملكة الواحدة قلعة المملكة الثانية وجبالها او مرافئ المملكة المجاورة وكثير من هذه الممالك لا يسكنه اكثر من بضعة الوف من الناس واعظمها لا يكاد يكون فيه مائتان او ثلثائة الف نسمة . وبعد فلم يؤلف الهيلانيون او اليونانيون أمة برأسها ولا انفكوا من النقاتل والتقاطع على انهم تكلموا لغة واحدة على حد سواء وعبدوا آلهة واحدة وعاشوا عيشة واحدة منذ شطوط اسبانيا الى طرف البحر الاسود . فكانوا بهذه العلامات يتعارفون كما يتعارف ابناء نبتة واحدة ويتمتازون عن سائر الامم التي يدعونها البرابرة فينظرون اليها نظراً الاستخفاف والامتهان .

الديانة اليونانية

تعدد الارباب - اعتنق اليونان اعتقاد سائر قدامى الآريين بارباب كثيرة ولم يكن لهم شعور بالانهاية ولا بالالزية ولم يؤمنوا برب واحد تكون السماء سرادق . والارض سلمه

(١) في الطبعة الاخيرة حذف المؤلف هذه الفقرة الطويلة كلها الى آخر الفصل

ومرثاه . واعتقد اليونان ان كل قوة في الطبيعة من هوائها وشمسها وبحرها هي قوة الهية ونسبوا كلاً من هذه القوى الى رب خاص ان لم يدركوا ان علة واحدة تنتج كل هذه الاكوان ولذا عبدوا عدداً عديداً من هذه الالهة فكانوا وثنيين على هذا النحو .

نسبة الشهوات البشرية ودعوى تجسد الرب --- كل رب هو قوة من الطبيعة وله اسم خاص به واشده تصور اليونانيين وسعة خيالهم مثلت لهم اذهانهم تحت هذا الاسم كائنات حياً في ابهى المظاهر من الصور البشرية وكانوا يمتثلون المعبود او المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة وامرأة وسيمة الحيا وعند ما كان عولس او تيلماك يصادفان رجلاً عظيماً وسيماً يبدآن بسؤاله عما اذا كان رباً من الارباب . وقد صور على ترس البطل آشيل صورة جيش . قال هوميروس في وصفه له : ان اريس واتينيه كانا يقودان الجيش وكلاهما مستبح بالذهب وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالارباب اذ البشراقزام قصار القامات وكان الارباب اليونانيون بشراً يلبسون ثياباً ولم يلبسوا اجساد كاجسادنا وهم ان لم يتوتوا يجرحون . وذكر الشاعر هوميروس كيف ان احد المحاربين جرح الرب اريس فراح يصرخ من الالم . وهذا الضرب من اختيار الارباب على مثال البشر هو ما يدعى "انثروبومورفيسم" اي تجسيد الارباب .

علم الميثولوجيا . - للارباب اقرباء واولاد ورهط وامرات لانهم ناس كالا دمييين فامهم ربة واخوتهم ارباب واولادهم ارباب غيرهم او ناس هم نصف ارباب . وتدعى انساب هذه الارباب تيوغونيا . وللارباب تاريخ وحوادث ولم قصص في مواليدهم واخبار شبيبتهم واعمالهم . فالرب ابولون مثلاً ولد في جزيرة ديلوس وكانت لجأت اليها امه لاتون وقتل غيلاناً كان قد خرب تلك البلاد في سفح جبل البارناس . وهكذا كان لكل مقاطعة يونانية اخبار تعزوها لاربابها سموها الخرافات ومن مجموعها نشأ لفـ الميثولوجيا اي تاريخ الارباب .

الارباب المحليون --- بقي الارباب اليونانيون وهم على صفتهم البشرية على ما كانت عليه اولاً كواثن طبيعية فكان القوم يخيلونها كما يخيلون البشر وقوى الطبيعة فقد كانت الناياد فتاة جميلة ونبعاً منيحاً في آن واحد . وتخيل هوميروس الشاعر ان نهر جزيرة الزانت هو رب وقال فيه (لقد تدفنى نهر الزانت على البطل آشيل وهو يزد غيظاً ويرغي حقناً ويخر طافحاً بالزبد والجثث) وظلت الامة تقول ان الرب زيوس ينزل المطر ويرسل الرعد . وكان اليوناني يعتقد ان الرب عبارة عن مطر وسيل وسماء او شمس لا السماء والشمس والارض على الجملة . وكان ربه مسامعاً للسماء التي تظله والارض التي ثقله والنهر الذي يعله . فن ثم كان لكل مدينة ارباب ومعبودات كثيرة فمن رب الشمس الى ارباب الارض الى رب

البحر وكانت تلك الارباب منفصلة عن شمس البلد المجاورة وارضاها وبحرها بمعنى انه كان لاهل كل مقاطعة ربهامعبوداتها الخاصة بها . فليس رب اسبارطة زيوس رباً لآتينه زيوس بعينه ورباً كان يذكر في قسم واحد ربان تحت اسم آتينيه اوربان تحت اسم ابولون . ذكر احد من طائف بلاد اليونان من السياح انه شاهد الوقا من الارباب كانت تدعى ارباب المدينة ولم يكن هناك سيل ماء ولا غابة غيباء ولا اكمة شماء الا وهي مؤلهة (١) ولها صفة لا يشاركها فيها غيرها ورباً كان هذا المعبود صغيراً لا يعبد الا ناس من اهل الجوار وما مزاره غير مغارة في الصخر .

الارباب الكبيرة --- وهم اليونان ان فوق طوائف الارباب الكثيرة الصغيرة المنبثة في كل مقاطعة بضعة ارباب كبيرة كالسما والشمس والارض والبحر المدعوة بهذا الاسم ولها في كل مكان معبد خاص او مزار يتقرب فيه اليها وكانت تمثل كل من هذه الارباب اهم القوى الطبيعية وما اكثر عدد هذه الارباب التي اشتد اهل يونان كافة في التقرب اليها فانك لو احصيتها لاتكاد تصل في عددا الى العشرين . ومن سوء عادتنا معاشر الافرنج ان ندعو هذه الارباب باسماء ارباب لآتينية واليك حقيقة اسمائهم :

زيوس (المشتري) هيرا (جونون) آتينيه (منرفا) ابولون اريئس (ديان) .. هرميس (عطارد) - هيفزتوس (فولكين) هيسثيا (فيسا) اريس (المريخ) افروديت (الزهرة) بوزيدون (نبتون) انفيتيريت بروته - كرونوس (زحل) - رهبيا (سيمبل) ديميتير (سيريس) بر سيفونه (بروزرين) هاديس (بلوتون) ديونيزوس (باخوس) . وهذه الزمرة من الارباب هي التي كانت تعبد في كل المعابد على الجملة ويتوسل اليها في الصلوات

خصائص الارباب -- لكل من هذه الارباب هيئته وهندامه وادواته المدعوة خصائص هكذا تـورها المؤمنون من ابناء يونان وهكذا مثلاً النقاشون منهم . ولكل خلقه المعروف به بين عابديه ولكل منها عمله الخاص به في العالم ويقوم بوظائف معينة وذلك بتعونة ارباب ثانوية تطيعه في العادة ويتعريف فيها بامرهم . فالرب آتينه مثلاً هو على صورة عذراء ذات عينين براقنتين مثلث قائمة وهي تحمل رمحاً وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع وهي عندهم ربة الهواء النقي والحكمة والاختراع وعلى جانب من الهيبة والشراسة .

ومثل هيفزيتوس رب النار حاملاً بيده مطرقة على صورة حداد اعرج قبيح الهيئة وزعموا انه ينزل الصاعقة . وان الزهرة اريئس كانت عذراء متوحشة تحمل قوساً وكنانة

وهي تطوف الغابات لتصيد مع زمرة من الجنيات وهي ربة الغابات والصيد والموت . اما هرميس الذى قتلوه لاسباً نعالاً مجنحة فهو رب المطر المخصبة وله اعمال اخرى وهو رب الاسواق والاماكن ورب التجارة ورب السرقة ورب الفصاحة يسري بارواح الموتى ويمشي في السفارات بين الارباب ويقوم على تربية الحيوانات . ولرب اليوناني ابداً عدة وظائف في الغالب هي في نظرنا متخالفة غير ان اليونان تخيلوا ان بينها تشابهاً ويرتأون لها صلة وعائداً الى اولمب وزيوس — كل من هذه الارباب اشبه بملك في مقره ومع هذا فقد لاحظ اليونان ان جميع قوى الطبيعة لا تسير بالتصادف وانها تعمل يداً واحدة فكانوا يطلقون اللفظ الواحد للتعبير عن النظام والعالم ففرضوا ان الارباب اتحدت على تسيير نظام العالم وانه كان لهم شرائع وحكومة كما للبشر . وكنت ترى في شمالي اليونان جبلاً ذا قمم مكسوة بالثلج لم يصعد اليه بشر واسمه الاولمب وعلى هذه القمة المستورة عن اعين الناس بما يترام عليها من الضباب توهم اليونان ان الارباب يعقدون جلساتهم فيجتمعون مستنيرين بنور سماوي يفاوضون في شؤون العالم وعظيمهم زيوس (المشتري) يرأس تلك الجلسات لانه رب السماء والنور والرب الذي يؤلف السحاب ويرسل الصواعق وصوره على مثال شيخ مهاب ذي لحية بيضاء جالس على عرش من ذهب وهو الذى 'خص بالزعامة دون سائر الارباب ولذلك تراها تتخضع له فاذا بدرت من احدها بادرة المقاومة في امر يهددها زيوس واليك ما ذكره هوميروس على لسانه « اعقدوا في السماء سلسلة من ذهب وتعلقوا بها انتم معاشر الارباب ذكورا كنتم او اناثا ولو بذلت الجهد كلكم لا تجرون زيوس الى الارض وهو الملك الآمر وعلى العكس اذا اردت ان اجذب السلسلة الى قانا اجاذب الى الارض والجحرم اعلقه بقمة الاولمب ويبقى العالم كله معلقاً مصلوباً ما دمت اعلى منزلة من الارباب والبشر »

آداب الميثولوجيا اليونانية — وهم اليونان ان معظم اربابهم من القسوة والسفك والخداع والسفاهة على جانب فاخترعوا لهم اخباراً سفهية واعمالاً ذميمة عن طور اللياقة . فكان هرميس يزعمهم لصاً واشتهرت افروديت بغفها وخفها واريس تسوته وكانوا كلهم من المحب بحيث لا ينفكون عن اضطهاد من تساهل في تقديم الضحايا لهم . ولما اعجبت نيوبي ملكة ثيبة بكثرة أسرته لم يصعب عليها ان رأت الرب ابولون يصفي اولادها بالسهم ويمزقهم كل ممزق . وكان من حال تلك الارباب في الحسد بحيث لا يئمالك من رؤية انسان بلغ غايات السعادة . فاليونان رأوا السعادة من اعظم الاخطار لانها تجلب غضب الارباب حتماً ولذلك ابتدعوا ربة للغضب والانتقام سمونا تيمزيس ويذكرون لها قصصاً كالاتية مثلاً : ذلك ان بوليكرانس الظالم من اهل جزيرة سيسام خاف يوماً حسد

الارباب اذ غدا ذا طول وحول وكان يملك خاتم ذهب له موقع كبير من نفسه فالتقاء سيفه اليم لثلاث تكون سعادته مشوبة بالشقاء ثم ان صياداً احضر لبوليكراتس ذات يوم سمكة عظيمة وجد خاتمها في جوفها فكان ذلك بنظره شؤماً دالاً على وقوع المصيبة الاكيدة. فحوصر بعد في مدينته واخذ وصلب وعاقبه ارباب يونان على سعادة نالها وحظ من النعم اصابه .

عرف بهذا ان الميثولوجيا اليونانية كانت عارية عن الاخلاق اذ كان الارباب قدوة سيئة للناس قال ذلك فلاسفة اليونان وضيّقوا على الشعراء الذين نشروا هذه الحكايات وذكر احد تلاميذ فيثاغورس ان معلمه اطلع على الجحيم فرأى فيه روح هوميروس الشاعر مصلوبة في شجرة وروح از يودس الشاعر مدلاة في دعامة عقوبة لهما على اهانتهم الارباب وقال كسينوفان ان هوميروس واز يودس قد نسبا للارباب اعمالاً من شأنها ان تكون عاراً بين البشر وشناراً عليهم وهناك إله واحد لا يشبه البشر باجسادها ولا يعقوها وكان يزيد على ذلك قوله : لو كان للبقر والاسود ايدى واستطاعت ان تصور كالناس لصنعوا للارباب اجساداً تشبه اجسادهم ولجعلت الخيل للارباب اجساداً كالخيل والبقر . والناس يذهبون الى ان الارباب احساساً وصوتاً وجسداً . هذا قول كسينوفان وهو من الحق والعدل بئس كان اذ قد جعل اليونان الاول اربابهم على صورهم مثل ما كانوا عليه في ذاك العهد سفاكين غدارين حسودين مجبيين وكذلك كان اربابهم . ثم صاروا على نسبة التحسين في اخلاقهم بنشأ اخلاقهم متبرمين من هذه المبادئ، كلها عازفين عنها ولكن تاريخ الارباب واخلاقهم كانت مقررة بحكميات قديمة اخذها اهل الاجيال الحديثة ولم يجرؤوا على تغيير ارباب اجدادهم الفظة السفينة بغيرها

ابطالهم

البطل — البطل في بلاد اليونان رجل معروف يغدو بعد موته روحاً ذات سلطان ولا نتم له الربوبية بل ينال منها نصفها فنم لا يسكن الابطال في الاولب في سماء الارباب ولا يدبرون شؤون العالم اجمع ولم مع هذا ايضاً سلطة فوق كل سلطة بشرية يغثون بها احبابهم ويهلكون اعداءهم . ولذا عبدتهم اليونان عبادتهم للارباب واستغاثوا بهم وتضرعوا اليهم . وما من مدينة او قبيلة او أسرة الا ولها بطل خاص بها وهو عبارة عن اشباح مخيلة تحميها فتعبد لها وتنقدم اليها بانواع القربات .

ضروب الابطال — ومن هؤلاء الابطال فئة اشتهرت في الاساطير وعدت من الاعيان مثل اشيل واوديس واغاممنون ولا شك في ان بعضهم لا حقيقة لهم قط مثل هيراكليس واديب . وليس بعضهم إلا أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس وعولس

غير ان عبدتهم ينظرون اليهم نظرم الى الشخص قداما، وقد عاش معظم هذه الارباب وبعضهم من الاعيان قد ذكرهم التاريخ وكانت لهم اعمالهم مثل لبونيداس وليزاندر وكانا من القواد وديمقراط وارسطو وكانا فيلسوفين وليكورك وصولون وكانا مشرعين . وعبد اهل مدينة كروتون احد مواطنيهم فيلبس لانه كان اجمل اهل زمانه في بلاد اليونان . وكان الزعيم الذي يقود الطواريء ويؤسس مدينة يعد بين السكان البطل المُنس فيقيمون له معبدا وينقربون اليه كل عام بانواع النذور والقربات . وهكذا كان ملتياديس الاثيني يعبد في مدينة من اعمال تراسيا وبرازيداس الاسبارطي الذي قتل في دفاعه عن امفيبوليس كما يعبد في هذه المدينة اذ اعتبره السكان مؤسسا لبلدهم .

حضور الابطال -- يظل البطل ساكنا في البلد التي دفن فيها جسده سواء كان في قبره او في الجوار . وقد وصف هيروdotus هذا المعتقد فكانت مدينة سيبيون تعبد البطل ادراتس فقامت في الساحة العامة مصلى اكراما له . ولقد ارتأى كليستين جبار سيبيون ان يخلص من هذا البطل فراح يسأل هاتف دلفيس عما اذا كان يفلح في طرد ادراتس . فاجابه الهاتف بقوله : ان ادراتس كان ملك الـيسونيين وانه لص وقاطع طريق فلما لم يستطع كليستين ان يطرد ذاك البطل عمد الى الحيلة فبعث الى ثيبة يبحث عن عظام بطل آخر اسمه ميلانييس وجعلها في مقبرة المدينة باحتفال حافل . قال هيروdotus انه عمل كذلك لان ميلانييس كان من أعداء ادراتس قتل له صهره واخاه . ثم جعل تلك الاعياد والنذور تقدم الى ميلانييس بعد ان كانت تقدم الى ادراتس زمنا وراح يقتنع وسائر اليونانيين ان البطل المتناظر يركن الى الفرار .

مداخلة الابطال -- للابطال قوة الالهية في وسعهم كما في وسع الارباب ان يفعلوا الخير والشر كما يشاءون . ولقد اخطأ الشاعر ستيزيشور في كلامه على هيلانة المشهورة (تلك التي جى بها الى طروادة على نحو ما ورد في الاساطير) فكف بدمه للحال حتى اذا رجع عن كلامه عاد بصيرا . ويزعمون ان هيلانة صارت نصف ربة بعد موتها فارسلت للشاعر بالداء باديء بدء ثم اتبعته بالدواء . ويدعون ان الابطال الحامية للبلد تدفع عنها الادياء والحجاجة وتذب عن حياضها من غارة الاعداء . وقد زعم الجنـد الاثيني انهم رأوا بين صفوفهم في حرب ماراثون تزيه بطل آثينة ومؤسسها وقد تدجج بسلاح لامع في حرب سلامينة وظهر البطالان اجاكس وتيلامون اللذان كانا فيامفى ملكي جزيرة سلامينة في اعلى ذروة منها باسطين ذراعيهما نحو الاسطول اليوناني . قال تيوكليس (وما قبرنا الفرس اذ قهرناهم ولكن الارباب والابطال قهروهم) وفي احدى روايات سوفـقـلس

(اديب انى تولون) بينا كان اديب مشرقاً على الموت زاره ملك آثينة وملك ثيبة و اراده كلاهما على الرضا بترك جثته تدفن في ارضها ليكون بطلاً حامياً لها فاجاب طلبها في ان يدفن في بلاد الآثينيين وقال للملكيه : انى لا اكون بعد موتى خالياً من النفع في هذا القطر بل اكون ركناً ركيناً لا تقاويه الوف الالوف من المحاربين . وكان يرى ان بطلاً واحداً يساوي جيشاً برمته ويرهب بأس هذا الشيخ ولا رهبة الاحياء اجمعين .

العبادة

• بدء عبادة الارباب -- كان الارباب والابطال على ما لها من الحول والطول ينشرون في الناس جماع الخيرات والسيئات كما يشاءون فكان من الخطر ان يكونوا على المرء إلهاً ومن العقل ان يكونوا اياه يداً واحدة . ولقد ذهب القوم الى انهم كانوا اشبه بالبشر يستخطون اذا تركوا وشأنهم و يرضون اذا غني بهم . وعلى هذا الفكر نشأت العبادة فكانت عبارة عن اتيان صالح الاعمال مع الارباب لنيل رضاهم . وقد صرح افلاطون بالرأى العام كما يلي قال : (ان الاضطلاع بالقول والقيام بصالح الاعمال مع الارباب سواء كان في الصلوات او في النذور هو من التقوى التي بها نجاح الخاصة والبلاد وعكسها هو الشقاء الذي به ثل عروش الممالك ونندك معالم العمران) يقول كسينوفان في آخر كتابه الفروسية ان الارباب لا يرضون عمن يفرعون اليهم في حاجاتهم فقط بل يرضون عمن يكرمهم في مجبوحة النجاح . فالديانة كانت باديء بدء عهداً وميثاقاً فكان اليوناني يسعى في استرضاء الارباب وينال من لدنهم مقابلة ذلك منافع ومغانم قال احد كهنة ابولون لمعبوده « انى قد احترقت من اجلك ثيراناً سميحة منذ زمس طويل فاقبل الآن تضرعاتي وارم بسهام غضبك اعدائي »

الاعباد العظيمة — زعم اليونان ان لاربابهم احساساً وعواطف كعواطف البشر ولذلك عُنفوا بالقيام بكل ما يسترضى به الانسان فكانوا يقدمون لهم لبناً وخمراً وحلواء وفاكهة ولحمًا وينشئون لهم قصوراً ويحفلون اكراماً لهم باعياد اذ كانت تلك المعبودات ارباباً سميدة تحب الفرح والمناظر الجميلة . وما كان العيد كما هو الحال عندنا اليوم عبارة عن افراح بل كان احتفالاً دينياً يضرب في خلاله عن الاعمال وتأخذ الامة في ابداء مظاهر المسرة على رؤوس الاشهاد امام المعبود . فمن ثم كان اليوناني 'يسر' بهذه الاعياد ويحفل بها اجلالاً لاربابه ومعبوداته لا قياماً باهوائه الخاصة وشهواته . جاء في تشيد قديم اكراماً للمعبود ابولون ان الايونيين يدخلون السرور عليك بما يقومون به من مطاعنتهم المعبودة وغنائم ورقصهم .

الالعب الاحتفالية -- نشأت الالعب الاحتفالية من هذه المسليات التي كانت تقام اعظماً للارباب فكان لكل مدينة ضرب من ضروبها تكرم بهامبوداتها وما كانت في العادة تقبل لمشاركتها بها غير ابناء وطنها ومع هذا فقد كانوا يقومون بالعب يشترك بها جماع ابناء يونان ويحضرونها وذلك في اربعة اماكن من البلاد اليونانية . وتدعى الالعب الاربعة العظيمة واهص تلك الالعب العلب اولمبيا . يخفل بها كل اربع سنين اكراماً للمعبود زيوس وتدوم خمسة ايام او ستة فيأتي ددماً اليونان من اطراف البلاد تفص بهم الملاعب والمشهد يأخذون في تقديم الشحايا والتقرير بالصلوات الى المعبود زيوس (الشمس ؟) وسائر الارباب ثم يتبارى القوم في الاعمال الآتية : عدو على الاقدام حول الملعب . فقال يعرف عندهم بالبناتال لانه كان عبارة عن خمسة العلب فيقفز المتبارون ويركضون من طرف الملاعب الى طرفه الآخر ويقذفون الى بعد بطارة من معدن ويرمون الحواب وينقاتلون بالابدي والابدان . ثم ملاكمة بجمع الاكف ينقاتلون فيها واذرعهم مستورة بسيور من جلد . ومسابقة عجالات كانت تجري في الميدان والعجلات خفيفة يجرها اربعة جيادو يتصدر القضاة في الالعب بالبستم . القرمزية وقد تتوجوا باكليل الغارفينادي المتنادي بعد القتال باسم الظافرواسم بلده على رؤوس الاستهد ويكافأ بتاج من الزيتون جزاء ما وفق له ويستقبله مواطنوه استقبال الظافر الفاتح وربها خرقوا خرقاً في حائط ليمروا به منه فيقبل نقله مركبة فجرها اربعة من الجياد لابسا القرمزي والشعب كله يخفقه . كان بعد هذا النصر الذي نعهه اليوم من اعمال المصارعين في المجال العامة من احسن الاعمال واولاها على ذلك العهد يخفل بها اعظم الشعراء ولم يكن هم ينندار شهر شعراء الاغاني القدماء غير نظم المقاطيع في سباق المركبات . ويروى ان احدهم واسمه دياكوراس رأى في يوم واحد ولدين له وقد توجا فحملاه على اعين القوم حمل الظافرين فلما شاهد الشعب ان امثال تلك السعادة عظيمة جداً بالاضافة الى الميت ناداه : مت يادياكوراس اذ ليس في وسعك ان تكون بعد معبوداً . فضاقت ذرع دياكوراس من الاضطراب ومات بين ابدي ولديه وفي نظره ونظر ابناء يونان ان رؤيته ولديه واكفها قوية شتنة وسوقها سريعة كان ذلك منتهى السعادة الارضية . وعلى هذا يحق لليونان ان يعجبوا بالقوة الطبيعية فقد كان اقوى المصارعين من احسن الجند في الحروب التي ينقاتلون فيها جسداً لجسد .

القال -- كان اليونان يرجون من آلهتهم اعمالاً كبيرة لقاء تلك الواجبات والاعباد والاحتفالات فكانت المعهودات تحمي عبديتها وتسبغ عليهم برود العافية والغنى والنصروثقيهم المصائب والنواب التي يتوقعون نزولها ترسل علامة من لديها يفسرها الناس . وهذا ما كان

يدعى بالفال . قال هيرودس كان اذا اقتضى لاحدى المدن ان تفحن ببعض اخطوب
بنقدّم لها على ذلك علامة في العادة . ولقد نفاذ اهل شيو (صافز ؟) نفاذاً دلم على ما
ينالهم من الهزيمة فلم يرجع من مئة فتي بعثوا بهم الى دلفيس يتروغون وينشدون سوى فتيين
وهلك سائرهم بالوباء . وعلى ذاك العهد اقتضى سقف مدرسة المدينة على اطفال كانوا
يتعلمون القراءة فلم ينج منهم سوى طفل واحد وكان عددهم مئة وعشرين . هذه هي الامارات
التي قدم الارباب ارسالها على ابنا يونان ننذرهم وتبذرهم . ولقد كان اليونانيون يرون
الاحلام والطيور التي ترفرف في السماء واحتساء الحيوانات التي يقرّبون بها لاربابهم بل
وكل ما يقع نظرهم عليه من الزلازل والكسوف الى عطسة يعطسها المرء - يرون كل هذه
الامور الطبيعية امارات الهية فيا سعادتهم وشقاؤهم في حملة عقلية بينا كان نيسياس
القائد الاثيني يركب جيشه المنهزم في السفن اوقفه خسوف القمر فظن ان الارباب بعثت
بهذه العجيب تندر الاثينيين ان لا يتقوا ما بداوا به من الاعمال الحرية فاضطرّ نيسياس
الى الانتظار سبعة وعشرين يوما وهو يقدم القرابين تسكيناً للغضب الارباب . فمدّ
الاعداء في هذه الفترة ميناء المدينة وحطموا اسطولها وبددوا شمل جيشها . ولم ير الاثينيون
لما بلغهم هذا النبأ سوى امر واحد نجوا من اجله نيسياس وذلك انه كان عليه ان يعرف
ان اختفاء القمر بالنظر الى جيش منهزم علامة حسنة . وفي غضون العودة المعروفة بعودة
العشرة آلاف خطب القائد كسينوفون في جنده فلما انتهى الى هذه العبارة : « لنا الامل
الوطيد ان نرجع والمجد اليقنا بمعونة الارباب » عطس احد الاجناد على الاثر فاخذ الجيش
يصلي ويضرع الى الرب على ان بعث لهم هذا الفال فتهف كسينوفون : الا فسننذر بنقدّم
ضحايانا لزيوس اذ بعث الينا ما تنفأل به بينا نحن نفاوض في سلامتنا .

هاتف الغيب --- كان الرب في الاحايين يجيب سؤال من يدعوه ويستشير . من
المؤمنين لا بأشارة صماء بل على لسان احد الملهمين من عليه الناس فيأتى القوم مزار رب
ينشدون اجوبة يتلقونها ونصائح يستفتحون بها وهذا هو معنى الهاتف بالغيب . وانك اترى
في اما كن كثيرة من بلاد اليونان وآسيا جملة صالحة من الهائفين بالغيب واشهرهم في
دودون من بلاد ابيروس ودلفيس في سفح جبل البارناس فكان الرب زيوس في دودون
يجيب دعوة المضطرين بدوي اشجار البلوط المقدسة والرب ابولون كان المستنصَح في دلفيس
وكان يسري في مغارة من معبده من شق التراب مجرى نسيم ضمن اليونان ان الرب بعث به
لانه ما استنشقه انسان الا وخرف وجن ولذا وضعوا اثنية على شق الارض وهي عبارة
عن امرأة (بيسيا) فيجلس على تلك الاثنية بعد ان تستحم في حمام مقدس وتقبل الالهام

فما هو إلا أن يأخذها شيء من الجحان العصبي حتى تبدأ تصرخ اصوات وتنفوّه بكلمات منقطعة فيتلقاها منها كهنة يجلسون حولها فينظّمونها شعراً ويقصونها على من جاء يستنصيح فكان هتاف الغيب من يسيها هذه مشوّشاً ملتبساً . ولما سألتها كريسوس عما اذا كان يجب عليه ان يشهر على الفرس حرباً اجابته بقولها (ان كريسوس يدمر مملكة عظيمة) ثم ان مملكة عظيمة تقوّضت اركانها ولكنها كانت مملكة كريسوس . وكان للاسبارطيين ثقة عظمى باليد . يا ولم يكونوا يسرون حملة لهم دون استشارتها وقد اقتدى بهم سائر اليونانيين وهكذا أصبحت دلفيس مبعث الهاتف الوطني .

الامفكتيونيا - ألف اثنا عشر رجلاً من اعيان الشعوب اليونانية جمعية سموها الامفكتيونيا حباً بحماية قبر دلفيس فكان يجتمع نواب هذه الشعوب كل سنة في دلفيس للاحتفال بعيد ابولون وللنظر فيما اذا كان الممعد يخشى عليه من مدى الاذى لانه كان فيه ثروة عظيمة ربما تدعو اللصوص ان ينهبوه . وقد صادر اهل سيرا وهي المدينة القريبة من دلفيس هذه الكنوز الثمينة في القرن السادس فاعلن عليهم اولئك الاعيان المشار اليهم حرب من استباح الامور المحظورة وخرق سياج المقدسات فأخذت سيرا وهدمت من اساسها وبيع سكانها بيع الرقيق واصبحت ارضها كأن لم تكن بالامس . ومع هذا فلا ينبغي ان يذهب ذاهب الى ان مجمع الامفكتيون اشبه في وقت من الاوقات مجلساً يونانياً . بلى انه لم يكن إلاّ بمعبد ابولون لا بالشؤون السياسية وما قط ضرب على ايدي شعوب الامفكتيون حتى لا يثيروا بينهم دواعي الشقاق فلهاتف الغيبي والامفكتيونيا في دلفيس كان لها من السطوة حظ اوفر من سطوة الهانئين والامفكتونيين ولكنه ما ضم قط انتات اليونانيين وجعلهم امة قائمة براسها

اسبارطة

شعبها

لاكونيا - لما هاجم اهل الجبال من الدوربين شبه جزيرة المورة نزلت اعظم عصابة منهم في مقاطعتي اسبارطة ولاكونيا ومقاطعة لاكونيا وادى ضيق يشقه نهر عظيم يعرف بالاوروناس يحيط بهما جبلان عظيمان غطيت قممهما بالثلوج وقد وصفهما احد الشعراء بقوله : « ابنتا الارض الغنية التربة المخصبة الرباع المتعذر استنباتها واستثمارها ابنتا البلدة الجوفاء المحصورة بين جبال قائمة الكثيبة في منظرها المنيرة على هجمات المهاجمين » وقد عاش الدوربيون من الاسبارطيين في هذه البلاد الحصينة بين ظهراني سكانها القدماء فاصبح بعضهم

رعايا لهم وفريق منهم عبيدهم ومواليهم وبهذا انقسم سكان لا كونيا الى ثلاث طبقات وهم الهيلوتيون والبيريكيون والاسبارطيون .

الهيلوتيون — سكنت هذه الطبقة من السكان اكواحاَ منتشرة في الفلاة واقاموا على حرث الارض وزراعتها وما ملكوا الاراضي التي كانوا يعملون فيها ولم يكونوا مطلقين في مغادرتها وما كان حالهم في ذلك الا حال عبيد القرون الوسطى مستأجرين تابعين للارض خلفاَ عن سلف عاملين لما لكتها الاسبارطي وكان يتناول منهم افضل قسم من غلاتهم . ولطالما احنقهم الاسبارطيون وحاذروا بأسهم واساءوا معاملتهم واضطروهم الى لبس ثياب غليظة وضربهم بلا داع ليدكروهم انهم عبيد وارقاء . وربما اسكروهم في الاحابن لينفروا ابناءهم من السكر . وقد شبه احد شعراء اسبارطة الهيلوتيين « بحجر موقورة تكبو وتنوء تحت اعباء الاحمال واعياء الضرب »

البيريكيون — سكنت هذه الفئة مئات من القرى في الجبال او على الساحل وألّفوا الاسفار البحرية واتجروا وصنعوا المواد الضرورية للحياة فكانوا احراراً يديرون شؤون مزارعهم بيد انهم كانوا يؤدون ضريبة لحكام اسبارطة ويخضعون لهم .

حالة الاسبارطيين --- ابغض الهيلوتيون والبيريكيون ساداتهم الاسبارطيين . يقول كسينوفون لم يكن لاحد منهم عند ما تكلم في شأن الاسبارطيين ان يكتم مبلغ سروره لو تسنى له ان يأكل الاسبارطيين احياء . زلزلت اسبارطة ذات يوم وكادت تنداعى اركانها فما كان باسرع من البرق حتى انهال الهيلوتيون من اطراف الفلاة ليقتلوا الاسبارطيين الناجين من الهلاك . ثم انتفض البيريكيون وابوا الخضوع . على ان الاسبارطيين كانوا من سوء السلوك بحيث يستحقون سخطهم . ولقد امر الاسبارطيون عقيب حرب اشترك فيها كثير من الهيلوتيين في معسكراتهم ان ينشقوا من استهزئتهم بالشجاعة ووعدوهم ان يعنفوهم وكان هذا الوعد منهم حيلة ليعرفوا بها اشجعهم نفوساً واجراًهم على ابداء نواجز الثورة فانخب ألفان منهم طافوا بهم ارجاء المعبود متوجة رؤوسهم اشارة الى الحرية ثم ادخلهم الاسبارطيون في خبر كان ولم يعرف احد كيف حكموا على حين كان المضطهدون عشرة اضعاف مواليهم وما قط ربا الاسبارطيون على تسعة آلاف رب أسرة يقابلهم مائتا الف من الهيلوتيين ومئة وعشرون ألفاً من البيريكيين واقتضى ان يعادل واحد من الاسبارطيين عشرة من مواليهم في مسائل القتل واذا اعتادوا المصارعة قضت الحال بان يكون افرادهم اقوياء استداء فكانت اسبارطة معسكراً لا جدار له وكان شعبها جيشاً على قدم الدفاع ابداً

التربية

الاولاد - يؤخذ اطفال هذه الامة منذ ولادتهم ليكون منهم اجناد فكل مولود يؤتى به امام المجلس فاذا وجد انه ضعيف اشوه بعرضونه على مجلس لان احوالهم اوجبت ان لا يكون جيشهم مؤلفاً الا من ارباب القوة والجلادة فمن يستحيونهم يؤخذون من اهلهم في السابعة من عمرهم ويربون مع اقرانهم كأنهم اولاد جماعة فيروحون عارية اقدمهم وليس على ابدانهم غير رداء واحد هو وقايتهم صيفاً وشتاءً وينامون على كدس من القصب ويغتسلون في المياه الباردة من نهر الاوروتاس ويقللون من الطعام ويزدردون كثيراً واطعمتهم غليظة ليعادوا ان لا يملأوا معدم . ويقسمون الى سرايا كل سرية مئة رجل ولكل منها زعيم . وكثيراً ما يريدونهم على التطاعن بالارجل والا كف . ويساطون في عيد ارنيمس حتى تسيل دماؤهم امام هيكله وربما مات بعضهم متأثراً من الضرب على انهم قلما يستغيثون فيرون الشرف ان لا يعرفوا اصواتهم يريدون بذلك تديريهم على ان يقتتلوا ويحتملوا العذاب والالم . وكثيراً ما يمنعون عنهم الطعام بتأناً فيسرقون ما يقتاتون به فاذا 'خدعوا يضرّبون بالسياط ضرباً مبرحاً . وكان من احد اولاد الاسبارطيين كما قيل وقد سرق ثعلباً صغيراً وخبأه تحت ثوبه ان آثر جعل بطنه فريسة للثعلب ينشه على افنضاح امره واظهار فعلته . وكان يراد تدريب هؤلاء الاطفال على حسن التخلص في الحروب فيسيرون غاضين ابداً وهم ساكتين وايديهم تحت ثيابهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة كأنما على رؤوسهم الطير امام الهياكل وكان عليهم ان لا يتكلموا على الطعام ويطيعوا كل من يلقونهم وذلك لكي يحضروهم للنظام .

البنات - اما سائر اليونانيين فيحجن بناتهم في البيوت ويشغلنهم بـ : ككة الصوف . اراد الاسبارطيون ان يقووا اجسام نساءهم ويجعلنهم من المقدرة بحيث يلدن الاقوياء من الاولاد فمن ثم كانوا يربون البنين على غرار البنات الا قليلاً . ولقد كانوا يترنون في رياضاتهم على الركض والقفز ورمي الأظرو والطعن بالحرب . وقد وصف شاعر ألعاب كانت فيها البنات كالمهاري مسترسلة شعورهن والغبار ثائر وراءهن وقد اشتهر من امرهن انهن كن اصح نساء يونان واشجعهم .

التدريب - حياة الرجال منظمة ايضاً حياة الجند اذ قضت الحال ان لا تنثني عزائمهم امام جمهور الاعداء فيكون الاسبارطي في السابعة عشرة من سنه جندياً ويظل كذلك الى الستين . فكانت الازياء وساعة القيام واسام والطعم وزيهات محددة معروفة بنظمات كما هو الحال في ككتة الجند اليوم . فاذا لم يحارب الاسبارطي يستعد للعرب فيمن نفسه

على العدو والقفز وحمل السلاح ويروض كل حين عامة اطراف جسمه من عنقه وذراعيه وكنتفيه وساقيه . ولا يحق له ان يتجرو ولا ان يحترف ولا ان يحرق ارضاً فهو جندي وليس عليه ان يحيد عن مهمته بمعاطاة اي عمل كان . وليس له ان يعيش في أسرته على هواه فان الاسبارطيين يتناولون الطعام زمراً زمراً ولا يخرجون من بلادهم الا باذن وهذا يعد من باب تنظيم جيش في ديار العدو

• الایجاز في الكلام — قاسى هؤلاء المحاربون شظف العيش فكانت سخائهم صفيقة نقرأ فيها العجب والخيلاء وكانوا يختزلون الكلام اختزالاً . وهذا ما يسمى بالكلام الموجز وبالأفريقية (لا كونيك نسبة لمقاطعة لا كونيا وقد بقي منها هذا التعبير) . فكانت الحكومة تبعث الى حامية على خطر من مباغثة العدو لها برسالة لا تكتب فيها سوى كلمة (الحذر) ولقد اخطر ملك الفرس جيشاً اسبارطياً ان يطرح سلاحه فاجابه القائد « تعال خذه » ولما استولى لزاندر على أثينة لم يكتب سوى هذه الجملة « سقطت آثينة » .

الموسيقى والرقص — كانت الاشغال الاسبارطية صنائع حربية يجيش . حمل الاسبارطيون معهم ضرباً من الموسيقى خاصة بهم كانت على جانب عظيم من الوقار والجماسة والكرامة في الاسماع وهي من ضروب الموسيقى العسكرية . فيروح الاسبارطيون الى ساحة الوغى على نغمات المزمار ويسرون على الايقاع . ورفصهم عبارة عن استعراض قائد لجند فيرقص الراقصون الرقص العسكري المألوف ببلاد يونان المدعو بالبيريك مسلحين ويتابعون عامة حركات القتال ويشيرون بالضرب وانكرو والفر والطعن بالحراب .

بأس النساء — عرف النساء بتحميس الرجال على القتال واشتهرت آثار شجاعتهن في يونان فكتبت فيها المصنفات . وقد قتل امرأة اسبارطية ولدها لفراره من الزحف قائلة « ان نهر الاوروتاس لا يجري ليشرب منه الوعول » ولما علمت احدى نساء تلك البلاد ان خمسة اولاد لها هلكوا قالت ليس هذا ما اسألكم عنه فهلا كتب النصر لاسبارطة فلما اجيب بالايجاب قالت اذا فلنحمد الآله ولنشكر لهم .

الترتيبات

الملوك والمجلس — للاسبارطيين اولاً كما لسائر ابناء يونان ملوك ومجلس شيوخ ودار ندوة وقد حفظت كل هذه الترتيبات ولكن من حيث الصورة فقط . فالملوك وهم من نسل المعبود هيراكليس يشرفون ويكرمون ولم حق التصدر في المواضع الاولى في المادب ويقدم لهم من الطعام ما يكفي اثنين واذا مات احدهم يلبس جميع الرعايا عليه الحداد . بيد انهم لم يتركوا لهم ادنى حكم بل يراقبونهم كل المراقبة . وكان مجلس النواب مؤلفاً من

ثمانية وعشرين شيخاً منتخبين من العيال الغنية القديمة يقومون بما ندبوا اليه مدى الحياة ولكنهم لا يحكمون .

المفتشون — ان المفتشين (ايفور) هم السادة الحقيقيون في اسبارطة وهم خمسة حكام يحدد انتخابهم كل عام ويناط بهم تقرير السلم والحرب وفصل القضايا . وهم يرافقون الملك في قيادة الجيش فيديرون حركة الاعمال الحربية وكثيراً ما يريدونه على الرجعة من الحرب وهم في العادة يستشيرون اعضاء مجلس الشيوخ ويقررون ما ينبغي باتفاق آرائهم ثم يجمعون الاسبارطيين في احدى الساحات ويطلعونهم على ما تم من القرار ويطلبون اليهم ان يصدقوا عليه اما الامة فانها تستحسن ما تم بالهتاف دون ان تناقش في اقل مسألة . ولا يعلم فيما اذا كان للامة الحق ان ترفض ما قرر وهي التي علمت الخضوع وان لاتعاود اصلاً . وكانت هذه الحكومة حكومة اشراف مؤلفة من عدة اسرات حاكمة . فمن ثم تكن اسبارطة بلاد مساواة وكان فيها اناس يدعون اهل المساواة وذلك لانهم كانوا سواء فيما بينهم اما غيرهم فيدعون المروؤسين ولم يكن لهم شيء من الحكم البتة .

الجيش — بفضل هذه الطريقة في الحكم احتفظ الاسبارطيون باخلاقهم الجبلية القاسية فلم يكن عندهم نقاشون ولا مهندسون ولا خطباء ولا فلاسفة بل انهم انصرفوا كلهم الى الحروب وحذقوا علم الكر والفر ايماناً حذق وغدوا من المقتنين لغيرهم من اليونانيين واتوا العالم بعلمين عظيمين احسن طريقة في القتال واحسن طريقة في التدريب .

المسلحون — كان اليونان قبلهم يسيرون الى القتال بغير انتظام فيمتطي الزعماء صهوات الخيول او عجالات خفيفة ويتقدمون صفوف الحملات والناس يتبعونهم مشاة وقد تسلح كل منهم كما اراد وقد نفرقوا طرائق قديماً وليس في وسعهم ان يكونوا بدياً واحدة في العمل او المقاومة . وما هو الا ان يستحيل القتال الى مبارزات ثم الى مذابح . اما في اسبارطة فللقاتلة باجمعهم سلاح واحد وكانت وسائل دفاعهم درعاً يغطي النصف الاعلى والخذوة نقي الرأس والمسامي (الطافات) نقي الساق والتروس تجعل في مقدمة الجسد . اما وسائل هجومهم فسيوف قصيرة ورمح طويل . وبسبي السلاح على هذه الصورة باسم ابوليت . والمسلحون من الاسبارطيين مقسومون الى كتائب وسرايا وفرق وشراذم على مثال ترتيب جيوشنا لهذا العهد الا قليلاً . فكان الضابط يقود احدى هذه العصابات و يبلغ رجاله اوامر الرئيس بحيث انه يتأقن القائد العام ان يوحد حركة الجيش كله . وهذه الطريقة التي نراها سهلة هي بالنسبة لليونان ابداع عجيب .

مصاف الجيش — متى بلغ الجند مقدمة الاعداء يأخذون مصافهم ويكون في العادة

على ثمانية صفوف متقاربين بعضهم من بعض مؤلفين من جموع متكاثفة تدعى مجافل ومصافاً ويقدم الملك وهو قائد الجيش عنزة على سبيل النذر للارباب واذا نفاوا باحشاء الذبيحة نفاؤلاً حسناً يبدأ جماعة من الجند يرددون لحناً وعندئذ تهتز صفوفهم فيباغتون اعداءهم مسرعين على الايقاع ونغمت المزمار والرمح يعاؤون والترس على الجسد فيحملون عليهم و صفوفهم متراسة فينكسون اعلامه بمجموعهم ووثوبهم و بهزموه و يقفون حالاً لثلاث قطع مصافهم وانه ليتسنى لكل جندي ان يحمي اخاه مادام سير الجيش كنفاً الى كتف فيكون بذلك كالبنيان المرصوص يتعذر على العدو ان يجد الى خرقه سبيلاً . ثم ان هذه التعبئة كثيفة في ذاتها ولكنها تكتفي لغلبة جيش مشوش وقلاً يقاوم ناس منفردون مثل تلك الجموع ولقد فعم سائر اليونان هذا الامر فاقصدوا جميعهم بالاسباطيين ما ساعدتهم المكنة فكان جندهم حيثما حلوا مدحجين بالسلاح وقاتلوا مجافل وكتائب متراسة .

الرياضة الجسمية = اقتضى تدريب رجال خفاف اقوياء لتتسنى مهاجمة العدو في مثل تلك الصفوف وثنكيس اعلامه لاوّل وقمة فكان على كل جندي ان يحسن البراز والصراع فمن ثم رتب الاسباطيون الرياضات البدنية واقتدى بهم سائر اليونانيين فاصبحت الرياضة عملاً من اعمال الامة كافة . واكثر اعمالها اعتباراً ما يكمل صاحبه في الاعياد العظيمة . عرفت احدى المدن في البلاد النائية بين برابرة الغول او البحر الاسود وثبت انها يونانية اذ كان لها ملعب للاعمال الرياضية . وكان هذا الملعب قطعة مربعة عظيمة تحيط بها اروقة او دهاليز وهي في الاغلب على مقربة من نبع وله حمامات وقاعات للترين . فيحضر السكان الى ذلك المكان للتنزه والمحادثة فهو اشبه بنادي وكان الفتيان يقضون في هذا الملعب عامين على الاقل يختلفون اليه كل يوم يتعلمون القفز والركض ورمي الاطار وضرب الحراب ويتصارعون بوسط الجسد لتقوية العضلات والجلد وينغمسون في الماء البارد ويطولون ابدانهم بالزيت وبتمسحون بمسحة .

المصارعون = معظم الاسباطيين يقضون عامة حياتهم في ممارسة هذه التمرينات لىباء ومروءة فلا يعتمدون ان يصبحوا مصارعين وقد وفق بعضهم الى ان تمت على ايديهم خوارق ويقال ان ميلون من مدينة كروتون في ايطاليا كان يحمل ثوراً على كتفيه ويوقف عجلة وهي راكضة بان يسكها من خلفها . ولقد كان هؤلاء المصارعون يخدمون في الحروب خدمة الاجناد وكثيراً ما يقومون بقيادة الزحف وبهذا صح قولنا ان الرياضات البدنية بمثابة تدريب على الحرب .

اعمال الاسباطيين = تعلم الاسباطيون من اليونانيين الترويض والقتال وجاء منهم

مصارعون اقوياء اشداء وجند منظم وعرفوا بهذه المزية في بلاد اليونان وكانوا من اجل ذلك يحترمون في كل مكان . ولما قضي على سائر الشعوب اليونانية ان تقا تل الفرس بمجتمعة تحت راية واحدة لم يستكفوا من اتخاذ الاسبارطيين زعماءهم . قال خطيب آثيني وكان هذا الامر بحجة صحيحة واستحقاق تام .

آثينه

الشعب الآثيني

اتيكياء --- فاخر الآثينيين لسكناهم ابدآ بلادآ واحدة وادعى اجدادهم انهم ولدوا من الرمل كالزيزان . وقد اجتاز الفاتحون من سكان الجبال بالقرب من بلادهم ولم يهاجموها وقلم دعمهم اتيكياء الى قنالمها . هذه المقاطعة مؤلفة من جبال شاهقة صخرية نائمة في البحر على شكل مثلث الاضلاع . وهذه الصخور المشهورة بقطع رخامها وبمسل نخلها جرداء مرداء بينها وبين البحر ثلاثة سهول صغيرة قاحلة لا تروى (لجفاف سواقيها في الصيف) ولا تقوم بتغذية امة كبيرة .

آثينة --- على فرسخ من البحر في اعظم تلك السهول قامت صخرة عظيمة وحيدة منصبة وقد اُسست آثينة في سفحها . اما المدينة القديمة التي كانت تدعى الاكروبول (المدينة العالية) فانها كانت في قمة الجبل . وقد اخذ سكان اتيكياء ينفرون الى ممالك عديدة فكانت كل قرية تحكم نفسها بنفسها ولها ملك فجمع جميعها تحت زعامته وهو ملك آثينة فيتألفون بذلك مدينة واحدة وليس معنى ذلك انهم كلهم يحيطون رُحالهم في المدينة . بل يظل كل منهم يسكن قريته ويزرع ارضه . بيد انهم كلهم عبدوا اربابآ واحدة وهي آثينة معبودة آثينة وخضعوا باجمعهم للملك واحد .

ثورات آثينة --- قدر جعت آثينة فنزعت السلطة الملكية واستعاضت عنها بتسعة زعماء (اركون) يتبدلون كل عام . وانا لنجهل هذا التاريخ كل الجهل اذ لم يبلغنا عن ذاك الوقت اقل كتابة نستند اليها . ويروى ان الآثينيين عاشوا قرونآ في شقاق يضطهد اشراف اصحاب الاملاك (اوباتريد) العملة من اصحاب المياومات في اراضيهم وبييع الدائنون مدنيهم بيع الارقاء . ولقد عهد الآثينيون حبآ بتوطيد الراحة الى صولون احد حكمائهم ان يسن لهم قوانين يسيرون عليها فقام بثلاث اصلاحات : اولآ تقليل قيمة السكة وهو مما سهل على المدنيين ان يوفوا ما عليهم من اهون سبب . ثانيآ جعل الفلاحين ملاكآ للاراضي التي يزرعونها ومن ذاك الحين صار في اتيكياء كثير من صغار اصحاب الاملاك مما لم يمهده مثله في بلاد يونانية . ثالثآ قسم السكان عامة الى اربع طبقات بحسب مداخيلهم وقضى

على كل منهم ان يؤدى الضرائب ويقوم بالخدمة العسكرية على نسبة ثروته . اما الفقراء فاعفاهم من الضرائب والخدمة . ولقد خضع الآثينيون بعد وصولون الى بيزستراس احد ابائهم العالمين العارفين ثم بدأ الاضطراب سنة ٥١٠

اصلاح كليستين — استفاد كليستين احد زعماء الاحزاب من هذه الاضطرابات فقام بثورة عظيمة . ولقد سكن كثير من الغرباء في اتيكيا وكان معظمهم ملاحين وتجاراً يقطنون مدينة بيرا بالقرب من المرفأ . فاعطاهم كليستين حقوق الوطنيين وساواهم بالسكان الاقدمين فصار من ثم في تلك المقاطعة شعبان مختلفان سكان اتيكيا وسكان بيرا وكانا يتميزان احدهما عن الآخر بعد ثلاثة قرون من هذا الاختلاط باختلاف سخناتهم فيشبه اهل اتيكيا سائر اليونانيين ويشبه اهل بيرا الآسيويين . وهكذا زاد الشعب الآثيني فاصبح امة جديدة ومن اكثر سكان بلاد اليونان حركة ونشاطاً حتى اذا كان القرن الخامس تألفت الهيئة الاجتماعية في آثينة تأليفها الاخير فكان ثلاث طبقات من السكان يقطنون اتيكيا الا وهم الموالي والاجانب والوطنيون .

الموالي — الموالي هم السواد الاعظم من اهل البلاد فلم يكن ثمت رجل مما بلغ من الفقر المدقع الا ويملك مولى، اما الاغنياء فيملكون منه كتيبة وملك بعضهم نحو خمسمائة مولى وكان من شأن هؤلاء الموالي ان يقبوا في الدور وشغلهم الطحن والعجن وحيكة الثياب ونسجها وطبخ الطعام وخدمة ساداتهم . ويعمل بعضهم في المعامل حدادين وصباغين او يشتغلون في المقالع والمناجم الفضية . ويقوم سيدهم باودهم ولكنه يبيع لنفسه كل ما تنتجه ايديهم ويأتي ثمره اعمالهم ولا يعطيهم من جميع ذلك الا الطعام . فكان عامة الخدمة والعاملين في المناجم ومعظم الصناع عبيداً وارقاء . يعيشون في المجتمع دون ان يعدوا منه بل لا يتصرفون بانفسهم وهم ملك مواليتهم جسماً ومادة . ولم يعتبروا الا اعتبار عروض تملك وربما دعوم «اجساداً» وليس لهم من شريعة غير ارادة سيدهم . وليسدهم عليهم كل حق وسيطرة فان شاء شغلهم وان شاء حبسهم وان شاء حرمهم من طعامهم وان شاء ضربهم واذا نشأت لاحد الوطنيين قضية يتأتى لخصمه ان يطلب تعذيب مواليه ليقروا بما يعملون . وقد امتدح عدة خطباء آثينيين هذه العادة وعدوها ضرباً من ضرور الجذوق لاخت شهادة صحيحة . قال الخطيب ايزيه ان التعذيب احسن واسطة لنيل البراهين ولذلك متى كان عليك ان توضح مسألة منازعاً فيها فايالك ان تعتمد الى الاصرار بل انك تصل الى كشف القناع عن محيا الحقيقة بجعل العمدان في العذاب الشديد .

الاجانب — هم ناس من اصول مختلفة يقبون في اتيكيا وهم الذين يدعون الميتيكيين

(اي المتساكنين) . ولم يكف الرجل كما هو الحال عندنا ان يولد في ارض آثينية ليغد وطنياً بل يجب ان يكون ابن وطني . وعبثاً استوطن الطراه في اتيكا اجيالاً كثيرة وماعدت قط اسراتهم آثينية . فالميتيكيون والحالة هذه لم يكن لهم ان يشتركوا في الحكومة ولا ان يتزوّجوا ووطنية ولا ان يقننوا ملكاً على حين كانوا احراراً في اشخاصهم ولم حق السفر في البحر وان يكونوا صيارف وتجاراً على شرط ان يتخذوا لهم زعيماً ومولى يمثلهم امام القضاء . وكان في آثينة زهاء عشرة آلاف أسرة من الميتيكيين ومعظمهم صيارف وتجار الوطنيون — اقنضت الحال ان يكون الانسان ابن وطني او وطنية ليكون وطنياً آثينياً ومتى بلغ الفتي الثامنة عشرة من عمره يعد عندهم راشداً فيقف امام جموع الشعب ويدفع اليه السلاح الذي يقضى عليه حمله ويقسم ميميناً فيقول : اقسم بانني لاهين هذا السلاح المقدس ولا اغادر موقفي في صفوف الاعداء وان اخضع للحكام والقوانين واشرف دين وطني . فيكون بهذا الحلف وطنياً وجندياً معاً ويقفى عليه بعد ان يخدم في الجندية الى سن الستين وله لقاء ذلك حق الجلوس في مجلس الامة والقيام بوظائف الحكومة ورمبارضي الشعب الاثيني يجعل رجل وطنياً على حين ليس هو ابن وطني ولكنه يرضى بذلك على صفة استثنائية وتوسعاً في المكرمة العظيمة . فيوافق المجلس على قبول الغريب وينبغي ان ينتخبه على الاقل ستة آلاف وطني بعد تسعة ايام من هذا الاقتراع وفي جلسة ثانية وذلك في انتخاب سري . والشعب الاثيني هو كدائرة مطبقة لا يدخل فيه اعضاء جدد الا اذا رضي الاعضاء القدماء بقبوله على انهم لا يقبلون غير ابنائهم .

المجلس — يلقب الاثينيون حكومتهم بالحكومة الديمقراطية (اي حكومة الشعب) وليس هذا الشعب ما نعني به عندنا من جمهور السكان بل هو جماعة الوطنيين وخلصاء الاشراف وعددهم بين خمسة عشر الفا الى عشرين الف رجل وهم زعماء الامة بأسرها . ولهمؤلاء الجماعة سلطة مطلقة وكلمة عليا وهم على التحقيق ملوك آثينة فان مجلسهم يلتم ثلاث مرات في الشهر للمفاوضة والاقتراع . يجتمعون في الهواء الطلق في ساحة البينكس فيجلس الوطنيون على مقاعد من حجر ذات درجات ويقعد الحكام بازائهم على مصطبة ويفتقون الجلسة باحتفال ديني وصلاة يصلونها ثم يعلن المنادي بصوت جهوري بالمسألة التي يناقش فيها المجلس قائلاً من منكم يشترع في الكلام أولاً . ولكل وطني الحق ان يطلب ذلك . وعندها يصعد الخطباء المنبر بحسب تفاوت اعمارهم ومتى تكلموا كافة يضع الرئيس المسألة المطلوبة على بساط الميث فيقترع المجلس بان يرفع اعضاؤه ايديهم ثم ينصرفون .

الحاكم — لما كان الشعب حاكماً فهو يقضي في القضايا لذاته بذاته ولكل وطني بلغ

الثلاثين من عمره ان يكون من اعضاء مجلس الحكم فيجتمع الحكام في القاعات الكبرى فرقاً كل فرقة مؤلفة من خمسمائة نسمة . وفي كثير من القضايا يانتم فرقان او ثلاث فرق من الحكام فتتألف المحكمة من جمهور يبلغون ألفاً وألفاً وخمسمائة قاضي ولم يكن للآثنيين حكام كما هو الحال عندنا لرفع القضايا بل كانت هذه المهمة من وظيفة الوطني الذي يعهد اليه تجريم المجرمين . فيمثل المدعي والمدعى عليه امام المحكمة ويخطب كل منهما خطبة لا تزيد على وقت 'حد' ساعة دقاقة مائة . ثم يبدأ القضاة بالموافقة على وضع حصة يضاء او سوداء فاذا توفر للمدعي بضعة آراء (اصوات) زيادة على خصمه يحكم عليه ويجرم .

الحكام — كان الشعب الحاكم في حاجة الى مجلس لوضع المسائل موضعها من البحث والى حكام ينفذون ما يقرره ويتألف المجلس من خمسمائة وطني تعيينهم القرعة حولاً كاملاً . واذ كثر عدد الحكام خص عشرة منهم لتعبئة الجيش وقيادته وثلاثون لادارة الشؤون المالية وستون منهم يعهد اليهم خطة الحسبة من النظر في الشوارع ونظافتها والاسواق وبياعاتها والاوزان والقياسات وما يتبعها .

منعة هذه الحكومة — لم تكن السلطة في آتينة في ايدي الاغنياء والشرفاء كما كانت في اسبارطة بل كانت تقرر كل مسألة باكثرية الآراء وتتعادل الآراء فيجري انتخاب الحكام واعضاء المجلس والعمال بالقرعة . الا القواد فانهم لا ينتخبون كذلك . والوطنيون يتساوون لا من حيث الامور النظرية بل من حيث الامور العملية . ولقد قال الحكم سقراط لاحد اهالي آتينة المنورين وكان لا يجرأ على الكلام امام الشعب « يا هذا ممن تخاف ؟ امن القصارين ام من السكاكين او الممارين او الحراثين ام من السوق والمترقين فمن هاته الطبقات يتألف المجلس » وكثيرون من هؤلاء الحكام مضطرون الى الاحتراف ليعيشوا ولم يكن في وسعهم ان يخدموا الحكومة بالجان ولذلك عينت لهم مشاهرات واجوراً فيتناول كل وطني اجرة جلسة واحدة في المجلس او المحكمة ثلاثة فلوس او خمسة واربعين سانتيماً من سكتنا وهو القدر الذي يتأق لرجل ان يعيش به في ذاك العصر . من اجل هذا كثر الاعضاء الفقراء في هذه المجالس وجلسوا على دكات الحكام مع الاغنياء كتنفاً الى كتف ووجهاً لوجه .

الفوضيون من الشعب — لما كانت تفصل المسائل برمتها في المجلس او المحاكم بالناقشة فيها والقاء الخطب في مضامينها كان فصحاء القوم هم ارباب المكانة المكيئة في الامة . فاعتادت هذه ان تسمع لاصوات الخطباء وان تعمل بنصائحهم وتعهد اليهم في السفارات وان تعينهم قواداً وزعماء . ويدعى هؤلاء الرجال الفوضيين « اوزعاء العصاة » . اما

حزب الاغنياء فيضحك منهم . وقد مثل اريستوفان الشعب في احدى الروايات الهزلية في صورة شيخ سخي ف قال : انت غبي تصدق كل ما تسمع تستسلم لاهل النفاق والدسائس يتلاعبون بك على هواهم وتغتنب بالسعادة متى خطبوا فيك . وقال احدهم خطاباً لاحتزاز الآفاق : انت يا هذا شقي فظ غليظ وصوتك شديد وفي بلاغتك من القحة وفي حركاتك من السرعة ما يوهلك على ما ارى الى كل ما يلزمك لحكم آثينة .

الحياة المنزلية

اخترع الآثينيون وظائف كثيرة عهد القيام بها الى فئة من الوطنيين . فكان الوطني الآثيني كالوظف والجندي في ايامنا مهتماً بالانصراف الى الاعمال العامة يصرف ايام حياته في اشهار الحرب والحكم على الشعب ويقضي ساعاته في المجلس او في المحكمة او في الجيش وفي محال الرياضة او في السوق وكان له ابداً امرأة واولاد لان الدين بأمره بذلك ولكنه ما كان يعيش عيش البيوت .

لاولاد -- يحق للوالد عند ما يولد له مولود ان يطرحه ويطرده خارج بيته فيموت طريقاً اذا لم يلتقطه احد ابناء السبيل ويربيه ليحمله مولى له . وانت ترى ان آثينة اتبعت في هذا خطة جماع الشعوب اليونانية . والبنات كن يُنبذن في العراء ويُطرحن خارج المنازل اكثر من البنين قال احد الخطباء الهزليين ان الابن يُربى في الغالب ولو كان ذووه في اقصى دركات الفاقة اما الابنة فتهمل ولو كان اهلها من الغنى على جانب . فان قبل الوالد الولد يعد من الأسرة ويترك اولاً في مساكن النساء بالقرب من الام حيث يظل البنات الى ان يتزوجن اما البنون فينفصلون عن تلك البيوت في السابعة من عمرهم فيسلم الطفل الآثيني الى المربي الذي يعهد اليه تعليمه وتحسين هيئته والخضوع والطاعة وكثيراً ما يكون المعلم من طبقة الموالي الا ان والد الطفل جعله في حل من ضرب ابنه . وهذه كانت عادة عامة في القديم . ثم يذهب الولد الى الكتاب يتعلم القراءة والكتابة والحساب وانشاد الاشعار والتغني مع جماعة الموسيقيين على نغمت المزمار ثم يأخذ في تعلم الالعاب الرياضية وهذه غاية ما يتعلمه الولد فيجيء من هذا التعليم من ابناء الآثينيين رجال صحيحة اجسامهم هادئة افكارهم يدعوم اليونانيون اهل الصلاح والجمال . اما الفناء فظل بالقرب من امها لا تعلم شيئاً . ويذهبون الى انه يكفي الابنة الآثينية ان تحسن الخضوع وتثبت بأهداب الطاعة . وقد مثل كسينوفان احد اغنياء الآثينيين المهذبين وهو يخاطب الحكيم سقراطاً في شأن زوجه قال : لم تكذب تبلغ الخامة عشرة حتى تزوجتها وقد كان ذووها جعلوها الى ذلك الهد تحت المراقبة الشديدة وارادوا ان لا تبقى وتميش ولا تسمع

شيئاً على التقريب مما اهلها لان تكون امرأة تحسن نسج الصوف وتصنع منها ثياباً ورايات باي الطرق يستخدم الاماء والخدمات . ولما اقترح عليها زوجها ان تكون شريكة في حياته اجابته مدهوشة : على اي امر أعينك وهل انا قادرة على شيء ؟ فلطالما قالت لي أمي ان شأني الخاص بي ان اكون عاقلة . فعنى كون المرأة عاقلة ان تخضع وهذه هي الفضيلة التي تطلب الى المرأة اليونانية .

الزواج — تزوج الفتاة في الخامسة عشرة من سنها واهلها يختارون لها زوجها فيكون تارة شاباً من أسرة قريبة او رجلاً طاعناً في السن من اصدقاء والدها ولا يعدو ابداً ان يكون وطنياً آثينياً وقد تعرفه الفتاة من قبل في بعض الاحوال وما قط أخذ رأيها في معنى زواجها . ولما تكلم المؤرخ هيرودتس عن احد ابناء يونان قال : ان كالياس هذا جدير بان يتكلم المتكلمون في امره للخطبة التي يسلكها مع بناته فانهم متى صلحوا للزواج يغفلون من المال شيئاً كثيراً ويسمح لهم باختيار ازواج لهم من ابناء الامة ويزوجهن بمن ينتخبهم النساء — كان في داخل كل بيت آثيني مسكن منعزل خاص بالنساء يدعى الحرم ولا يختلف الى هذا المسكن غير الزوج والانساء وتبقى فيه ربة البيت دائماً مع صويحباتها وامائها ترافق اعمالهن وتلقنهن اصول تدبير المنازل وتوزع بينهن الصوف ليحكنه وهي تشغل نفسها بحياكة الثياب ايضاً . وقلم كانت تخرج من دارها الا في الاعياد الدينية ولا تظهر في مجتمعات الرجال قط . قال الخطيب اريس : حقاً انه لم يكن لاحد ان يجبراً على الغداء عند امرأة مزوجة فان النساء للزوجات لا يخرجن لتناول الطعام مع الرجال ولا يسمحن لانفسهن ان يأكلن مع الغرباء وغير المحارم . وما كانت المرأة التي تخالط الرجال معدودة في جملة النساء المحتشبات المهيذبات . وهكذا لم تكن المرأة وهي على حالها من الاعتزال والجهل ذات عشرة مقبولة فيتزوج بها الرجل لا لتكون شريكة حياته بل لتقوم بأمر يئته وتلد له اولاداً ولان العادة والدين عند اليونانيين بقضيان بان يكون للمرأة حليلة . وقال افلاطون اذا تزوج المتزوج فليس برضاه وذوقه السليم بل لان الشريعة تقضي عليه بذلك . وقال مياندر الشاعر الهزلي هذه العبارة : اذا شئت التحقيق فقل ان الزواج شر ولكنه شر لا مناص منه . ولذا كان ابداً للنساء في آثينة كما في معظم المدن اليونانية مقام وضع في المجتمع .

الحروب المادية

سببها — بينا كان اليونان آخذين في تنظيم مدنها كان ملك الفرس يجمع شتات بلاد الشرق كافة تحت لواء واحد . ولقد تقابل اليونان والمشاركة وكان المصاف بينهم لاول

الامر في آسيا الصغرى . وكان على شاطئ آسيا مستعمرات يونانية غنية ماهولة قطع
 قورش ملك فارس في ضمها الى بلاده فبعثت تلك المستعمرات تستجد بالاسباطيين وقد
 اشتهروا بانهم اجرا ابناء اليونان واندروا بذلك قورش فاجابه بقوله : انني ما خشيت
 قط هذا الضرب من الناس الذين يجتمعون في ساحة وسط مدنتهم ليندع بعضهم بعضاً
 بالايان والعهود (كلامه على ساحة السوق) فغلب ابناء اليونان في آسيا واصبحوا رعايا اذاك
 الخاقان الاعظم . وبعد ثلاثين سنة تقابل الملك دارا مع يونان اوربا ولكنهم ظهروا
 عليه هذه المرة فارسل الآثينيون عشرين سفينة على الايونيين العصاة فدخل جندهم في
 ليديا واستولوا عنوة على مدينة ساردس عاصمة ليديا واحرقوها . فانقم دارا عن ذلك
 بان خرب المدن اليونانية في آسيا ولم يبق على يونان اوربا . وقيل انه امر ان يمثل لديه
 ضابط في كل مأدبة يكرر على مسامعه قوله : مولاي تذكر الآثينيين . وقد بعث الى المدن
 اليونانية يطلب تراباً وماء . وهذه الاشارة الشائعة عند الفرس كانت دلالة على ان شعباً
 يخضع بلاده لسلطة الخاقان الاعظم فاوجس معظم اليونانيين خيفة واستسلموا خاضعين
 باخمين فطرح الاسبارطيون المندوبين من الفرس في بئر قائلين لهم ان يأخذوا منها ماء
 وتراباً يحملونها الي ملكهم . وهذه كانت فاتحة الحروب المادية .

مبادلة الخصمين — ان التباين بين هذين العالمين التجار بين قد اشار اليه هيرودتس
 احسن اشارة في صورة محاورة بين كسيركيس ملك الملوك وديمارات احد المنفيين من
 الاسبارطيون فقال هذا : تجاسر ان اؤكد لك ان الاسبارطيون يعلنون عليك حرباً حتى
 ولو انحاز سائر ابناء يونان كافة الى حزبك ولوم يبلغ جيشهم الف رجل . فاجاب كسيركيس
 ضاحكاً وليت شعري هل في وسع الف رجل ان يشهروا حرباً على هذا الجيش الكثير
 العدد والعدد واني لآخشي ان يكون في كلامك تهذلق كثير . وهب ان عددهم خمسة
 آلاف فنجن زهاء الف لقاء واحد . فلو كان لم زعم مثلنا فان الخوف يحمسهم ويزيد
 نفوسهم مضاً فيزحفون بضرب السياط على جيوش اكثر منهم حصاً وعدداً . واذ انهم
 احرار لا علاقة لهم باحد فليس لهم من الشجاعة اكثر مما خستهم به الفطرة . يقول ديمارات
 ان ليس الاسبارطيون دون غيرهم في حرب يتلاقى فيه التجار بون جسداً لجسد حتى اذا
 انضموا بعضهم الى بعض صاروا جيشاً برأسه ومن اشجع الناس وامضام . وقصارى القول
 فانهم وان كانوا احراراً في الظاهر ليسوا كذلك في سائر شؤونهم فلمهم حاكم مطلق ألا
 وهو « القانون » فهم يخافونه كثيراً ويهربون بأسه اكثر من رهبة رعايانا لك . يطيعونه
 والقانون يأمرهم ان يثبتوا في مصافهم ابداً الى ان يغلبوا او يموتوا — اليك حال هذين

الحزبين احدهما مع الآخر قترى من جهة عدداً عديداً من الرعايا تضمم القوة بزعامة رئيس ذي هوى وشهوات . ومن جهة ثانية جمهوريات صغرى محاربة يحكم ابناءؤها انفسهم بانفسهم بقوانين يحفظون بها ويرعونها .

الحرب المادية الاولى - نشبت حربان مديتان كانت الاولى بمثابة حملة على آثينة فارس دارا ستمائة سفينة أنزلت جيشاً فارسياً في سهل ماراثون الصغير على سبع ساعات من آثينة . ولقد كان دين الاسبارطيين يحظر عليهم ان يسيروا قبل ان يكون الهلال بدرًا وكان القمر اذ ذاك في الربع الاول ففضي على الآثينيين ان يحاربوا وحدهم فجاء عشرة آلاف من الوطنيين مسلحين سلاح الابطال واقاموا لهم معسكراً امام صفوف الفرس بقيادة عشرة قواد يتناوبها كل منهم يوماً حتى اذا كانت نوبة القيادة للمتيادس عبي جيشه للحرب فهاجم الآثينيون صفوف الاعداء على صفوف مشتبكة فلما رآهم الفرس اقتربوا منهم ولم يجعلوا في مقدمتهم فرساناً ولا دارعين فظنهم جنوا واضاعوا رشدهم . وهذه هي المرة الاولى التي جسر فيها اليونان على اقتحام صفوف الفرس في حرب منظمة . فطفق الآثينيون يحملون على جناحي الجيش ويمزقونه كل ممزق ثم رجعوا الى القلب وحملوا الفرس على الهزيمة نحو البحر واضطروهم الى معاودة ركوبه . وكانت من نصره اليونان في حرب ماراثون ان انقذتهم واطارت صيتهم في ارض يونان كلها (٤٩٠)

حرب مادي الثانية - - نشبت الحرب بعد عشر سنين بغارة فجع كسير كيس بن دارا شعوب بلاده كلهم ويقال ان جيشه البري بلغ مليوناً وسبعائة الف مقاتل مؤلفاً من ماديين وفرس لابسين قمصاناً ذات اكمام مسلحين بدروع من حديد واتراس واقواس وسهام ومن اشوريين بلبسون دروعاً من كتان مسلحين بدبابيس معددة الرؤوس ومن هندو بلبسون ثياباً قطنية يحملون اقواساً ونبالاً من خيزران ومن زنوج بلبسون جلد الثور ومن قبائل رحالة ليس لهم سلاح الا ما كان من حبل ذي أشوطة ومن فريجييين مسلحين بحراب قصيرة واتراس صغيرة ومن ليديين مجهزين على الطريقة اليونانية ومن تراكسيين يحملون حراباً ومضى وقد شغل تعداد صفات هذا الجيش عشرين فصلاً في تاريخ هيرودتس . وكان هؤلاء المحاربون يجرون وراءهم جموعاً توازي الجموع المدربة على القتال من خدمة للجيش وموالي من النساء وكثير من البغال والخيول والجمال والعجلات المشحونة بالاثقال ولقد اجتاز هؤلاء الاخلاط هيلسيون على جسر قائم من مراكب في ربيع سنة ٤٨١ وظلوا يتابعون سيرهم سبعة ايام بليلياً تحت ضرب السياط ثم اجتازوا تراكسيا وساروا على بلاد يونان يجرون بالقوة وراءهم من يصادفونه من الشعوب فكان الاسطول الفارسي وهو مؤلف من الف ومائتي

سفينة حربية يمشي على شواطئ، تراكسيا مجتازاً ترعة جبل اتوس الذي خرقه كسيركيس عمداً . فدخل الرعب في قلوب اليونانيين وخضع معظمهم لخاقان الفرس فقموا جندهم الى الجيش الفارسي . وراح الآثينيون يستشيرون هاتف دلفيس فاجابهم اولاً ان آثينة تخرب ويكون عاليها سافلها حتى اذا نضرعوا اليه ان يجيئهم بجواب يبعث على الطمأنينة رد عليهم بقوله : ان زيوس يمنح بالاس (حامية آثينة) جداراً من خشب لا يتأقنى الاستيلاء عليه وحده وانكم تجدون فيه سلامتكم انتم وبنوكم . ولقد حث العرافون الذين طلبوا اليهم ان يفسروا كلام هذا الهاتف جماعة الآثينيين على مغادرة اتيكيا وان يذهبوا ليستوطنوا مكاناً آخر . وفسرتمستوكلس جدار الخشب بالمراكب . فقضت الحال اذا ان يرجعوا على الاسطول ويحاربوا الفرس في البحر .

واذ قد عزم اهل آثينة واسبارطة على المقاومة اخذوا يبحثون في تأليف عصابة من اليونان للحكم على الفرس فاجترأت بعض المدن على الدخول في هذه العصابة وانضموا تحت قيادة اسبارطة ولما نشبت اربع حروب في عام واحد قرروا القتال فمحق الفرس ليونيداس ملك اسبارطة في الترموبيل وكان معسكراً اسد فم احد المضايق وضرب الاسطول اليوناني الاسطول الفارسي في سلامينة وكان هذا مجتمعا في خليج يزحم بعضه بعضاً (٤٨٠) وبدد ابطال اليونان في بلاتيه الجيش الفارسي الذي بقي في بلاد اليونان ولم ينج من ثلثائة الف رجل سوى اربعين الفا ونزل في ذاك اليوم جيش يوناني في ميكال على شاطئ آسيا وهزم الفرس (٤٧٩) وهكذا غلب اليونان الخاقان الاعظم صاحب فارس .

سبب نصرة اليونان -- لم تكن حرب مادي حرباً وطنية بين يونان وبرابرة بل كان يونان آسيا ونصف يونان اوروباً يقاتلون في الجيش الفارسي ولم يحسر كثيرون من ابناء جنسهم على ابداء اقل حركة . وكان الخاقان الاعظم ورعاياهم الذين حاربوا اسبارطة وآثينة ومن حالفهما في الحقيقة . فكان من خوارق العادات ان يغلب هذان الشعبان الصغيران ذاك الخليط العظيم من الفرس . وزعم اليونانيون ان الالهة قاتلوا عنهم ومتى درست احوال الخصمين عن أم بطل عجبك . فقد كان الجيش الفارسي جسيماً فظن كسيركيس على سذاجة قلبه ان النصر معقد اللواء بكثرة العدد بيد ان هذه الجموع كانت مرتبكة من نفسها ولم تدر من اين تأخذ ذخيرتها ولتقدم تقدماً بطيئاً ويضيق ذرعها من اول يوم الحرب حتى ان السفن المزدحمة كانت تفرز طرف مقدمها في السفن المحيطة بها وتحطم لها مجاذيفها ثم ان في ذاك الجماء الغفير كما يقول هيرودتس كثيراً من الناس وقليلاً من الجند . ولم يكن غير الفرس والماديين وهم خيرة الجيش يقاتلون بشدة اما غيرهم فلم يكونوا

يزحفون الى العدو الا اذا انتهالت السياط عليهم وقد جاؤا بسيف القوة والقهر الى حرب لا يهجم امرها ولا سلاح لديهم ولا نظام في مصافهم فهم لا يلبثون ان يركنوا الى الفرار بمجرد ان تغيب اعين الحراس عنهم . وتقاتل الماديون والفرس وحدهم في بلايته وميكل ونجا الرعايا . وكان الجند الفارسي سيء النظام والعدة يلبس ثياباً طويلة وقد وقيت رؤسهم بقلنسوة من لباد وحفظت اجسامهم اتراس من شجر الصفصاف والخلاف وسلاحهم قوس ومدية وحربة قصيرة جداً ولم يكونوا يستطيعون القتال الا بميدن ويقايل الرجل رجلاً مثله . اما الاسبارطيون والتعدون معهم بمقد الخدعة فكانوا على عكس ذلك تقيم التروس العظيمة والخذوذ وقيات السوق ويسرون جموعاً مشتبكة لا تقاوم يحرقون صفوف العدو بجراهم الطويلة وما هو باسرع من رد الطرف حتى تصير الحرب ملحمة كبرى ومذبحة تباع فيها الارواح ببيع السماح .

نتائج الحروب المادية — قادت اسبارطة الجيوش ولكن كما قال هيرودتس كانت آثينة هي التي انتقدت اليونانية بان كانت لها مثلاً في المقاومة . فالقت اسطول سلامينة وقد استفادت آثينة من هذه النصرة اما المدن الايونية من الجزر وشاطيء آسيا جملة واحدة فقد ثارت ومردت والقت عصاة تباعث فيها على الموت في سبيل الذود عن اوطانها من مهاجمة الفرس . واما الاسبارطيون وهم شعوب جبلية فلما لم يستطيعوا ان يدبروا حرباً انصرفوا راجعين ادراجهم فاصبح الآثينيون اذ ذاك زعماء العصابة . وفي عام ٤٧٦ جمع اريستدس قائد اسطولهم نواب المدن المتحالفة فقرأ عليهم على متابعة حرب الخاقان الاعظم وتآمروا بينهم على تقديم سفن ومحاربين وان يؤدوا كل سنة قطعة من المال قدرها ٤٦٠ تالانا (اسيه مليوناً وسبعائة الف فرنك) وجعلت الخزانة بمدينة دياوس في معبد ابولون معبود الا يونيين وكان عهد الى آثينة ان تقود الجيوش وتجي القطائع . وقد اتى اريستدس في البحر قطعة من الحديد المحمي واقسموا كلهم ان يحتفظوا جميعاً بالعهود الى يوم تطفو هذه الحديدية على سطح الماء وذلك حباً بتأكيد العهد ونفاذاً من نقض يمين الاخلاص .

وقد حدث مع هذا ان الحرب وقفت وعقد اليونان — وكان النصر اليك الويهم ابداً — معاهدة سلمية او هدنة مع الخاقان الاعظم فابى الملك ان يعد يونان آسيامن رعاياه (نحو سنة ٤٤٩) . وهنا سؤال يورد في هذا الباب وهو كيف انتهت معاهدة اريستدس وهل كان على المدن المتحدة ان تؤدى القطائع على حين ليس عليها ان تقاتل بعد فابى بعضها ذلك حتى قبل انبأ طفت نار الحرب . وزعمت آثينة ان المدن كانت أخذت على نفسها العهد على الدهر فاضطرتها الى ان تؤدى ما يطلب اليها . حتى اذا وضعت الحرب

اوزارها لم تجدر خزانه ديولس فتيلاً ولذلك نقلها الآثينيون الى مدينتهم واستخدموها في
ابناء المصانع والمعاهد . ولطالما كانوا يقولون ان المتحدين يؤدرون ما يتقاضونه من الضرائب
للخلاص من ايدي الفرس فمن ثم لم يكن لهم ما يطالبون به بته ما دامت آثينة تدفع عنهم
عادية الخاقان الاعظم . وهذا مما غير حالة المتحاربين فصاروا ملزمين بدفع الضرائب لا آثينة
وما عثموا ان امسوا رعاياها فزادت آثينة في قدامهم واكرهت مواطنيهم على المتول امام المحاكم
الآثينية بل قد انفذت بطواريء من قبلها ليستعمروا جانباً من ارضهم وبهذا النظر اصبحت
آثينة ام القرى تحكم زهاء ثلثائة مدينة متفرقة في الجزر وشواطئ الارخبيل وتجي قطيعة
قدرها ستائة تالان في كل سنة .

الصنائع في بلاد اليونان

آثينة على عهد الامبراطور بيركليس

بيركليس -- كانت آثينة في منتصف القرن الخامس من اقدر المدن اليونانية يدير
امرها بيركليس احد ابناء الاسرات العظيمة وكان مقلداً من الكلام غير متبذل في شخصه ولم
يكن يتوقع في اعماله رضى الامة بل كان الآثينيون يحترمونه ولا يجرون الا على نصائحه
وهو معروف بانه تمكن من شؤون الادارة ومعرفة البلاد ولذلك دخوا تحت سيطرته وحكمه
فادار سياسة آثينة كلها اربعين سنة كما قال معاصره توسيديس المؤرخ : ان الحكومة
الديمقراطية كانت موجودة بالاسم بل كانت تلك الحكومة حكومة الوطني الاولى على التحقيق
آثينة ومصالحها -- كانت منازل القوم الخاصة في آثينة كما في معظم المدن اليونانية
ضيقة واطئة متراكمة بعضها على بعض يكون منها اربعة ضيقة منعطفة سيئة التبليط . وقد
جعل الآثينيون عظمتهم في معالم العامة . فنذا اخذوا يجربون من محال فيهم قطائع لتصرف في
سبيل الحروب كانوا ينفقون النفقات الطائلة في اقامة ابنية جميلة فعمروا في ساحة احد
الشوارع رواقاً مزيناً بالصور (الفيسيل) وانشوا في المدينة دارتمثيل ومعبداً اكراماً لتييزيس
احد انطالم واوديون معهد الشعر والموسيقى وذلك للمسابقة في هذا العلم . ولكن قامت اجمل
المباني على صخرة الاكروبول كأنها على قاعدة هائلة وهما معبدان (احدهما وهو البارثينون
جعل قربي للمعبودة آثينة حامية مدينة آثينة) والاخر هيكل ضخم من الفلز يمثل آثينة وسلم من
الآثار الجليلة يصل الى البروبيلي ورواق الرخام في آثينة . ومن ذاك العهد كانت آثينة
اجمل بلاد اليونانية وانصرها .

عظمة آثينة -- ومع ما خصت به آثينة من الصفات المشار اليها كانت ايضاً مدينة اهل
الصنائع فقد حشر اليها الشعراء والخطباء والمهندسون والمصورون والنقاشون وكان بعضهم

من اهل آثينة ووجهائها وجاءها البعض الآخر من اطراف ارض يونان يحملون الى تلك المدينة العظيمة نتائج صناعاتهم و طرف طرائفهم . لا جرم انه نبغ كثير من ارباب الصنائع اليونان لم يكونوا من اهل مدينة آثينة وذلك قبل القرن الخامس وبعده بكثير من الزمن ولكن قل ان اجتمع هذا القدر العظيم من ارباب الصنائع في مدينة واحدة ولقد كان معظم اليونانيين من اكيس ارباب انعارف في الصناعات وموادها بيد ان الاثينيين فاقوا غيرهم بحسن ذوقهم وصنع ايديهم وامتازوا بعقول مثقفة ورغبة في الطرف واثار الظرف واللفظ . ولئن جاء من ابناء يونان امة رقيقة القدر عالية المكانة في تاريخ الحضارة فذلك لانها امة تحسن ملكة الصناعات فلا جيوشهم القليلة ولا بلادهم الصغيرة الرقعة خدمت العالم والعمران خدمة اعظم من خدمة صناعاتهم لها . فاليك السبب الذي من اجله كان القرن الخامس اجمل عهد في تاريخ يونان والداعي الى ان جعل آثينة تستأثر بفضل الشهرة اكثر من غيرها من المدن اليونانية .

الآداب

الخطباء — امتازت آثينة اولاً ببلاغة خطبائها فكانت حقاً بلداً لادب وحسن الالقاء فباخطب في مجلس الامة يقرر اشهار الحروب وعقد السلم ووضعه القطائع والضرائب وكل الشؤون العظيمة وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا او يبرؤون وللخطباء السلطة وعلى الامة ان تعمل بتصاصحتهم ومواعظهم وربما عهدت اليهم بادارة شؤون المملكة فقد عين كليون قائداً ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب . وللخطباء نفوذٌ وكثيراً ما يلجؤون الى بلاغة القول للنيل من عدائهم في سياستهم وربما اغتبنوا لانهم يتلون ن ارباب الغايات ما يرضيهم من المال ليعضدوا احد الاحزاب . فقد اخذ اشيل مالا من كدونيا وقبض ديموستين دراهم من ملك الفرس .

ثم ان بعض الخطباء ينشئون خطباً ليلقيها غيرهم . ولا يدوغ لمن كانت له قضية ان يرفعها بواسطة محام كما هو الحال عندنا بل تقضي شريعة البلاد ان يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات . فمن ثم كان عليه ان يروح الى احد الخطباء يلتمس منه تأليف خطاب له يستظهره ليتلوه امام المحكمة . ولطالما جاب بعض الخطباء بلاد يونان وتكلموا في موضوعات توحيا اليهم الخيلة فاذا ما لم كما نقول مقامات وعقدوا اندية ومؤتمرات (١) وكان قدماء الخطباء يتكلمون بدون تصنع مقنصرين على ان يقصوا على المنابر الكوائن بدون ان يعمدوا الى اساليب خطابية فيقفون في المنبر لا حراك لهم دون ان يصحوا او يتحركوا وكان الملك

(١) اشتهر عشرة من هؤلاء الخطباء خاصة فدعوا خطباء اتيكيا العشرة

بيركليس يخطب خطبه على طريقة هادئة دون ان يحرك اهداب رداؤه وعند ما كان يقف في منبر الخطابة وقد تكلم رأسه حسب العادة بأوراق الشجريزيم الشعب انه يتخذ ربا من ارباب الاوليا ولكن الخطباء الذين جاؤا بعد ذلك طعموا في اثاره الامة وتحريك احساسها والنفوذ الى شعورها واصفحوها على الانشاء المتين يروحون في المنبر ويندبون منشدتين مفركين . وما عمت الامة ان اعتادت هذا الاسلوب في الفصاحة . ولما اخذ ديموستين يتكلم في منبر الخطابة للمرة الاولى طلق الحضور يقهقون ويضحكون من اسلوبه اذ لم يكن يحسن التلفظ ولا الوقوف ثم ما لبث ان مرن على الالتقاء واحسان الحركات المطلوبة حتى صار نديم الشعب وعزيره . دبت الايام ودرجت الليالي وديموستين خطيب في امته . وقد سئل بعد عن اول صفة في الخطيب فاجاب بانها العمل ثم سئل ثانية فقال العمل ثم سئل ثالثة فقال العمل . ومعنى العمل طريقة الالتقاء فانها كانت تهم اليونان اكثر من الخطبة .

الحكماء — كان منذ قرون عند يونان آسيا خاصة اناس يراقبون المادة ويفكرون في امرها لقبوا بالحكماء والعلماء في آن واحد وقد عُنىوا بالطبيعات والفلك والتاريخ الطبيعى اذ لم يكن العلم قد انفصل بعد عن الفلسفة وهكذا كان حال مشاهير الحكماء السبعة ببلاد يونان في القرن السابع .

السفسطائيون — جاء ناس على قرب عصر بيركليس الى آثينة فاتخذوا تعليم الحكمة صناعة واجتمع لهم كثير من التلاميذ انشؤا يتقاضونهم أجور الدروس التي يلقونها . وجعلوا ديدنهم الانكار على الدين والعادات واصول ادارة المدن اليونانية يوهمون انها غير مبنية على العقل . وبأخذون من ذلك ان المرء لا يعرف شيئا صحيحا (مما كان قريبا من الصواب في عهدهم) وليس في طاقته ان يعرف امرا صدقا كان او زورا قال احدهم : لا وجوب . لا مروتى وجد صعبت معرفته . ويدعى هؤلاء المعلمون للتشكيك بالسفسطائيين . وقد خص بعضهم بملكة الخطابة .

سقراط والفلاسفة — حاول سقراط احد شيوخ آثينة ان ينكر على السفسطائيين ويوقفهم عند حدهم على فقر حاله وبشاعة منظره ولكنة لسانه ولم تكن له دروس يلقها كاولئك السفسطائيين بل يكتفي بالرواح الى المدينة يخاطب من يصادفهم من جماعتهم بكثرة ويحملهم بكثرة الاسئلة على ان يفكروا فيما يتكر فيه بنفسه . وكان مجته مع الفتيان خاصة يعلمهم وينصح لهم . ولم يكن يظهر سقراط انه شدا شيئا من العلم بل كان يقول ان غاية علمي اني ادري بانني لا ادري . وود لو دعي فيلسوفا اي محبا للحكمة لا حكما كسائر تلك

الزمر . ولم يتدبر شيئاً من طبيعة الكون او مسألة من مسائل العالم بل كانت همه دراسة احوال الانسان . وكانت حكمته في قوله : اعرف نفسك . فكان من ثم مبشراً بالفضيلة . واذا انه كثيراً ما كان يخوض في الموضوعات الاخلاقية والدينية عدله الاثنيون فسفطائياً . وفي سنة ٣٩٩ مثل امام المحكمة متهماً بانه يتخاف من عبادة ارباب المدينة وانه يحاول ادخال ارباب جديدة اليها ويفسد على الشبان عقائدهم فلم يحاول ان يدافع عن نفسه بل حكم عليه بالموت وكانت سنة اذ ذاء سبعين سنة فانتصر له كسينوفون احد تلاميذه والف افلاطون من الفلاسفة محاورات اقام فيها سقراط زعيم اتخاورين فاعتبر من ذاك العهد ابناً للفلسفة اما افلاطون فقد كان صاحب مذهب معروف (٤٢٩ - ٣٤٨) وخلص ارسطو تلميذ افلاطون (٣٨٤ - ٣٢٢) علوم عصره كافة في كتبه وقد انقسم الفلاسفة الذين اتوا بعد المعلمين ارسطو وافلاطون قسمين دعيت شيعة افلاطون بالرواقيين وشيعة ارسطو بالمشائين (لان ارسطو كان يعلم وهو يروح ويقعد)

الموسيقيون -- كان من العادات القديمة ان يرقص القوم في الحفلات الدينية فيمر جمهور من الفتيان حول مذبح المعبود ثم يرجعون واقفين كلاشراف وقفة ذات معانٍ واشارات . اذ كان القدماء يرقصون باجسادهم كلها ويختلف رقصهم كثيراً عن رقصنا وهو ضرب من التطواف الخناسي واشبه برواية ذات ابناء وكان هذا الرقص الديني ابداً متفوعاً باغان تعظيماً للارباب ويسمى جمهور الراقصين والمنة بين جماعة الموسيقيين . والمدن كلها جماعة من الموسيقيين ومنهم ابناء اشرف العيال يعدون كذلك بعد ان يستعدوا زمناً . ومن فرط العناية ان يكون خدمة الرب جديرين بخدمته .

الروايات الفاجعات والمزليات كان يحتفل الفتيان في الارياض المجاورة لآبنة كل عام باقامة المراقص الدينية اكراما للرب ديونيزوس اله الكرم وكان بعض هذا الرقص متشاقلاً يمثل اعمال المعبود فيضرب رئيس جماعة الموسيقيين على وتر أغنية ديونيزوس ويصور جوقه رفاقه وهم اناس لم ارجل تيوس يسكنون الغابات ثم يأخذون في تمثيل عيش ارباب آخر وابطال قدماء . ثم خطر لاحدهم ان ينصب مصطبة يجي مثل بلعب عليها عند ما ينقطع جوق الموسيقى عن الضرب بانغامه . وهكذا تم المشهد ونقل الى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسي او مجتمع السوق فنشأت من ذلك الروايات الفاجعات .

اما الرقص الآخر فكان مضحكاً فينكر الراقصون وجوههم ويتغنون بمدائح الرب يونيزوس وقد شابوها باضاحيك يسلون بها الحضور او بتصورات هزلية في حوادث حدثت ذاك اليوم . وقد صنع في الجوق المزلي ما صنع في الجوق المنهج من ادخال ممثلين

ومحاورات ونقل المشهد الى آثينة وهكذا نشأت الروايات الهزلية (الكوميديا) من اجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل الى يوم الناس هذا ابطلاً أما الروايات الهزلية فتمثل حياة كل يوم واحتفظت الفاجعات (المأساة) والهزليات ببعض اصلها وظلت تمثل امام هيكل الرب وان تكن فاجعة ولئن غدا الممثلون وهم جلوس على المصطبة اصحاب موقع في المشهد فقد ظل جوق التمثيل يرقص ويتغنى وهو يطوف حول المذبح وكان جماعة الموسيقيين في الروايات الهزلية كما كان يجي المنكرون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة .

الملاهي — جعل في منحدر قلعة الاكروبول ملعب للرب ديونيزوس اله انكرمة يسع ثلاثين الف منفرج وذلك ليحضر الآثينيون كافة هذه المشاهد . وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوقاً تحت السماء وموئلاً من دريجات من الحجر مصفوفة علم شكل نصف دائرة بازاء جماعة الموسيقي حيث كان يطوف المنشدون وامام المشهد الذي تمثل فيه الرواية . ولا تقام المشاهد فيه الا في اوقات اعياد الارباب بيد ان المشاهد كانت تدوم اذ ذاك عدة ايام متوالية يبدأون في الصباح عند بزوغ الغزاة ويمثلون للحال ثلاث فاجعات وقصة هجوية تنتهي على ضوء المشاعل من الليل والفاجعات الثلاث يؤلفها واحد وتمثل فاجعات اخرى في الايام التالية وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء والامة تعطيهم جوائز الاستحسان واشهر هؤلاء المتبارين اشيل وسوفلس واربيدس . وقد عهدت المسابقة ايضاً بين مؤلفي الروايات الهزلية ولم يؤثر من كل ما الفوه من الروايات غير قطعة واحدة الفها ارستوفان الشاعر الهزلي .

الصنائع اليونانية

المعابد اليونانية — قامت اجمل المباني في اليونان تعظيماً للارباب فتمت ذكرت هندسة اليونان فلا يذهب الفكر الا الى معابدهم . وليس المعبد اليوناني كالبيعة النصرانية خاصاً بقبول المؤمنين الذين يهرعون اليه الصلاة فيها بل هو قصر ينزله الرب وتمثاله يمثل قصر تحفه الالهة والجلالة ولا يلجهم جمهور المؤمنين بل يظلمون خارجه حوالى مذبح تحت السماء وقد قامت مقصورة الرب في وسط المعبد وهو مزار سري لا نافذة له ولا ضوء ينفذ اليه الا ما كان من كوى في الاعالي . وقام الصنم في داخله معمولاً من خشب اورخام او عاج لابساً ذهباً محلى بالثياب والحلي وكثيراً ما يكون هيكل عظيم . وقد مثل زيوس في معبد الاولمبيا قاعداً وبكاد يصل رأسه الى القمة ولذا قيل ان الرب لو تمثل قائماً لخرق السقف وقد حجب هذا المزار عن الانظار من كل ناحية وهو عبارة عن مستودع ذخائر الصنم ويمتاز من يروم دخوله ضرباً من الرواق موئلاً من صفوف من السواري . ووراء الغرفة غرفة

عشرة صفوف وكانت جيوشهم في كل مكان في تمبثتها نطاً واحداً تولف مثلثاً ذا زاوية قائمة مستطيلة ورقيقة فكانوا اذا حمل جندهم على العدو يشعرون بان تروسمهم المعلقة على اذرعهم الشمال تحميهم من اليسار ومن اليمين صفوف رفاقهم يحمون المينة بالطبع بحيث ان الجناح الايمن من الكتيبة يشعر بانه اقوى ما يكون في العادة . فتخيل ايابمينوداس ان يعي رجاله على شكل زاوية قائمة مؤلفة على طولها من صفوف متساوية في عددها بل ان يضع في الجناح الايسر صفوفًا اكثر من الايمن فنأخذ الكتيبة شكلاً غير متناسب يشبه شكل زاوية قائمة . فيكون الجناح الايسر اضعف من الايمن ومؤلفاً من احسن المحاربين يحمل حملة منكرة على جناح العدو الذي يكون اضعف منه فينكس وسط جيش العدو ويأخذه من جنبه فدافع الثيبون عن بلادهم باديء بدء من الجيش الاسبارطي الذي بقي يداهم ييوسيا في ربيع كل سنة اعواماً كثيرة ويقطع الشجر ويحرق الغلات ولم يجسر ان يقاتل قتالاً منظماً بل كانت غاراته مناوشات فقويت شكيتهم وتمرسوا في الحرب . رأى ايابمينوداس ان جيشه قد اعتاد قراع الابطال وقوي ساعده في حومة النزال وكانت الرجالة من جند الاسبارطيين اصطفت على عمق اثني عشر مقاتلاً بالقرب من لوكترس وكانت رجالة الثيبين اقل وفرسالهم اكثر » لان ييوسيا كانت بلاداً تربي فيها الخيول الجياد » فاستطاع ايابمينوداس ان يحمي الميسرة وكان من ذلك ان اختصر خط الحرب وحمل الجناح الايسر من جيشه وكان مؤلفاً من خمسين صفاً فبدد شمل الجناح الايمن من الاسبارطيين حيث كان الملك واقفاً فقتل « ٣٧١ » ، وهذه كانت المرة الاولى التي تغلب فيها جيش يوناني على جيش اسبارطي واصبحت ثيبة المدينة المقدسة اكثر من جميع مدن يونان وصارت لما الامرة على ييوسيا كلها وكانت الشعوب اليونانية في المورة الى ذاك العهد خاضعة لاسبارطة فالتفت معونة الثيبين لئيل استقلالها . فانشأت مدينة ماتييه في بلاد اركاديا اسوارها على الرغم من دفاع اسبارطة ودبحت نيجة الاغنياء احلاف اسبارطة وكان الاركاديون من سكان الجنوب مشتتين الى ذاك العهد في القرى فانضموا بعضهم الى بعض وانشؤا مدينة حصينة سموها ميكالوبوليس ثم اراد ايابمينوداس جمهور الثيبين على ان يذهبوا الى غزو الاسبارطيين في عقر دارهم فدخل الجيش البيوسي الى بلاد المورة وكثر سواده بالاركاديين واهالي ارغوس وتوغل في اقليم لاكونيا وطفق يعسكر امام اسبارطة « ٣٧٠ » وكانت هذه هي المرة الاولى التي رأى فيها الاسبارطيون العدو في ارضهم . ولم يكن لاسبارطة اسوار فلح اجازيلاً « وكان قد بلغ اذ ذاك من العمر ٧٦ سنة » جماعة الميولتين وحصن الآكام المحيطة بالمدينة .

ولم يحسر ايبامينوداس على الهجوم واذ كان عاجزاً عن اطعام جيشه في البلاد التي استباح حماها وجعل عاليها سافلها رجع ادراجيه وقبل ان يغادر المورة جمع المسينين وقد اصبحوا منذ ثلاثة قرون رعايا الاسبارطيين واعانهم على انشاء مدينة قوية سميت ميسين وعادوا يلون شعثهم . وتحالفت اسبارطة مع الآثينيين الذين كانوا يحسدون الثيبينين كما حالفوا اهل سيرا كوزة ومع الجبارديس الذي بعث اليها بالمحاربين الغاليين فغلب الاركاديون احلاف ثيبة . وعندها حاولت ثيبة ان تنال معونة ملك الفرس وارسل القائد ييلويداس الى آسيا وآب يحمل كتاباً من الخاقان الاعظم الذي وعد ان يحارب اليونان الذين لا يقبلون بمخالفة ثيبة «٣٦٧» اما سائر المدن فلم تكن تخشى ملك الفرس وابتنى ان تخضع له . ولم تكن ثيبة من القوة لتخضع الى سلطانها جميع بلاد اليونان فظهر ايبامينوداس على احسن حال في بلاد المورة مع الجيش البيوسي وحالف المسينين ثانية وحاول ان يدام اسبارطة واذ بلغ ذلك اجازيلاً كرّ راجعاً وراح ايبامينوداس يهجم على جيش العدو في اركاديا بالقرب من مدينة ماتينه وظفر في هذه المعركة بالتخاذه الاسباب التي اتخذها في لوكترس ولكن اصابه سهم فمات ليومه . وفقد الثيبيون به قائداً يقودهم وانتهت ايام عز ثيبة ولم يبق مما قام به القائد ايبامينوداس الا مدينة ميسينا التي اصبحت مملكة مستقلة وسقط سلطان اسبارطة من بلاد المورة كما سقط من بلاد اليونان .

نتائج الحروب — لم تؤد هذه الحروب الى تأليف اليونانيين كافة امة واحدة اذ لم يكن لمدينة من مدنها لا اسبارطة ولا آثينة من القوة ما تنكره به سائر المدن على الطاعة لها والخضوع لسلطانها وما كان منهم الا ان ينهاك بعضهم قوى بعض ويكافح بعضهم بعضاً وكان ذلك من حظ ملك الفرس الذي استفاد من هذا الانقسام ولم تبلغ الحال بالمدن اليونانية انها لم تتفق عليه بل انها كانت كل واحدة على حدتها تحالفة للانتقام من سائر ابناء يونان وقد صرح الخاقان الاعظم (٣٨٧) في معاهدة انتالسيديس بان جميع المدن اليونانية في آسيا هي ملك له ولم تحالف اسبارطة قوله ذلك ولا تقضت زعمه وكذلك كان شأن آثينة وثيبة بعد بضع سنين فقد قال خطيب آثيني : « ان ملك الفرس هو الذي يحكم بلاد اليونان ولم يبق عليه الا ان يقيم له عمالاً في مدنها . اليس يده الحل والعقد في بلادنا ؟ اما نحن فندعوه الخاقان الاعظم كما لو كنا عبيده ؟ » وهكذا اضاع اليونان بتفاشلهم وتدابرهم ما كانوا غنموه في حرب مادي .

عظمة مكدونية

فيليب — الاسكندر — فتح آسيا

انهكت الحروب المتصلة مدة قرن بين اسبارطة وآثينة قوى تينك المملكتين فتركنا قنال ملك الفرس الا ان شعباً جديداً وهم المكدونيون عاودوا قتاله حتى نالوا منه وكانوا على خشونتهم وقسوتهم اشبه بقدماء الاوروبيين شعباً مؤلفاً من رعاة وجند . ولقد سكنوا شمال بلاد يونان في واديين عظيمين مطلين على البحر . ولما كان اليونانيون يحلوهم محل الاعتبار بل ينظرون اليهم نظراً ثانوياً كما ينظرون للبرابرة واذ كان المكدونيون يدعون انهم من نسل هيراكليس سمح لهم اليونان بان يركضوا خيولهم في سباق الالعب الاولمبية وبذلك اعترف بهم ضمناً بانهم من ابناء يونان .

فيليب — قلما كان هؤلاء الملوك النازلون في بلاد الداخلية بعيدين عن البحر يشتركون في حروب اليونان . وفي سنة ٣٦٠ تسنم اريكة العرش المكدونى شاب نشيط شجاع طموح ونعني به الملك فيليب فطمحت به نفسه الى القيام بثلاثة امور .

(١) ان ينشيء جيشاً قوياً

(٢) ان ينشيء جميع الموافى على شاطيء مكدونية

(٣) ان يكره سائر اليونان على الانصواء تحت لوائه لقنال الفرس

فصرف في هذا الشأن اربعمائة وعشرين سنة ونجح فيما قصد له . واستسلم اليونان اليه بل واعانه كثير منهم واتخذ له انصاراً يبذل المال في جميع المدن يحسنون الظن فيه ويمتدحونه قال : « ما من قلعة يتعذر الاستيلاء عليها اذا استطاع المرء ان يدخل اليها بغلاً مثقلاً بالذهب » وهكذا استولى على جميع مدن شمالي اليونانية واحدة بعد اخرى .

ولقد كان الخضم اللدود لفيليب الخطيب ديموستين وهو ابن صانع الملحمة تيتيم في السابعة من عمره واختلس اوصياؤه جزءاً من ماله ولا بلغ اشده اقام عليهم قضية واكرههم على ان يعيدوا اليه ما اختلسوه منه وكان درس خطب ايزيه واستظهر تاريخ توسيدديد بيد انه عند ما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالقهقهة اذ كان صوته ضعيفاً جداً ونفسه قصيراً فنوثر عدة سنين على ترويض صوته . ويروى انه كان ينقطع شهوراً طويلاً ونفغ رأسه معلوق لثلاً يحاول الخروج ويلقي خطاباً وفي فمه حصا وهو على شاطيء البحر ليرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس ولما رجع الى المنبر كان قد اخضع صوته لارادته واذ كان يحافظ كل المحافظة على اعداد جميع خطبه قبل القاها غدا ارقى خطيب واعظم مفوه في بلاد اليونان . وكان الحزب الذي يرجع اليه امر آثينة على ذلك العهد بزعامه فوسيون يطمح في السلم اذ لم

يكن لا آئنة جند كاف ولا مال وافر لا يقاف ملك مكدونية عنده فكان فوسيون يقول سأسير عليكم بالحرب متى صرتم بحيث تستطيعون القيام باعبائها . وكان ديموستين على العكس يحقن فيليب ويراه كأنه من المتوحشين فطوع في خدمة الحزب الذي يطلب محاربتة واستخدم ما فيه من فصاحة لاجراج الآثينيين من سياسة المسالة ولم يدخر وسعاً مدة خمس عشرة سنة في تحريرهم على ذلك .

وانك لتجد موضوع كثير من خطب ديموستين الحملة على الملك فيليب وكان يسميها الفليبية . قال في خطابه الاول سنة ٣٥٢ : متى تقومون ايها الآثينيون بواجباتكم ؟ اتريدون ان تسرحوا وتروحوا في الساحات وبعضكم يسأل بعضاً بقوله : ما وراءك من الاخبار ؟ اما انا فاقول لكم ليس من جديد الا اننا نشاهد مكدونياً يتغلب على آئنة ويستولي على ارض يونان ؟ اقول لكم انه من الواجب تسليح خمسين سفينة وان تعقدوا العزم ان تركبوها بالذات عند ميسس الحاجة . جنبوا مسمعي حديث جيش مؤلف من عشرة او عشرين الفا من الاجانب ولا حقيقه له الا على الورق فاني لا اريد الاجنوداً من الوطن متطوعين في خدمته .

وقال ديموستين في الفيليبيات الثالثة سنة ٣٤١ بذكر الآثينيين بما حازه فيليب من الظفر عليهم لغفلتهم وقلة حركتهم : « كان اليونان قديماً عند ما يسيئون استعمال سلطتهم ابطلوا غيرهم تقوم بلادهم كلها على ساق وقدم لمنع هذا الظلم ونحن اليوم نقاسي مانقاسي من مكدوني حقيير متوحش من اصل ملعون فيخرب المدن اليونانية ويحفل بالالاب البيتية (١) او يأمر خدمه بالاحتفال بها وهذا ما ينظر اليه اليوناني بدون ان يأتي امرأ كما ينظر الى البرد يتساقط وهو يضرع بان لا يصيبه . والسلطة تعظم بدون ان يخطو احد خطوة لا يقاها . وكل ينظر من عهد اليه في تمزيق شمل غيره كما لو كان يعد ذلك رجحاً في وقته بدلاً من ان يفكر ويعمل اسلامة اليونان عند ما يعرف الناس ان المصيبة ستنازل البعدين » . ولما استولى فيليب على الآثية في مدخل بيوسيا (٣٣٩) ازعم الآثينيون بما نصح لهم به ديموستين ان يشهروا الحرب وبعثوا بوفود الى ثيبة وذهب ديموستين زعيماً للوفد ولقي في ثيبة وفداً جاءه من قبل فيليب فتردد الثيبويين وارادهم ديموستين على ان يتناسوا جميع احقادهم القديمة وان لا يفكروا في غير سلامة الوطن اليوناني وفي الدفاع عن الشرف والحريه فعزموا بمساعيه ان يقدموا مخالفة مع آئنة وان يظلوا على المقاومة والحرب .

وبعد سنة (٣٣٨) نشبت الحرب في شيرونية من اعمال بيوسيا وكان عمر ديموستين اذ ذاك ثمانياً واربعين سنة فخدم في الجيش جندياً بسيطاً واذا كان جيش الآثينيين

(١) هذه الالاب كانت تقام كل اربع سنين كالالاب الاولمبية في مدينة دلفيس اكراماً لابلون البيت

والثيبين قد دعي الى حمل السلاح بسرعة لم يعادل جند فيليب المدرين ولذلك كانت الهزيمة من حظ الجيش الاول .

الاستيلاء المكدوني — واذا ظفر فيليب اقام حامية في ثيبة وصالح آثينة ثم دخل الى ارض المورة فاستقبله اهلها كأنه المحسن الى الشعوب التي ظالما اضطهدتها اسبارطة ومن ذاك العهد لم يصادف اقل مقاومة فجاء الى كورنت (٣٣٧) وجمع فيها مندوبي جميع المدن اليونانية (ما خلا الاسبارطيين فانهم لم يبعثوا مندوبين قط) وعرض عليهم مشروعه وهو ان يتولى زعامة جيش يوناني لغزو فارس فاستحسن المندوبون رأيه وعقدت محالفة عامة بين المدن اليونانية كافة وذلك على ان تحكم كل مدينة نفسها بنفسها وتعيش بسلام مع غيرها وأنشيء مجلس لتلك الوحدة لمنع الحروب والفتن الاهلية والقتال والتمرد وهذه الوحدة كان من شأنها الاتحاد مع ملك مكدونيا والاقرار له بالزعامة على جميع الجنود والسفن اليونانية وحظر على كل يوناني ان يحارب فيليب واذا فعل تضرب عنقه بدون محاكمة .

الاسكندر --- خلق فيليب ملك مكدونية سنة ٣٣٤ وكان ابنه الاسكندر اذ ذاك ابن عشرين سنة وكان مثل جميع اليونان من ابناء البيوت الشريفة ماهراً في الالعاب الرياضية شديد القوى في الكفاح يحسن ركوب الصافنات الجياد (وهو الذي استطاع وحده ان يكبح جماح حصانه بوسيفال في الحرب) وكان زيادة على ذلك عارفاً بالسياسة . من البيان يعلم التاريخ الطبيعي وكان استاذة من سن الثالثة عشرة الى السابعة عشرة الفيلسوف ارسطو اعظم عالم في اليونان فكان يتلو الاياداة بشوق ويدعوها دليل في الحرب ويريد ان يتشبه بالابطال الذين ورد ذكرهم فيها . فكانه خلق ليكون فاتحاً لانه معزم بالقتال . ولع بحب الشهرة وكان ابوه يقول له « ان مكدونية ضيقة النطاق فلا تسلك »

الجحافل المكدونية -- ترك فيليب لابنه الاسكندر اداة من اذوات الفتح ونعمي بها الجيش المكدوني وهو احسن جيش عهد في بلاد اليونان يؤلف جيش المائة وجيش الفرسان فكان الجحفل المكدوني مؤلفاً من ١٦ الفا من الرجال مضافين ألفاً ألفاً ستة عشر صفاً ويحمل كل واحد منهم رمحا طوله ستة امتار وكان المكدونيون في ساحه الوعى بدلا من ان يسيروا الى العدو كما هم من جهة واحدة يقفون لا حراك لهم . فيضربون برماحهم العدو من كل صوب وكان جنود المؤخرة يرفعون رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى بحيث كان ذاك الجيش يشبه حيواناً عظيماً وقد انتصب وعليه اخدب والعدو يداهم فيتحطم . وكنت ترى الاسكندر يينا كان الجيش في ساحه الحرب يوقع بالعدو وهو في مقدمة فرسانه وكانت هذه الكتيبة من الفرسان مؤلفة من خيار الفتيان الاشراف .

فتح آسيا - سافر الاسكندر في ربيع سنة ٣٣٤ في ثلاثين الف رجل (معظم من المكدونيين) وفي ٤٥٠٠ فارس لا يحمل معه غير ٧٠ تالوناً من المال (اقل من ابائة الف فرنك) وذخيرة تكفي هذا الجيش الفصح اربعين يوماً . ولم يكن عليه ان يقاتل ذاك الفوجاء من الشعوب التي لا سلاح لها وقد سخرها كخسرو الفارسي لامره فقط بل كان امامه خمسون الفاً من اليونان المجندين في خدمة الخاقان الاعظم تحت قيادة قائد حاذق يدعى ممنون الرودي فقد كان في مكنة هؤلاء اليونان ان يصدوا المكدونيين عن العبور ولكن صادف ان مات ممنون وتشتت جيشه شذر مذر ففخلص الاسكندر من خصمه الوحيد العنيد وفتح المملكة الفارسية في سنتين . وذلك بعد ان ظفر في ثلاث مواقع فبدد في آسيا الصغرى الجيوش الفارسية الرابطة وراء نهر غرانيك (في مايو ٣٣٣) وهزم الاسكندر داريوس ملك فارس وجيشه الذي يقال انه كان مؤلفاً من ستين الفاً في مضائق سيليسيا في ايسوس (نوفمبر ٣٣٢) وشتت في اربل بالقرب من دجلة جيشاً اكثر عدداً (٣٣١) .

فكانت هذه الغلبات مثلاً من الحروب المادية للجيش الفارسي لا سلاح له ولا يحسن الرماية وهو مشوش بنفسه في اخلاط من الجند والاجراء والاثقال وكانت الجنود المختارة وحدها هي التي تقاتل والباقي يشتت ويقتل ولم يكن الفتح في غضون الحرب الا تزهة يكتب فيها الظفر وهذا الفاتح لا يجد امامه مقاومة (١) وماذا بهم شعوب المملكة ان يخضعوا لداريوس او للاسكندر ؟ وكل غلبة يحرزها الاسكندر كان يفتح بها مملكة برأسها فوقعة الغرائيك استولى فيها على آسيا الصغرى ومعركة ايسوس افتتح فيها سورية ومصر ومعركة اربل بقية البلاد .

ولما صار الاسكندر الحاكم المتحكم في المملكة الفارسية اعتبر نفسه وارثاً لخاله فان الاعظم صاحب فارس فلبس اللباس الفارسي واستعمل عادات البلاط الفارسي في الاحتفالات الرسمية واكره قواده ان يركعوا امامه على السنة الفارسية وتزوج بامرأة من بنات الفرس وزوج ثمانين من ضباطه من ثمانين فتاة من بنات اشرافهم واراد ان يوسع مملكته الى اقصى الحدود كما فعل الملوك القدماء وتقدم فاتحاً نحو الهند وهو يقاتل القبائل المحاربة ولما عاد في جيشه الى بابل (٣٢٤) هلك بالحمى في بضعة أيام في الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢١) مقصد الاسكندر - من المتعذر جداً ان نعرف ما كان يقصد الاسكندر . هل كان يفتح حباً بالفتح ؟ او انه كان له مقصد آخر ؟ وهل كان يريد ان يجعل جميع تلك الشعوب شعباً واحداً ومملكة واحدة ؟ هل اتخذ المناحي الفارسية ليكون مثلاً لغيره ؟ او انه قلد

الخالقان الاعظم صلحاء وعاجباً ؟ اننا لم نقف على نيانه الا ان اعماله كانت لما نتائج عظيمة
ولقد أسس سبعين مدينة وعدة مدائن في مصر كالاسكندرية وفي بلاد النهر حتى
بلاد الهند ووزع على رعاياه الكنوز التي وجدها في خزائن الخالقان الاعظم وكانت مطروحة
فيها لا يتنفع بها واخذ معه علماء يونانيين لدرس نباتات آسيا وحيواناتها وجغرافيتها وهيا
الملكات في الشعوب الآسيوية الى تعلم لغة اليونان والتخلي باخلاقيهم ولذلك اطلق على
الاسكندر لقب الكبير

تأسيس الممالك اليونانية

الاسكندرية — المتحف — ممالك آسيا — التمدن اليوناني في الشرق
خراب مملكة الاسكندرية — جمع الاسكندر تحت علم واحد جميع بلاد العالم القديم
من بحر الادرياتيكي الى نهر الاندوس ومن مصر الى القافقاس . ولم يدم هذا الملك العظيم
الا بدوامه فلما هلك اختلف قواده فيمن يولى الملك بعده وحارب بعضهم بعضاً مدة عشرين
سنة واتخذوا باديء بدء حجة لحروبهم بانهم يتقاتلون لمعاوضة احد أسرة الاسكندر كاخيه
وابنه وامه واخوته او احدى زوجاته ثم ثقاتلوا علناً بأسمائهم وتوطيداً لدعائم الملك لسلطانهم
فكان لكل واحد منهم جزء من الجيش المكدر في او جنود يونان مأجورون فكان اليونانيون
يتقاتلون فيمن يستأثر بآسيا ويحكم عليها والناس ينظرون اليهم غير محتفلين بما باتون كما لو كان
اليونان يقاتلون الفرس اعداءهم

ولما وضعت الحرب اوزارها لم يبق الا ثلاثة قواد وقد هيا له كل منهم مملكة واسعة
مما خلفه الاسكندر فحكم بطليموس مصر وسلوقس سورية وليزيماك مكدونيه وكانت انفصلت
بعض الممالك الصغرى او اخذت بالانفصال عنها مثل ابيرو في اوروبا ومثل يون وبيتيي
وغالاسيا وكبادوس وبرغام في آسيا ومثل مقاطعتي باكتريان وبارسيا من بلاد الفرس
وبذلك تم تقسيم مملكة الاسكندر

التمدن اليوناني في الشرق — كان الملك من ابناء اليونان في هذه الممالك الجديدة وقد
اعتاد ان يتكلم باليونانية ويتعبد بالارباب اليونان ويعيش عيش اليونان ويحافظ على لغته
ودينه وعاداته . رعاياه من الآسيويين أي من البرابرة وهو يحاول ان يجعل له حاشية من
جنسه ويجنّد جنوده من ابناء يونان بالاجرة ويخذ موظفين يونان لادارة البلاد ويجلب
الى عاصمته شعراء وعلماء وارباب فنون من اليونانيين

وكان في البلاد على عهد ملوك الفرس كثير من اليونان والطواريء والتجار ولا سيما
من الاجناد فاكثر ملوك اليونان من جلبهم وانتشروا في جميع اطراف آسيا وكثر سوادهم

حتى انتهت الحال بالوطنيين ان يلبسوا اللباس اليوناني ويتخلوا الديانة اليونانية والاخلاق اليونانية بل واللغة اليونانية ولم يعد الشرق آسيائيا بل اصبح يونانيا حتى ان الرومانيين لم يجدوا في آسيا في القرن الاول الاشعوبا يشبهون اليونان ويتكلمون باللغة اليونانية باسمهم (١) الاسكندرية — لقب ملوك اليونان في مصر وهم خلفاء بطليموس بلقب الفراعنة على نحو ما كان بلقب ملوكها الاقدمون ولبسوا التاج ودعوا الناس الى عبادتهم باسم ابناء الشمس ولكنهم كانوا محاطين باليونانيين واقاموا عاصمتهم على شاطئ البحر في مدينة يونانية وهي الاسكندرية . تلك المدينة الجديدة التي انشئت بأمر الاسكندر

بنيت الاسكندرية على سطح مستو فكانت ذات نظام اكثر من غيرها من المدن اليونانية وكانت الشوارع تنقسم الى زاوية قائمة ويشقها من وسطها الشارع الاعظم وعرضه ثلاثون مترا وطوله ستة كيلومترات وعلى جانبيها ابنية عظيمة مثل بناء استاد حيث كانت تقام الالعاب العامة والجمناز والمتحف والارسينوم

• وكان المرفأ مؤلفا من سد طوله الف وثلاثمائة متر يصل بين اليابسة وجزيرة فاروس وفي طرف هذه الجزيرة أقيم برج من الرخام جعل في قفته مكان ينبعث منه ضوء على الدوام لتسير به السفن التي تريد دخول المرفأ ومن هناك جاء اسم المنارة . فقامت الاسكندرية مقام المدن الفينيقية وغدت المينا العظمى للتجارة في العالم بأسره .

• المتحف . كان المتحف بناء عظيم من الرخام متصلاً بقصر الملك وقد اراد ملوك مصر ان يجعلوه معهدا علميا عظيما . وفيه مكتبة عظيمة (٢) وكان لرئيس القوام عليها ان يبتاع جميع ما يتسنى له النفر به من الكتب فكل كتاب يدخل مصر يحمل الى المكتبة والنساخ ينقلون المخطوطات ويرجعون نسخة لصاحبها مع التعويض عليه واتصلت الحال بان جمع على هذا النحو عدد من المجلدات لم يسمع بثلثه (وهو اربعائة الف مجلد كما قيل) وكانت الكتب المخطوطة لكبار المؤلفين الى ذلك العهد مبعثرة مشتتة وعرضة لخطر الضياع فاصبحت يعرف لها مقر يرجع اليه .

وكان في المتحف ايضا حديقة للنبات والحيوان ومرصد فلكي وقاعة للتشريح اقيمت على الرغم من اوهام المصريين كما أقيم معمل كيمائي (كان الملك بطليموس فيلادلف يخشى كثيرا

(١) كتبت الاناجيل واعمال الرسل في آسيا الصغرى باللغة اليونانية

(٢) حرق مكتبة المتحف في خلال حصار قيصر لمدينة الاسكندرية ولكن كان لها فرج جعل في السرايوم وفيه على ما يقال ثلثائة الف مجلد . وقيل ان هذه المكتبة الثانية حرقها المسلمون في القرن السابع ولكن الظاهر انها فقدت من قبل (قاله المؤلف)

من الموت ففضى بضع سنين في البحث عن اكسير لاطالة الحياة) وكان في المتحف العسكري مساكن للعلماء والرياضيين والفلكيين والاطباء والفخريين ويقدم لهم غذاؤهم على نفقة الحكومة وكثيراً ما كان الملك يتناول الطعام معهم دليلاً على احترامه لهم وكانوا يقضون اوقاتهم في المحاوراة والمطالعة ويحيي الناس من جميع بلاد يونان ليستمعوا لما يلقون وكان الشباب يبعث بهم آباؤهم الى الاسكندرية ليتعلموا . ويقال انه كان فيها نحو ١٠ الفاً من الطلاب .

ومن ثم كان المتحف مكتبة ومجمعاً علمياً ومدرسة في آن واحد فهو اشبه بمدرسة جامعة وهذا الوضع الذي هو عام بيننا مألوف كان على ذلك العهد من الاوضاع الجديدة التي لم يسبق لها نظير . واقد اصبحت الاسكندرية بفضل متحفها مقصد جميع المشاركة من يونان ومصريين واسرائيليين وسوريين يحمل اليها كل منهم دينه وفلسفته وعلمه ويحتنط بعضهم ببعض ففدت الاسكندرية اذ ذاك وظلت قروناً كثيرة عاصمة العلم والفلسفة في العالم برغامة — كانت برغامة في آسيا الوسطى من الممالك الصغرى ولم تعد لها سطوة بيدان عاصمتها برغامة كانت كالاسكندرية مدينة ارباب الصنائع والادب وانتاً نقاشو برغامة في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة مشهورة (١)

وقد ملكت برغامة كما ملكت الاسكندرية مكتبة كبرى جمع اليها الملك اتال الكتب المخطوطة لقدماء المؤلفين وفي برغامة اخترعت الكتابة على الجلود للاستعاضة عن ورق البردي وكان هذا الورق الجديد ورق برغامة هو الرق الذي حفظت به المخطوطات القديمة

الحروب الاخيرة في يونان

العصابات — الفتح

الحروب الاهلية — كانت بأبدي بضع أسرات غنية من اليونانيين في جميع المدن اليونانية على التقريب جميع الاعمال والمعامل الصناعية والسفن التجارية وعامة مصادر الرخ وموارد العيش اما سائر الاسرت اي السواد الاعظم (٢) فلم يكن لهم ارض ولا مال

(١) اتصل بنا بعض التماثيل التي استصنعها الملك اتال ذكرى لانتصاره على الغاليين

في آسيا المعرفين بالفلاسيين

(٢) لم يكن في جميع المدن اليونانية تقريباً طبقة وسطى تشبه الطبقة الوسطى في اوروبا وبذلك كانت تعد آثينة بما فيها من ١٣ الفاً من ارباب الاملاك من الشواذ النادرة وكانت من المدن التي قلت فيها الثورات

وماذا كان الوطني الفقير يعمل له ليكسب رزقه ؟ لم يكن له الا ان يؤجر نفسه زراعاً او عاملاً او ملاحاً . بيد ان عبيد ارباب الثروة في مصانعهم ومعاملهم وسفنهم كانوا يقومون بهذه الاعمال ولا يكفون للاتفاق عليهم غير شيء زهيد بالنسبة للنفقات التي كان على السادة ان ينفقوها اذا استخدموا الاحرار في اعمالهم لانهم كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً غليظاً ولا يؤمن اليهم اجوراً . ثم انه من الصعب على الفقير ان يعمل لحسابه لندرة الدراهم ولم تكن الفائدة اقل من عشرة في المئة وهيئات ان يقرضه انسان ما يعوزه

على ان العادة لم تكن تسمح للوطني ان يتعاطى الصنائع لان الفلاسفة كانوا يقولون بانها تفسد الجسم وتضعف النفس ولا تترك في وقت صاحبها متسعاً للنظر في الشؤون العامة ولذلك قال ارسطو ان المدينة الحسنة النظام لا يجب عليها ان تعد الصانع فيها وطنياً . فكانت من الوطنيين في يونان طبقة شريفة ترى كما كان يرى الاشرف في فرنسا قديماً ان لها الحق ان تحكم وتحارب وفي ذلك شرفها اما تعاطيها الاعمال بايديها فيعد لنازلاً واتضاعاً ومن اجل هذا حالف البؤس معظم الوطنيين بما كانوا عرضة له من منافسة العبيد في اعمال الحياة وما وقر في نفوسهم من شروط الشرف والنباهة لحكم الفقراء المدن ولم تكن اسباب عيشهم متوفرة وخطر لم ان يسلبوا الاغنياء فألف هؤلاء شركاء منهم لمقاومة اولئك وعند ذلك انقسمت كل مملكة يونانية الى قسمين الاغنياء ويدعون « الاقلية » والفقراء ويدعون « الاكثرية » او الشعب . وبدأ الاغنياء والفقراء يتباغضون ويتقاتلون فاذا صار الحكم للاغنياء يطردون الاغنياء ويصادرون اموالهم وربما اتخذوا واسطتين بالتفتين في التطرف وهما الغاء الديون ونقسيم الاراضي من جديد . فاذا عادت السلطة للاغنياء يطردون الفقراء وتأنوا يتعاهدون بينهم في كثير من المدن قائلين : « اقسم بافي اخلد ابداً معادياً للشعب واؤذيه ما استطعت » ولم يكن ثمة من سبيل الى التوفيق بين الفريقين فلا الاغنياء يستطيعون ان يستسلموا للتخلي عن ثروتهم ولا الفقراء يرضون بان يموتوا جوعاً . قال ارسطو « ان الثورات تنشأ من سبب تقسيم الثروات » . ويقول بوليب « ان كل حرب اهلية تنشأ فهي لنقل الثروات من يد الى اخرى » .

ومن ثم كان الفريقان يقتتلان اشد قتال على نحو ما يحدث ابداً بين الجيران فنغلب الفقراء باديء بدء في ميلت واكرهوا الاغنياء على الحرب من المدينة ثم اسفوا لانهم لم يذبحوهم فاخذوا اولادهم وجمعوهم في الانابير تحت ارجل البقر ودخل الاغنياء المدينة فاصبحوا اصحابها الحاكين فيها واخذوا هم ايضاً ابناء الفقراء وزفونهم (دهنوم بالزفت) واحرقوهم احياء .

الحكم الجمهوري والحكم الافرادي — كان لكل من الاغنياء والفقراء شكل خاص في الاحكام يجرونها في المدينة عند ما يقوى احد الفريقين . فكانت حكومة الاغنياء من نوع الحكم الافرادي (اوليكارشي) تعهد بالاحكام الى بعض افرادها اما حكم الفقراء فكان حكمهم ديمقراطياً يكلون حكمهم الى مجلس الامة وكل واحد من الفريقين ينفق مع الفريق المائل له في المدن الاخرى وبذلك تألفت عصابتان تقاسمتا بينهما جميع المدن اليونانية : عصابة الاغنياء او الحكم الافرادي وعصابة الفقراء او الحكم الجمهوري . وبدأت هذه الطريقة في الحكم خلال حرب المورة فكانت آثينة تعضد الحزب الديمقراطي واسبارطة توالي الحكم الافرادي فاتحدت المدن التي كان فيها سلطة للفقراء مع آثينة كما اتحدت المدن التي تسلط عليها الاغنياء مع اسبارطة .

ولقد دامت الحروب الالهية بين الاغنياء والفقراء نحو ثلاثة قرون (من ٤٣٠ الى ١٥٠) ذبح في خلالها كثير من ابناء البلاد وطرد منهم عدد اكثر من ذلك فاخذوا يهيئون في اطراف الارض على وجوههم لا مردد لهم يعيشون منه ولا يعرفون الا صناعة واحدة وهي الجندية فينخرطون متطوعين في الجيش الاسبارطي والاثيني وفي جيش الخاقان الاعظم والجيش الفارسي بل وفي كل جيش يدفع اليهم اجورهم فكان من ابناء يونان خمسون الفاً في خدمة دارا عند ما قاتل الاسكندر وهم لا يكادون يعردون الى بلادهم متى خرجوا منها .

العصابات — ضعفت الشعوب التي حكمت على بلاد اليونان واسبارطة وآثينة وثيبة ولم يبق في القرن الثالث من اهل الشدة والبأس غير سكان شرقي البلاد فالايونيون يسكنون الجبال في شمالي خليج كورنت والآشيون النازلون في شاطئ المورة في جنوبي هذا الخليج وقد نظموا احوالهم عصابات لا مدناً فاحتفظت كل مدينة بحكومتها وكانت لها كاهن مجلس للعصابة يقرر فيه الحرب والعهود ويفرض الجند الذي تقدمه ويختب القائد الذي يقضى عليه ان يقود جيش العصابة .

فانقسمت المدن اليونانية بين هاتين العصابتين المتعادتين . ومن العادة ان تعضد العصابة الايتولية الحزب الديمقراطي والعصابة الآشية الحزب الاوليكارشي . وقد رأس العصابة الآشية ضابطان شهيران احدهما ارتوس في القرن الثالث وبعو الذي طاف بلاد اليونان سبعاً وعشرين سنة (٢٥١ — ٢٢٤) طارداً الظالمين من جميع المدن آخذاً بيد الاغنياء معيدين اموالهم ومقلدهم حكم البلاد والقائد الثاني فيلو جارس . قام في القرن الثاني وقاتل الظالمين في اسبارطة فقتله المسيونيون .

احلاف الرومانيين — لم يكن احد من تينك العصابتين من القوة بحيث يجمع جميع المدن اليونانية وعندئذ ظهر الرومان فخارهم من ملوك اليونان فيليب ملك مكدونية (١٩٧) ثم ملك سورية انطيوخس (١٩٣ — ١٦٩) فنكست اعلامها كليها ودمرت رومية جيوشها واستولت على اساطيلها وقاتلت « برسى » ملك مكدونية الجديد وأسرته وخربت مملكته (١٦٧) .

ولم يحاول اليونان قط ان يجتمعوا للدفاع عن انفسهم وظل فقراؤهم واغنيائهم يقتتلون وكل حزب يمتك الحزب المعادي له اكثر من بغضه الغريب وتحالف الحزب الديمقراطي مع ملك مكدونية ودعا الحزب الاوليكارشي للرومانيين . وبينما التيبينون من الديمقراطيين يقتتلون في جيش فيليب كان مواطنوهم من الاوليكارشين يفتحون ابواب المدينة للقائد الروماني وقد حكم بالاعدام في رودس على كل من قاموا او تكلموا بما يخالف رضى رومية كتب كاليكرات احد اشياع الرومانيين من الآشيين قائمة بالف وطني انهمم بانهم كانوا يميلون للبرسي فارسلوا الى رومية وأمسكوا فيها عشرين سنة بدون ان يحاكموا الفتح — لم يظهر الرومانيون اولاً سيف مظهر الاعداء وقد ذهب القنصل فلامانيوس سنة ١٩٧ بعد ان غلب ملك مكدونية الى برزخ كورنت وعلن امام اليونانيين المجتمعين للالعب البرزخية بان جميع الشعوب اليونانية حرة فطرب الجمهر لقلوبه واقتربوا منه ليشكروه يريدون ان يسلموا عليه وهو محرم وان يروا صورته ويلبسوا يده ويلقوا عليه اكاليل النصر وباقات الزهور فازدحم الناس عليه حتى كاد يخنق .

ولم يلبث الرومانيون ان اصبحوا سادة فحدثتهم انفسهم بان يقودوا البلاد فاطاعهم الاغنياء عن رضى لان رومية كانت لهم واسطة للخلاص من حزب الفقراء ودامت هذه الحال اربعين سنة . ولما شغلت رومية بقرطجة سنة ٤٧ اعادت للحزب الديمقراطي حياته في بلاد اليونان فاعلن الحرب على الرومانيين فدعّر لذلك فريق من اليونانيين وتقدم كثيرون الى الجند الروماني ووشوا اليهم بمواطنيتهم بل وشوا بانفسهم وبعضهم فروا الى اقاصي المدن وآخرون القوا بانفسهم في الآبار او الهوات وصادر زعماء المقاميين اموال الاغنياء والغوا الديون واعطوا سلاحاً للغيبد وكان الجهاد شديداً واذا غلب الآسيويون للمرة الاولى عادوا فحشدوا جيشاً وساروا الى القتال مستصحبين نساءهم واولادهم وحبس القائد ديبوس نفسه وجميع عياله في بيته والتي فيه النار .

وكانت كورنت مركز المقاومة فدخلها الرومانيون وذبحوا الرجال وباعوا النساء والاولاد

(١٤٦) ونهبت المدينة وحرقت وكانت مملوءة بالنفاس وكنت ترى صور كبار المصورين مطروحة في الغبار والجند الروماني مستلقياً فوقها يلعب بالنرد اه .

الرومان

وصف ايطاليا

شعوبها القديمة — سكنت ايطاليا عدة اجناس من الامم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم فكان يعتبر السهل العظيم الشمالي بين جبال الالب والابنين جزءاً من ايطاليا وهناك نزل شعوب من الغالين اتوها من الشمال . فكان الاتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الابنين والبحر (هو اقليم توسكانيا) الى نهر التيبر وفي جنوبه ينزل اللاتين . ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الابنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب ولم تدع كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف امة واحدة بل كانت تنقسم الى اومبريين وصابنيين وفولسكيين وايبكيين وهرنكيين ومارسيين وسامنيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة وبعبدون ارباباً واحدة ولهم عادات واحدة . يتكلمون كالفرس والمهذوب واليونان بلغة آرية وابعدهم وراء جبالهم عن الاختلاط بغيرهم احتفظوا بعاداتهم القديمة وعاشوا عصابات مع قطعانهم مشتملين في الخلاء ولم يكن لهم مدن ولا حواضر بل كانوا يلجئون زمان الحرب الى حصون أقيمت في الجبال وقد عرفوا بالشجاعة والقتال وبسلامة الاخلاق ومتانتها وكان منهم بعد حين اعظم قوة للجيش الروماني وفي امثالهم : « من يستطيع ان يغلب علي المارسيين او ان يغلب بدونهم »

جاء في احدى اساطيرهم ان الصابيين نزل بهم خطب فادح فاعنقدوا ان الارباب ساططون عليهم فعقدوا العزم على ان يسكنوا غضبها وان يقدموا ضحية الى رب الحرب والموت كل من يولدون من الاولاد في احدى فصول الربيع . ودعيت الضحية « الربيع المنذور » فاصبح جميع الاطفال الذين وضعتهم أمهاتهم تلك السنة ملكاً للرب حتى اذا بلغوا سن الرجال غادروا البلاد وبعدوا عنها الى القاصية وتألفوا عصابات فاخترت كل عصابة احد حيوانات ايطاليا المقدسة دليلاً من مثل الصرد والذئب والثور وهي تتبعه كأنها تتبع مرسلها من الرب وحيثما وقف اخيوان تنزل العصاة وتتخذ موطناً لها . وقيل ان عدة شعوب من ايطاليا كان اصلها من تلك الأسرات من النازحين وما زالت محافظة على اسم الحيوان الذي كان اجدادها اتبعوا آثاره في القديم وذلك مثل المارينيين (شعب الذئب) والبيسانثيين (شعب الصرد) والسامنيين وكانت عاصمتهم تسمى بوفيانوم اي مدينة البقرة .

السامنتيون — كان السامنتيون من اقدر تلك الشعوب وقد سكنوا في اقليم البروز وهو معصى حقيقي فينزلون الى السهول المخصبة في نابلي وبويل وينهبون المدن الاتروسكية والمدن اليونانية . جاهدوا قرنين في الرومانيين فكانوا كل مرة يردون على اعقابهم خاسرين اذ لم يكن لهم موطن ولا نظام ثم يعاودون القتال . وكان جهادهم الاخير شديداً . ولقد اتى شيخ الى زعماء الجيش بكتاب مقدس كتب على نسج من الكتان فاقاموا داخل المعسكر سوراً من نسج الكتان وجعلوا في وسطه مذبحاً والجند واقفين من حوله شاهرين سيوفهم فدخل اشجع انخاريين الى السور وتوخذ عليهم العهود ان لا يهربوا من الزحف امام البدو وان يقتلوا المنهزمين فاخذ من اقسماوا الايمان المغلظة وكانوا ستة عشر الفا البسة من الكتان فتألفت منهم (كتيبة الكتان) وشرعت في القتال فقتلت عن آخرها .

يونان ايطاليا — سكن ايطاليا الجنوبية طواري من اليونانيين كما سكن بعضهم مدينة سيبارس وكروتون وتارانت وقوي فيها امرهم وكثر سوادهم . بيد ان اليونانيين لم يلقوا بانفسهم قط الى الوقوع في التهلكة اذا لم يقصدوا رومية خوفاً من الاتروسكيين وما عدا مدينة كومس فان المستعمرين من ابناء يونان كانت لهم الى القرن الثالث صلات قليلة مع الرومانيين . الاتروسكيون — أطلق اسم الاتروسكيين على اقليم توسكانيا فسمي تروسكري وهو اقليم حار رطب مخصب للغاية . وظلت حال الاتروسكيين الى الآن طليماً من الطلاسم لم تفكه فهم لم يكونوا يشبهون جيرانهم ولا يعلم اين اتوا بل اننا لا نعرف اللغة التي يتكلمون بها الا ان ابجديتهم تشبه ابجدية اليونان ولكن الآثار التي عرفت عن هذا الشعب قصيرة لا نتمكن معها من استنبات لغتهم .

كان الاتروسكيون يحسنون استخدام ارضهم في الزراعة على انهم عرفوا التجارة ايضا وكانوا يذهبون كالفينيقيين الى البلاد البعيدة للبحث عن عاج الهند وبنبر البلطيق وعن القصدير والارجوان الفينيقي والحلي المصرية المكتوب عليها حروف هيرغليفية وعن عيش النعام . وانك لتجد من جميع هذه الاشياء في قبورهم . وكانت سفنهم لتقدم نحو الجنوب حتى جزيرة صقلية . وقد كان اليونان يكرهونهم ويدعونهم (التيرينيين المتوحشين) او القرصان الاتروسكيين . وكل بحار في تلك العصور ساعدته الاحوال يأتي منه قرصان بحر فكان من مصلحة الاتروسكيين خاصة ان يردوا التجارة اليونان ويصدوهم ليغفلوا لهم الجو في الشاطئ الغربي من ايطاليا ويستأثروا بتجارته . ولم يبقوا من آثارهم الا حوائط حصينة وقبوراً . وعند ما يفتح قبر احد الاتروسكيين تشاهد وراء باب ذي عمد غرغافيا . وقدامت عليها جثث وحواليها حلي من الذهب والعاج والعنبر واقشة الارجوان وفرش واوان كبيرة

منقوشة اما الجدران فيرسمون عليها صور حروب والعباء وولائم ومشاهد غريبة .
وان ما استخرج من القبور بالالوف من الاواني الاتروسكية فازدانت به متاحفنا
وصنع على مثال الاواني اليونانية هو من صنع الاتروسكيين انفسهم وفيها متاهد ميثولوجية
يونانية ولا سيما صور الحروب التي جرت حول طروادة والاشخاص نائفة حمراء على صفيح اسود
وقد أسس الاتروسكيون في طوسكانيا اثنتي عشرة مدينة ولكل منها ملكها وحكومتها وكان
لهم من الجانبين مستعمرات فلهم اثنا عشرة مستعمرة في اقليم كامبانيا في جوار نابولي واثنا
عشرة في سهل بو .

ديانهم — اعتقد الاتروسكيون بارباب جبارين وربما كانوا اشراراً وارق اولئك
الارباب الارباب المستورون المجهول امرهم ثم يحيى بعدهم الارباب الذين يرسلون
الصاعقة وعددهم اثنا عشر رباً يؤلفون مجلساً لهم ويعتقدون انه يقيم تحت الارض في
مدافن الاموات ارباب مشائيم وكثيراً ما كانوا يمثلون صورهم على اوان من صنع ايديهم
فيملكون ملك الجحيم المدعو مانتوس في صورة جبار مجنح جالس وتاج على رأسه وشعل بيده
كما يمثلون شياطين آخرين مسلحين بسيف او مطرقة والحيات يقبضون عليها بايديهم وهم
يتلقون ارواح الموتى واهمهم الشيطان شارون المعروف عند اليونان بهذا الاسم ايضاً وقد
تخيلاه على صورة شيخ ذي هيئة قبيحة يحمل مطرقة ثقيلة ليضرب بها نضاياه . ويعتقدون
ان ارواح الموتى وتسمى « المان » تخرج ثلاثة ايام في السنة من مقرها في عالم الظلمات
وتطوف الارض تروّع الاحياء وتؤذيهم فيقدم لهم الاتروسكيون ضحايا بشرية تسكيناً
لغضبهم لانهم يحبون الدم . وكانت معارك المصارعين المشهورة التي اسطلح عليها الرومان ضحايا
دموية اكراما للميت في اصل نسايتها وكان للعرافين الاتروسكيين الذين دعوا بالهاروسبيسين
او اهل الفأل قواعد يجرّون عليها للتنبؤ عن المستقبل فيرصدون احشاء الضحايا كما يرصدون
الصاعقة وطيران الطير فيقف العراف ويدبر وجهه نحو الشمال ماسكاً بيده عصا معقوفة
ويخط خطاً بقطع به السماء شطرين فسطر الشرق وهو على اليمين يكون فال خير وشطر الشمال
يكون فال شر (١) ثم يقطع الشطر الاول على قطع الصليب ويؤلف خطوطاً متوازية يكون
منها في السماء شكل مربع يدعونه المعبد فيرمي العراف بصره الى الطيور التي تمر في ذاك المربع
فبعضها كالنسر علامة خير واخرى كالبومة طالع شؤم .

ولقد ثبأ الاتروسكيون عن مستقبلهم انفسهم فهم الشعب الوحيد من بين الشعوب

(١) هذا اشتهر بالسائح والبارح عند العرب ولعلها اخذته عن الرومان نقول العرب :
من لي بالسائح بعد البارح اي بالمبارك بعد الشؤم قال ابو عبدة سأل يونس رؤيته وانا شاهد

القديمة الذي لم يعتقد بانه خالد وكانوا يقولون ان بلادهم يدوم امرها عشرة قرون . وهذا القرون لم يكن كل واحد منها مؤلفاً من مئة سنة ولا تعين مدة القرن الا بعد ان يجري له فال . ففي سنة ٤٤ وهي سنة وفاة قيصر ظهر في السماء نجم مذهب فقال احد العرافين من الاتروسكيين في رومية في جمع من الامة ان هذا النجم يشير الى نهاية القرن التاسع وابتداء القرن العاشر وهو آخر قرن يستقيم فيه امر الاتروسكيين .

نفوذ الاتروسكيين — كان الرومان امة نصف متوحشة فاقتدوا كثيراً بالاتروسكيين وهم اكثر منهم تمدناً واخذوا عنهم بعض المصطلحات الدينية خاصة مثل البسة الكهنة والحكام والشعائر الدينية وعلم معرفة الغيب وزجر الطيور وعند ما كان الرومانيون يؤسسون مدين يعمرون على شعائر الاتروسكيين فيخط المؤسس لها بالمحرث سوراً مربعاً وللمحرث سكة من الفحاس يجرها ثور ابيض وبقرة يضاء فيتبع الناس المؤسس ويلقون بهزيد العناية جميع مدر الارض من ناحية السور وتصبح كل الهوة التي يشقها المحرث مقدسة لا يستطيع احا ان يتعداها للدخول في السور ولذلك اقتضى ان يقطع المؤسس تلك الاثلام او الهوى المقدسة من عدة مواقع فكل مكان يتخطاه المحرث يفتح فيه باب وكل فرجة لم تمسها السكة تبقى غير مقدسة وتكون باباً يسوغ منه الدخول . ولقد أسست رومية بحسب هذه المراسم الدينية وكانت تسمى رومية المربعة ويقولون ان مؤسسها قتل اخاه عقاباً له عن تجاوزه السور المقدس الذي خطه ثم جرى الاصطلاح ان تخطط اسوار المستعمرات والمعسكرات الرومانية بل وحدود المساكن بحسب هذه القواعد الدينية وبخطوط نصف هندسية . وكان دير الرومانيين من اصل اتروسكي فنقلوه الى ارجاء العالم القديم بأسره ولذلك حق لا بقاء الكنيسة ان تسمى بلاد الاتروسكيين « ام الخرافات »

اللاتينيون — نزل اللاتينيون في بلاد الآكام والشعاب الواقعة جنوبي نهر التيبر وهي يطلق عليها اليوم اسم برية رومية وكانوا قليلاً عددهم ولم تكن مساحة البقعة التي يسكنونها اكثر من ٢٧٠ كيلومتراً مربعاً وكانوا من عنصر واحد كسائر الطليان يشبهونهم بالالف والدين والاخلاق ولكنهم يفوقونهم في التقدم بعض الشيء يزرعون الارض وينتول

عن السانج والبارح فقال السانج ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره وقال ابو عمرو الشيباني : ما جاء عن يمينك الى يسارك وهو اذا ولاك جانبه الايسر وهو انيسه فهو ساء وما جاء عن يسارك الى يمينك ولاك جانبه الايمن وهو وحشيه فهو بارح قال ابن بري العرب تختلف في العيافة يعني في التيمز بالسانج والتشاؤم بالبارح فاهل نجد يتيمنون بالسانج (المترجم)

المدن الحصينة وينقسمون الى شعوب صغيرة مستقلة ولكل شعب ارضه الخاصة به ومدنته وحكومته وتدعى تلك المملكة الصغيرة مدينة .

ولقد قامت ثلاثون مدينة لاتينية فالفت منها مجتمعاً دينياً يشبه مجتمع الامفكتيون اليوناني واخذوا كل عام يحتفلون احتفالاً عاماً بعيد لهم وتندب كل مدينة عنها من يمثلها في مدينة الب فيذبجون ثوراً ضحية للرب المشترك بينهم وهو كوكب المشتري الزتيني .

رومية الاصلية

رومية - على تحوم قطر اللاسيوم من ناحية بلاد الايتروسكيين يمتد سهل ذو بطائح نتخلله أكامات وتامات هناك على ضفة نهر التيبر أنشئت مدينة رومية مقر الشعب الروماني المنفرد في الخلاء . ولقد كانت الحمايات لنتاب تلك البلاد وحالتها من الكآبة والبؤس على جانب ولكن كان موقعها جميلاً ونهر التيبر بمثابة هوة قائمة في وجه الايتروسكيين كما كانت تلك الآكام كالحصون وبين تلك المدينة والبحر ستة اميال وهو بعد لا يكاد ينجيها من سطوة قرصان البحر وبقرها قليلاً من نناول البضائع الواردة عليها . وكان مرفأ اورتى عند مصب نهر التيبر حياً من احياء رومية كبير مثل بيرة مرفأ آثينة . فوقع رومية كان والحالة هذه مناسباً لحال امة حرية تجارية .

تأسيس رومية - لا نعرف من حال القرون الاولى لرومية غير اساطير . والرومانيون انفسهم لم يعرفوا عنها شيئاً مثلنا . وقد ادعوا ان رومية كانت لاول امرها مدينة صغيرة مربعة المساحة قائمة كلها على رابية «بالاتين» ويدعى مؤسسها رومولوس وهو الذي اختط سورها بمجراث مراعيّاً في تخطيطها الشعائر الايتروسكية . وكان الرومانيون يحتفلون كل سنة يوم ٢١ ابريل (نيسان) بعيد هذه المدينة فيطوفون حول سورها الاصلي فيدق احد الكهنة مسجراً في بعض المعابد تذكراً للحفلة . وكان يُقدّر ان الاحتفال بتأسيس تلك المدينة قد وقع في سنة ٧٥٤ قبل المسيح .

أنشئت على الروابي الاخرى قبالة جبل بالاتين عدة مدن صغرى ونزلت عصابة من سكان الجبال من السابينين في معبد الكايتول كما حلت عصابة اخرى من متشردى الايتروسكيين في جبل سيليوس وربما كان ثمت ايضاً شعوب اخرى . وانتهت الحال بجمع اولئك الجماعات الصغيرة ان يجتمعوا في مدينة رومية الواقعة على رابية بالاتين ثم انشي سور جديد احاط بالسبع اكامات . اما ساحة المريج حيث يقف الجيش فكانت ممتدة الى نهر التيبر من الشاطئ الاخر من النهر خارج السور فكان الكايتول في رومية مثل الاكر وبول في آثينة . ولقد قامت على هذا الصغر معابد الارباب الثلاثة حامية المدينة وهي المشتري

وجونون ومنيرفا وهنالك القاعة التي حوت خزانة الحكومة وسجلات الامة . وفي اساطيرهم انهم عثروا عند ما حفروا أسس المدينة على رأس رجل قطع حديثاً فكان هذا الرأس فألاً حسناً اولوه بان رومية سنغدو رأس العالم .

تقاليد بشأن الملوك وانشاء الجمهورية . - جاء في هذه التقاليد انه حكم رومية ملوك مدة قرنين ونصف ولم تذكر فيها اسماؤهم وتاريخ وفياتهم بل ذكرت تراجمهم وقيل انهم كانوا سبعة ملوك خرج الاول وهو رومولوس من مدينة آلب اللاتينية فانشأ مدينة بالاتين وقتل اخاه الذي ارتكب محرماً بان قفز من فوق خندق سور المدينة ثم حالف احد ملوك السابنيين المدعو تاتيووس . وفي تقليد آخر انه انشأ في سفح المدينة حياً محاطاً بسياج حشريه جميع المتشردين الذين احبوا الانضمام اليه .

اما الملك الثاني وهو نومابومبيليوس فقد كان سابنياً وهو الذي رتب الديانة الرومانية آخذاً برأي احدى الربات « ايجري » التي كانت تسكن في غابة . وكان الملك الثالث المدعو تولوس مارتيووس حفيد نومابومبا اليه بنى جسراً من خشب على نهر التيبر وانشأ جسر اوسقي وعليهما كانت تمر تجارة رومية منذ ذاك الحين . وكان الملوك الثلاثة الآخرون من الايتروسكيين وحدث من امر تاركين الهندى ان وسع المملكة الرومانية وادخل الاحنقالات الدينية الشائعة في بلاد ايتروريا والايتروسكيين . ونظم سرفيوس تويوس الجيش الروماني بان ادخل فيه جميع اهل البلاد بدون تمييز في موالدهم واعمارهم ووزعهم مائة مائة بحسب ثروتهم . اما الملك الاخير المدعو تاركين الباهر فقد ظلم الاسرات الكبرى في رومية فذاًمر عليه بعض الاشراف ووقفوا الى طرده .

ومذ ذاك العهد ٥١٠ لم يملك على الرومانيين ملك فكانت البلاد الرومانية او كما يقال الملك العام يحكم عليها كما كان يختاران كل سنة ويسميان « القناصل » . وليس من الممكن ان نعلم ما في هذا التقليد من حقيقة لانه نشأ قبل ان يبدأ الرومان في وصف تاريخهم بزمان طويل وفي هذا التقليد من الاساطير ما لا يسعنا قبوله برمته . وقد حاول بعضهم ان يفسر اسماؤه هؤلاء الملوك ويبدل منها بانها رمز الى جنس او الى طبقة خاصة كما حاول بعضهم ان ينشيء تاريخ رومية في عهده الاول على ضروب من الصور ولكن كما بذلت العناية للنظر فيه صعب الاتفاق بين المشتغلين في ذلك على تقرير امر وكثير الخلاف بينهم .

وصف ترتيبات الرومانيين على سبيل الايجاز - كان في رومية نحو القرن الخامس قبل المسيح طبقان من الناس وهما الباترسين والبلبين (اي الاشراف والعامة) فكان

الباترسيون من نسل قدماء الأسرات المقيمة منذ القدم في البقعة الضيقة في ضاهر مدينة رومية وكان لهم وخدم الحق ان يظهروا في مجمع الامة وان يحضروا الحفلات الدينية وان توسد اليهم الوظائف . ويعتقدون ان اجدادهم اسسوا المملكة الرومانية او كما كان يقال المدينة الرومانية واوصوا بها لهم فكانوا هم من ثم الشعب الاصلي في رومية اما البلبين فهم من نسل الغرباء النازلين في المدينة ولا سيما من الملعولين من سكان المدن المجاورة اذ ان رومية اخضعت بالتدريج جميع المدن اللاتينية وضممت سكانها اليها بالقوة فاصبحوا رعايا لرومية لكنهم ظلوا غرباء عنها يخضعون لحكومة رومية دون ان يشركوها في شيء من الامر فلا يدينون بالدين الروماني ولا يسوغ لهم ان يحضروا الحفلات الدينية ولا ان يتزوجوا من الاسرات الشريفة وكانوا يدعون باللب اي الجمهور ولا ينظر اليهم بانهم جزء من الشعب الروماني . وقد وجدت في الصلوات القديمة هذه العبارة « خير الشعب وخير البلبين في رومية » .

وكان يجتمع ابناء البلاد وعليهم اسلحتهم كل سنة خارج المدينة في ساحة المناورات (ساحة المريح) ينتخبون زعيمين يطلقون عليهم لقب القضاة او القناصل . وكان هؤلاء القناصل في خلال السنة التي يتوظفون فيها يحكمون رومية ويقودون جيشها وييدهم حياة جميع افراد الامة وموتها . يرافقهم اثنا عشر رجلاً من حملة الفؤوس اشارة لما لهم من السلطة فيحمل كل منهم فأساً وحزمة قضبان لجلد المجرمين او ضرب رقابهم . فيجلس القناصل على عادة قدماء الملوك على دكة تشبه العرش وهو كرسي عال من العاج . ويستعاض في اوقات الحروب الخطرة عن القنصلين بجائهم واحد يلحقون ابيه بزماد السلطة فيصبح الحاكم القوي والامر الناهي وحده ويكون في قبضته الاربعة والعشرون جلاداً ولكن سلطته لا تدوم الا ستة اشهر .

فيجمع القناصل مجلس الشيوخ وهو مؤلف من رؤساء الأسرات وكبار ارباب الاملاك للمفاوضة في المسائل المهمة ويدعى هؤلاء بالآباء ويدعى نسايم بالاشراف فكان مجلس الشيوخ يصدر رأيه ويطلقون عليه « رأي الشيوخ » ومن العادة ان ياتزم القناصل امثاله فكانت من ثم رومية محكومة عليها من القناصل ومجلس الشيوخ في آن واحد .

النزاع بين طبقات الشعب — كان العامة واهل الطبقة الوسطى عبارة عن شعبين متباينين سادة وروعية . ومع هذا كان حال اهل الطبقة الوسطى يشبه كثيراً حال الاشراف فهم يخدمون في الجندية مثلهم ويخدمون في الجيش على نفقتهم ويفادون بارواحهم في خدمة الشعب الروماني وهم مثلهم من اهل الفلح والكرث بيعشون في قراهم واما كتبهم وكان كثير

من اهل هذه الطبقة المتوسطة اغنيا، ومن أسرة قديمة والفرق بين الطبقة المتوسطة وبين الاشراف ان الاول كانوا من نسل أسرة عظيمة من بعض المدن اللاتينية المغلوبة على حين كان الاشراف من نسل أسرة قديمة من سكان المدينة الغالبة . ولم ترض نفوس اهل الطبقة الوسطى ان تظل ساكنة على ما قضى به عليها من المهانة بل ثار بينهم وبين الاشراف نزاع دام قرنين (من نحو ٢٩٣ الى نحو سنة ٥٠٠) واليك كيف بدأ ذلك على نحو ما ورد في اساطيرهم .

رأى اهل الطبقة المتوسطة ذات يوم انفسهم مهانة فالتصموا في جبل هناك وعليهم اسلحتهم وعزموا ان يناوئوا الشعب الروماني فهال عزمهم جماعة الاشراف فبعثوا اليهم بالقائد مينيوس اغريبا ليقص عليهم قصة الاعضاء والمعدة فرضيت الطبقة الوسطى بالدخول في الطاعة وعقدت محافة مع الشعب فمنح رؤساء هذه الطبقة الحق في ان يدعوا يد المساعدة لاهل الطبقة الوسطى للاخذ بايديهم من حيف حكام الامة ولاجل ان يحولوا دون قيام امر يخالف رغائبهم . وقد كان يكفي ان يلفظ احدهم قوله « فلو » اي اني اعارض فيتوقف البت في الامر . وقد كان الدين يحظر الانتقاض على المدافع عن حقوق الشعب ومن فعل ذلك استحق العقاب من ارباب الجحيم .

فظل ارباب الطبقة الوسطى أخذير انفسهم بمجاهدة خصومهم من اهل الطبقة العالية واذ كانوا اعز منهم نفراً واكثر غنى وأيداً انتهت بهم الحال ان ظفروا بهم فنوصلوا اولاً الى وضع قوانين عامة للجميع وان يسمح بالزواج بين اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى وكان اصعب ما في هذا التغيير نزع الاستئثار بلطحة الحكم او الذهاب بفضل الشرف وقد كان الدين يأمر انه يجب قبل ان يعين رجل حاكماً ان يطلب من الارباب فيما اذا كانت توافق على انتخابه ام لا . فيسألون الارباب عن رأيها في ذلك بزجر الطيور ويسمونه اخذ الفأل . بيد ان الديانة الرومانية القديمة لم تكن تسمح باخذ الفأل الا على اسم رجل من اهل الطبقة العليا وما كان يخطر في بال القوم بان الارباب يقبلون بمحاكم من اهل الطبقة الوسطى . وكان ثمة امر كبرى من الطبقة الوسطى تحرص على ان تصبح مساوية لاسر الاشراف في تولي المناصب كما كانت تساويها في الغنى والمكانة فاضطر اهل الطبقة الاولى الى ان تفتح لها جميع المناصب شيئاً فشيئاً فبدؤا يدخلون في مجلس القناصل سنة ٣٦٦ وفي مجلس الحكم ٣٥٥ والقضاء سنة ٣٢٧ والمراقبة سنة ٣٣١ وزعامة الدين الكبرى سنة ٣٢٢ ومن ذلك العهد امتزج الاشراف اهل الطبقة العليا باهل الطبقة الوسطى واصبحوا شعباً واحداً .

الديانة

ارباب الرومان - اعتقد الرومان كاعتقاد اليونان بان كل ما يحدث في هذا العالم

هو مما قضت به ارادة خالق ولكنهم لم يعتقدوا بالله واحديدير العالم بل قالوا بتمدد الارباب بتعدد المظاهر المختلفة التي تجلّي فيها اوامرهم ونواهيهم . فهناك رب بنبت البذر وآخر يحمي حدود الحقول وثالث يحرس الثمار . ولكل رب اسمه وجنسه وعمله . واهم الارباب «المشتري» رب السماء و «جانوس» ذو الرأسين و « المريخ » رب الحرب و « عطارد » رب التجارة و « فولكان » رب النار و « نبتون » رب البحر و « سريس » ربة الحصاد والارض والقمهر و « جونون » و « منيرفا » .

ثم يجيء الارباب من الدرجة الثانية فكانت تُجسد في بعض تلك الارباب صفة من الصفات كالقضاء والاتحاد والراحة والسلام ويشرف بعضها على عمل من اعمال الحياة فعند ما يولد انولود يأتيه رب يعلمه الذوق وربة تعلمه الشرب واخرى تقوى عظامه وربان يرافقانه الى المدرسة وآخران يرجعان به وبالجملة فانهم كانوا يعتقدون بوجود جيش من الارباب من الدرجة الثانية . ويعتقدون بان هناك ارباباً تحمي مدينة وحارة وجبالاً وغابة . ولكل نهر ولكل نبع ولكل شجرة ربٌ خاص بها حتى لقد قالت امرأة صالحة في احدى القصص من تأليف بترون الكتاب اللاتيني « ان بلادنا غاصة بالارباب بحيث يسهل عليك ان تلقى فيها رباً من ان تصادف رجلاً » .

ولم يمثل الرومانيون كاليونان اربابهم على صورة مخصوصة فقد مضى زمن طويل ولم يكن في رومية صنم فكانوا يعبدون « المشتري » في صورة حجر و « مارس » على صورة سيف . ولم يعتقدوا الا مؤخرًا بانحاذ الاصنام من الخشب على مثال اصنام الايتروسكيين واصنام الرخام على مثال اصنام اليونان ولم يتصوروا على العكس في اليونان ان بين الارباب صهراً ونسباً ولا عزوا اليهم قصصاً كما يفعل اليونان مع اربابهم ولا يعرفون لهم جنة يعتقدون فيها مجالسهم . وكان في اللغة اللاتينية لفظة مشهورة للتعبير عن الارباب وهي « التجليات » فكانوا يعتقدون انها تجليات قوة الالهية مجهولة . ولذلك لم يصورهم الرومان في صورة من الصور ولا نسبوا اليهم رحماً ولا صهراً ولا تاريخاً وكل ما كانت تعرف عن الارباب الرومانيين هو ان كل واحد منها يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ويستطيع ان يعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويهوى .

العبادة — قلما يحب الروماني اولئك الارباب الجهوليين الصفر الباردين . والمظاهر انه كان يخاف منهم فيخبا وجهه عند ما يتوسل اليهم وربما اتى ذلك لثلا يقع بصره عليهم ولكنه يذهب الى ان الارباب قادرون وان من يرضيهم يخدمونه . قال بلوت (الشاعر الهزلي اللاتيني) ان الرجل الذي يرضي عنه الارباب يكتسبونه مالا . ويعتقد الروماني

بان الدين عبارة عن مقايضة المنافع فيقدم المرء للرب نذوره وقراينه ويمنحه هذا بعض المنافع فاذا قدم المرء ما يجب تقديمه للرب ولم يظفر بمتمناه يعتبر نفسه فائطاً مخدوعاً . ولقد قدم الشعب للارباب في خلال مرض القائد جرمانيكوس نذوراَ تلقنَ عليه بالشفاء ولما دأب خبر موته سخط العامة وقتلت المذابح والقت في الشوارع بتماثيل الارباب لان هذه لم تعمل ما كان يرجى منها ان تعمل وهكذا فانا نرى الفلاح الايطالي لعهدنا هذا يشتم القديس الذي لم يعطه ما طلبه منه .

فالعبادة اذاً عبارة عن القيام بما يرضى عنه الارباب من الاعمال والشعب بأنهم بالثار واللبن والخمر ويضحي لهم الميوانات . وفي بعض الاوقات يخرجون تماثيل الارباب من معابدهم ويجعلونها على سرر ويولون لها وليمة ويقومون بما يقوم به الشعب في بلاد اليونان فيبنون لهم دوراً جميلة وهي المعابد ويجفلون بارباهم .

ولم يكن يكفي في تعظيم ارباب الرومانيين ان ينفق الناس مالاَ في سبيل اكرامهم بل كانت ننظر الى الصور التي يقوم بها ذلك الاكرام فنقف في ارادتها ان تجري جميع اعمال التبدد والنذور والالعب بما رسمته القواعد القديمة (الطقوس) فتى أريد تقديم ضحية للمشتري كان عليهم ان يختاروا حيواناً ابيض وان يذروا على رأسه دقيقتاً ملحاً وان يضرب بفأس وان يقف المقدم لهذه الضحية على قدميه ويده مرفوعتان الى السماء حيث يقف المشتري وان يلفظوا بجملة تقديمه لاسمه . فاذا غلط المقدم بما يقول معنى ذلك ان الضحية لا تساوي شيئاً وبذهب القوم الى ان الرب لا يرضى عما قدم له . ولقد قام احد الحكام بالالعب اكراماً للارباب الحامية لرومية فقال شيشرون « اذا غيرت عبارة واذا وقف اللاعب بالشباب او انقطع الممثل فتكون الالعب غير موافقة للشعائر الدينية فيجب اذ ذاك اعادتها » ولذلك كان اهل الرأي من الناس يحضرون كاهنين احدهما يتلو الصلاة والاخر يتابعه فيما يقول يجتمع الكهنة وهم يدعون « اخوة ارفال » كل سنة في معبد يجوار رومية فيرقصون رقصاً مقدساً ويتلون الصلوات وهي مكتوبة بلغة قديمة لا يفهم منها احد شيئاً ويقضي في اوائل الصلاة ان يدفع الى كل كاهن مجموع قوانين مكتوبة في اول الجلسة . وظل الرومانيون بعد ان نسيت هذه اللغة بقرون يتلونها كل سنة دون ان يفهموا منها حرفاً . ومما يدل على ان الرومانيين كانوا يرمون الى الوقوف عند حد ما رسمه ارباهم هو انهم كانوا يقومون احسن قيام بقواعد الدين . ولذلك يرى الرومانيون انفسهم من اكثر البشر تديناً . قال شيشرون « اننا احط من جميع الامم او مساوون لهم من كل وجه ولكنتا نفوقهم من كل وجه في امور الدين اي بعبادة الارباب » .

الصلاة — اذا صلى الروماني فليست صلاته لتزكية نفسه ومناجاة ربه بل ليطلب منه معونة ويسأله حاجة له . فمن ثم تراه يبحث قبل كل شيء عن الرب الذي يستطيع ان ينيله رغبته . قال فارون (الشاعر اللاتيني) : « يلزمنا ان نعرف اي الارباب بتيسر له ان يعيننا في احوال مختلفة كما نعرف اين يقوم النجار والخباز » وهكذا نضت الحال بان يعمد الى سبيل للحصول على زروع جيدة والى عطارد لا كسباب المال والى نباتون للمعونة على ركوب البحار . فلبس المسنغيث البسة نظيفة لما وقر في الازهان من ان الارباب يرغبون في النظافة . ويقدم بين يدي نجواه ضخية لان الارباب لا يحبون من يجيهم وايدبه فارغة ويقف المسنغيث وقد كشف رأسه فينادي الرب الا انه لا يعرف اسم الرب الذي يناديه ويقول الرومانيون انه ما من احد يعرف اسماء الارباب الحقيقية . بل يكتمني بان يقول له مثلاً : « ايها المشتري الاعظم الرحيم او باي الاسماء تحب ان تدعى بها » ثم يمرض عليه ما يريد عرضه متوقفاً استعمال جملة صريحة كل الصراحة حتى لا يتخذه الرب فاذا قدم له خمر يقال له : « تقبل طاعة هذا الخمر الذي أهرقه » لانه يسهل على الرب الاعتقاد بانه يقدم له خمر آخر غير الذي قدم له وان يعاقب به . ولذلك كانت صلواتهم مطولة كثيرة الحشو مملوءة بالمترادفات .

الفأل — يعتقد الرومان كاليونان بالفأل فيذهبون الى ان الارباب يعرفون المستقبل ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصع الروماني الارباب قبل ان يشرع في عمل فاذا ما ازمع القائد فيهم ان يهجم على عدوه يبحث في احشاء الموتى والحاكم قبل ان يجمع لديه مجلساً ينظر الى الطيور السائرة (وهذا ما يدعونه اخذ الطالع والفأل) فاذا كان فيها اشارة موافقة يدركون بان الارباب استجبت . اشروع والا فعمناه انهم غير راضين عنه .

وكثيراً ما يرسل الارباب بالآيات من قبلهم ومن دهن ان يسئلوا ارسالها . وكل ظاهرة لم تكن متوقعة تُعدُّ فألاً على حادث غير مننظر . فقد ظهرت نجمة مذنبة قبل موت قيصر فذهب القوم الى انها اشارة الى نعيه واذا ارعدت السماء عند ما كانت الامة تجتمع للمفاوضة في امر فعنى ذلك ان كوكب المشتري لا يجب ان يبتوا امراً ذلك اليوم ولذلك يفضون كل حادث طفيف ويؤلفونه بانه رمز الى امر يقع . فاذا ابرق الريق او سمعت كلمة من متكلم او وقف جرد في الطريق او شوه عرّاف فكل ذلك يأخذون منه العبر حتى ان مارسولوس كان اذا عزم على البداية بمعمل امر بان يحمل في محفة مغلقة ليكون على ثقة من انه لا يرى شيئاً ينافي به .

وما كان ذلك مجرد خرافات للعامة بل كان للجمهورية الرومانية ستة طوابع لتنبأها

بالمستقبل فكان لها كتاب للنبؤات تبالغ في العناية به دعته كتاب « سيديلين » وكان لها فراخ مقدسة يقوم على تربيتها الكهنة وما كان يجري عمل عام ولا تلتئم جمعية ولا يشرع بانتخاب ومفاوضة بدون ان يعمدوا الى اخذ الطالع اي انهم ينظرون الى السارح والبارح . وقد شاع سنة ١٩٥ ان الصاعقة انقضت على معبد المشتري وانه نبتت شعرة على رأس تمثال هر كول فكتب احد الولاة بانه ولدت فرخة ذات ثلاث ارجل فاجتمع مجلس الامة للمفاوضة في هذه الفؤل .

الكهنة — لا يقوم الكاهن في رومية بما يقوم به في بلاد اليونان من الاعمال الروحية بل كان ينقطع فقط لخدمة الرب فيلاحظ معبده وبدير شؤون املاكه ويقوم بالاحتفالات لاكرامه وهكذا كانت جمعية السالين (الرقاصين) تحفظ بترس سقط عليها من السماء كما زعموا وكان يعبد كما يعبد الصنم وكانت تقيم تلك الجمعية كل سنة حفلة رقص بالسيوف وهذا ما كان يتوفر عليه اعضاء تلك الجمعية . والاحبار يراقبون الحفلات الدينية فيضعون تقويماً للسنين ويحددون اوقات الاعياد التي يجب الاحتفال بها في ايام مخصوصة من السنة ورئيسهم هو الخبر الاعظم .

وما كان الكهنة ولا العرافون ولا الاحبار يؤلفون طبقة خاصة بهم بل يجري اختيارهم من كبار الرجال ويبقون على القيام بجميع وظائف الحكومة فمنهم من يتولى القضاء ومنهم رئاسة الجمعيات ومنهم قيادة الجيوش . ولذلك لم يتألف من الكهنة الرومانيين على قوتهم كما تألف من الكهنة المصريين طبقة كهنوتية فقد كان لحكومة رومية دين خاص بها ولم يكن للكهنة حق الحكم فيها .

عبادة الموتى — اعتقد الرومانيون كما اعتقد الهنود واليونان بان الروح تبقى بعد موت الجسد فان عُنوا بدفن الجثة بحسب العادات فقد اعتقدوا بان الروح تذهب لتحيات تحت الارض وتصبح ربة والا فالروح ليس في استطاعتها الدخول الى عالم الاموات بل كانت تعود الى الارض تدخل الرعب على قلوب الاحياء وتعذبهم ليدفنوها . حكى بلين لجون قصة شيخ كان يختلف الى احد البيوت ويهلك سكانه هلعاً فاكتشف احد الفلاسفة ممن كان له قوة قلب تمكنه من اقتفاء اثره الى المكان الذي وقف فيه ذاك الطيف — عظماً لم تدفن بحسب العادات المتبعة . وهكذا كانت روح الامبراطور كاليغولا تطوف في حدائق القصر فاقضى اخراج جثته ودفنه ثانية على ما رسمته الشعائر الدينية .

فمن ثم كان مما بهم الاحياء والاموات على السواء المحافظة على العادات الدينية فكانت أسرة الميت تنصب كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويحملون الرماد في صندوق يضعونه

في القبر . وكان لهم معبد صغير خاص بدفن ارواح الارباب اي الارواح التي اصيحت ارباباً فيأتي اهل الميت في اوقات معينة الى زيارة القبر حاملين طعاماً . لا جرم انهم اعتقدوا قديماً ان الروح محتاجة الى الغذاء لان القوم كانوا يهرقون الخمر والابن على الارض ويهرقون لحماً المشكوبين ويتركون في الاواني لبناً وحلاوى . وكانت هذه الاحتفالات بالموثى تدوم ما شاء الله ان تدوم وما كان لاهل بيت ان يتخلوا عن ارواح اجدادهم بل يظلمون على العناية بقبورهم وبأثوانهم بالغذاء لاطعامهم . ثم ان تلك الارواح التي نأله او تصبح في عداد الارباب تحب ذريتها وتحمي احفادها من البوائق وهكذا كان لكل أسرة ارباب يحمونها يدعونها آله البيت .

عبادة البيت - اعتقد الرومان كاعتقاد الهنود بان الالهيب رب كما ان البيت مذبح فكان لكل امرة بيت عبدة ونقوم على العناية به ليل نهار تحمل اليه الزيت والشحم والخمر والبخور فيتصاعد الالهيب ويطلع كأنه منبث من الغصية . فكان الروماني قبل ان يبدأ بتقديم الطعام لبيت يشكر لرب البيت ويدفع اليه جزءاً من الاطعمة ويصب له قليلاً من الخمر وهذا ما يدعونه بالصب والاهراق حتى ان هوراس نفسه على قلة اعتقاده كان يتعشى امام بيته مع خدمته ويصب الطعام ويصلي الصلاة المعتادة

وكان لكل أسرة رومانية في بيتها قبر جعل فيه ارباب البيت وارواح الاجداد ومذبح البيت . وكان لمدينة رومية نفسها بيت مقدس في قبر الالهة فسنا وهي عبارة عن اربع عذارى من اعظم الاسرات الرومانية عهد اليهن حراسته وذلك لانهم يرون ان لا ينطفيء الالهيب المقدس مطلقاً ولا يهد بالقيام عليه الا لانا من الاطهار فاذا ابت احدى تلك العذارى ان تقوم بما فرض عليها التوفر عليه من هذه الخدمة يدفنونها حية في قبو لانها ارتكبت عملاً طالحاً واوقعت الشعب الروماني في خطر .

الجيش الروماني

الخدمة العسكرية - لم يكن يكفي لقبول الرجل في خدمة الجيش الروماني ان يكون وطنياً رومانياً بل يجب ان يكون له بعض الموارد ليجهز نفسه بالسلاح على نفقته لان الحكومة لم تكن تعطي الجندي سلاحاً حتى انها لم تكن تعطيه جارية بأكلها الى سنة ٤٠٢ وعلى هذا فلم يكن يجند من الوطنيين الا من كانوا يملكون بعض ثروة اما الفقراء فكانوا يعفون من الخدمة العسكرية وبعبارة ثانية ليس لهم الحق في خدمتها وبحق كل وطني له بعض الغنى ان يقبل في الجيش مهديان يكون ابل بلاء حسناً في عشرين حملة واذا لم يقم بذلك فهو تبع للقائد اي منذ سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين فكل فرد في

رومية كما في المدن اليونانية واطني وجندي في آن واحد والرومان امة مؤلفة من صفار ارباب الاملاك المدرسين على القتال .

التجنيد — متى احتاجت الحكومة الى جند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين اللاتنيين للخدمة بان يجتمعوا في معبد الكابنول وهناك يلتئم ضباط تختارهم الامة وهم يختارون من ينبغي لهم من الجند لتأليف جيش وهذا هو التجنيد عند الرومانيين ويسمونه الاختيار . ثم يجري التحليف العسكري فيبدأ الضباط اولاً يقسمون اليمن المألوفة ثم الجند وكلهم يقسمون على الطاعة للقائد وان يقاتلوا دون اعلامهم حتى يكونوا في حل من ايمانهم في نظره . فيتلو رجل عبارة وينقدم كل فرد في نوبته فيقول « وانا ايضاً » فيرتبط الجيش اذ ذاك بالقائد ارتباطاً دينياً .

دُعِيَ الجيش الروماني اولاً الفرقة او التجنيدة ولما نما الشعب اصبح يؤلف بدل الفرقة فرقا والفرقة الرومانية عبارة عن ٤٢٠٠ او ٥٠٠ رجل كلهم من ابناء البلاد . وكان اصغر جيش على الاقل عبارة عن فرقة وكان كل جيش بقيادة فصل عبارة عن فرقتين على الاقل . ويتألف نحو نصف الجيش من هذه الفرق وكان على جميع شعوب ايطاليا الخاضعة لرومية ان تبعث اليها ببعوثها وبدعى هؤلاء الجنود « المحالفون » وهم تحت قيادة الضباط الرومانيين . وكنت ترى المحالفين في الجيش الروماني اكثر عدداً من كتائب الوطنيين . وجرت العادة ان يبعثوا مع كل اربع فرق (١٦٨٠٠ جندي) عشرين الف راجل من المحالفين وهكذا كان الشعب الروماني في حروبه يستخدم رعاياه اكثر من مواطنيه .

التسلخ — اعتاد الرومان كاليونان ان يحاربوا مترجلين متدربين بالدروع والخذوذ والمسامي (الطاقات) قابضين بايديهم اليسرى على ترسة ليدفعوا بها الضربات . مضى عليهم زمن وهم بقاتلهم بالرمح والسيف فكانوا اذا تلاقوا بالعدو يجتمعون ككتيبة واحدة على نحو ما كانت تجتمع الكتائب الرومية ثم عمدوا الى استعمال ضرب آخر من ضروب الكر والفر . ونقسم الفرقة الى سرايا صغيرة كل سرية مؤلفة من ١٢٠ جندياً « مانيبول » اي الطريقة لان علمهم عبارة عن حزمة من الحشيش فتصطف كل فرقة على شكل رقعة الشطرنج على ثلاث خطوط وكل فرقة منفصلة عن جارتها بحيث يكون المجال امامها متسعاً للعمل على حداثها فيضرب جنود فرق الصفوف الاولى بجراهم ويضعون سيوفهم في ايديهم ويدوثون بالقتال . فاذا اندحروا يتراجعون الى الفضاء الذي وراءهم فيزحف الصف الثاني من الفرق في نوبته الى القتال فاذا ما دُحر ينكفي راجعاً نحو الخط الثالث . وهذه الفرق

في خبرة رجال الجيش يحملون الرماح وهم واسطة اقيادة اخوانهم الآخرين لقتال
الاعداء بهم .

وبعد فان الجيش الروماني لا يتألف جملة واحدة للقتال في آن واحد بل ان القائد
يعي جنده مراعيًا حالة الارض التي يتخذها ساحة لقراع الاعداء . ولما التقى كتائب جنود
الرومانيين وفرق المكدونيين في جبال سينوسيفال في تساليا للمرة الاولى وهما اشهر ما عهد
من الجيوش في العهد القديم كان ميدان القتال عبارة عن أكمات وتلعات فلم يكن في
امكان الستة عشر الف محارب من المكدونيين ان يظلوا متماسكين متجمعين بل كانت
صفوفهم ذات فروج فزحفت الفرق الرومانية ودخلت الفضاء الذي كان يتخلل صفوفهم
ومزقت شملهم كل ممزق .

التمرينات — لم يكن لرومية محال للالعاب الرياضية فكان الجنود يترنون في ساحة
المناورات اي في ساحة المريج من الضفة الثانية من نهر التيبير وهناك كانت الشاب يسير
ويعدو ويقفز وعليه العدة الكاملة من السلاح يلعب بسيفه ويضرب بحربته ويستعمل موهله
فاذا ما علاه الغبار والعرق يجتاز نهر التيبير عائماً . وكثيراً ما كان الرجال المدربون بل
والقواد يشاركون فتيان الجند في تمريناتهم اذ كان من دأب الروماني ان لا ينقطع عن
التمرين حتي كانت القاعدة المتبعة اذ ذاك ان لا يترك الجنود حتى في الحرب بلا عمل فيمرنون
مرة في اليوم على الاقل ويشغلونهم بانشاء الطرق والجسور والمجاري اذا لم يكن امامهم عدو
بقتلونه ولا متاريس بقيموها .

المسكر — يحمل الجندي الروماني حملاً ثقيلاً مؤلفاً من سلاح واوان واطعمة تكفيه
اياماً وتند ويبلغ وزن مجموعها ستين رطلاً رومانياً واذا تلاقى الجيش بجيش العدو يسهل
عليه الحرب بسرعة اذ لا يكون له من الاثقال ما يشغله .

وكل مرة كان يريد الجيش الروماني الوقوف ليعسكر يخطط المساح نطاقاً مربعاً ويحفر
الجند في محيط ذاك النطاق هوة عميقة ويقون التراب من ناحيتهم في الداخل يكون
خندراً يضربون فيه اوتاداً وهكذا يكون المعسكر محمياً بنطاق من اوتاد وارض ذات وهاد
في داخل هذه القلعة الموقفة يضرب الجنود خيامهم ويجمعون سراق القائد في الوسط
يبقى العميون والخراس طول الليل يحرسون المعسكر وهكذا يكون الجيش في مأمن من كل
دو مفاجيء .

تعليم الجند — يعلم الجيش الروماني تعليماً قاسياً فيبقى للقائد ان يبيت جنده
. يعني عليهم والجندي الذي يترك محله او يركن الى الفرار في الزحف يحكم عليه بالموت

فربطه حملة القوئوس بعمود ويضربونه بالعصي ويقطعون رأسه او يقع عليه الجند فيضربونه بالعصي .

واذا تمردت كتيبة من الجيش يقسم القائد المجرمين الى عصابات كل عصابة مؤلفة من عشرة اشخاص يقتعون في كل عصابة على واحد يكون نصيبه الاعداد ويسمون هذا التعشير اي اخذ واحد من عشرة اما الباقيون فيقضى عليهم بان يعطوا خبز شعير ويتركوبهم يعسكرون خارج المعسكر ليكونوا ابداً على خطر من مفاجأة العدو لهم .

لا يقبل الرومانيون ان يغلب جندهم ولا ان يؤسروا فقد سلم من القتل ثلاثة آلاف جندي بعد وقعة « كان » وراحوا يهيمون على وجوههم الا ان مجلس الشيوخ ارسلهم يخدمون في صقلية بدون جرايات ولا القاب شرف ربثا يخرج العدو من ايطاليا وبقي ثمانيا آلاف جندي في المعسكر فقبض عليهم وقد عرض هانيبال ان يعيدهم الى الحكومة لقاء فدية طفيفة تدفعها عنهم فابى مجلس الشيوخ ان يقبدهم .

الغلبة — متى كتب الظفر لاحد القواد يصدر مجلس الشيوخ امره اليه بان يحتفل بما تم له من الغلبة دليلاً على تشريفه فيحتفل بذلك احتفالاً دينياً في معبد المشتري فيسير في المقدمة الحكام والشيوخ ثم تأتي العجلات مملوءة بالغنائم والاسرى متيدين من ارجلهم وفي المؤخرة عجلة مذهبة تجرها اربعة جياد يأتي القائد الغازي متوجاً بالغار وجنده يتبعونه مترنمين بادوار دينية يرددون فيها اسم الظفر فيحتاز هذا الموكب المدينة بهذا الاحتفال ويطلع الى معبد الكابتول وهناك يضع الغازي اغصان الغار على ارجل المشتري ويحمده على انه كان سبباً في نصرته وعند انتهاء الحفلة تضرب اعناق الاسرى كما فعلوا مع الزعيم الغالي فرسجنور كس او ان يلقوا الاسير في مطبق (حبس مظلم) يموت جوعاً كما فعلوا مع جوكورتا ملك فوميدا او انهم يكتبون بان يسجنوا الاسير . وقد دام ظفر بولس اميل الذي تغلب على ملك مكدونيه (١٦٧) ثلاثة ايام مرت في اليوم الاول ٢٥٠ مركبة تحمل لوحات وتماثيل وفي الثاني ما غنمه من الاسلحة و٧٥ برميلاً من المال وفي اليوم الثالث ١٢٠ ثوراً من ثيران الضحايا والملك برسي في المؤخرة لابساً السواد يحف به خاصته مقيد بين وثلاثة اولاد له مدوا ايديهم للامة يضرعون اليها واخذوا يحركون شفقتها .

فتح ايطاليا — كان في رومية معبد خاص بالرب جانوس تبقى ابوابه مفتحة مادام الشعب الروماني في الحرب . ولم يغلق هذا المعبد الا مرة واحدة دامت بضع سنين في خلال خمسمائة سنة التي طال فيها عمر الجمهورية الرومانية وعليه فان رومية عاشت في حرب دائمة

واذ كان جيشها اقوى جيش في عصره انتهت بها الحال ان تغلب على جميع الشعوب الاخرى
وان تنفع العالم القديم .

فبدأت إخضاع جيرانها أولاً فاخضعت اللاتينيين أولاً ثم الشعوب الاخرى النازلة في
الجنوب مثل الفولسكيين والايكيين والمهرىكيين ثم الاليتروسكيين والسامنتيين ثم المدرس
اليونانية . وكان هذا الفتح من اشق الفتوح وابطثه : بدأ على عهد الملوك ولم ينته الا في
سنة ٢٦٦ اي بعد اربعة قرون (١) وذلك لانه كان على الرومانيين ان يقاتلوا شعوباً هم
واياهم من عنصر واحد وهم على شاكلتهم في القوة والنجدة والشجاعة . ومن هذه الشعوب
من ابى ابائها ان تخضع للرومان فما كان من رومية الا ان ابادتهم فاصبحت سهول فولسكا
الغنية فقراً ذا بطائح ومستنقعات ولم تعد بطائح بونتين صالحة للسكنى حتى يوم الناس
هذا وقد كانت بلاد السامنتيين تعرف بعد ثلثائة سنة من الحرب التي وقعت فيها بما بقي
فيها من بقايا المتاربس اكثر مما تعرف بخلو جوارها من السكان وكان فيها ٤٥ معسكراً
للامبراطور ديسيوس و٨٦ للقائد فايوس .

الطرق العسكرية — اقام الرومانيون في جميع ايطاليا طرقاً عسكرية ليتسنى لهم ان
يبعثوا بالبعوث الى القاصية وكانت هذه الطرق عبارة عن طرق مستقيمة مرصوفة بالجير
والحجر والرمل وبلغ من متانتها انها صبرت على الايام خلال ذاك العهد برمته . وقد اكثر
الرومان منها في عامة بلاد ايطاليا فليس فيها بقعة لا ترى فيها الى اليوم اثرًا من آثار تلك
الطرق الحربية وكانوا يسمونها باسم الوالي الذي امر ببنائها واهم هذه الطرق طريق ايبين
الممتد الى الجنوب الى بطائح بوتين حتى تراننا وبرندس ثم طريق فلانين الذي يجتاز
طريق ابنين ويصل الى بحر الادرياتيك وطريق اورلين الذي يقطع اقليم طوسكانيا
آخذاً الى الشمال على طول الشاطئ حتى بلاد الغال ثم طريق املين الممتد من بحر
الادرياتيك مجتازاً جميع سهل « يو »

فتح حوض البحر المتوسط

صبغة الدياسة الرومانية — لم يخطر للرومان ان يفتحوا العالم أولاً حتى انهم تمهلوا بعد
ان بسطوا حكمهم على ايطاليا وقرطاجنة مدة مئة سنة قبل ان يخضعوا الشرق الى سلطانهم

(١) لم يكن للرومانيين من اخبار جميع هذه الحروب في ايطاليا سوى اساطير لفتى
اكثرها ليكون منها دليل على رجولية بعض اجداد احدى الاسر الشريفة

والظاهر انهم فتحوا فتوحاتهم دون ان يخططوا لها خطة من قبل لان مصلحتهم كلهم كانت بان يفتحوا الفتوح ويدوخوا الممالك .

فكان يرى الحكام وهم قواد الجيوش من الفتوحات فرصة لتبيل علائم التشريف بالظفر الذي يكتب لهم ويكونون على ثقة من الاشتهار بين أممتهم والتأثير فيها . وكان أعظم رجال الحكومة في رومية مثل بابيريوس وفابيوس وسيبيون الاول والثاني وكانوا من القواد الذين فتحوا الفتوح وكتب الظفر لآعلامهم . ويرجع الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ اذا كثر سواد رعابا رومية فيذهبون كما يذهب الحكام لقبول احتراماتهم وهداياهم . اما الفرسان أي الصيارف والتجار ، أرباب المصاريع فان كل فتح حديث كان لهم بمثابة مشروع جديد يستثمرونه

والامة نفسها تستنفع من الغنائم التي تؤخذ من العدو . وقد رفعت الضرائب بصورة دائمية بعد ان دخلت خزانة الدولة الرومانية كنوز ملك مكدونية . اما الجنود فكانوا يقبضون رواتب عالية من قوادهم وقد أخذوا يحاربون البلاد الغنية دع عنك ما كانوا يمدون اليه ابديةهم من مال المغلوبين . وعلى هذا فقد فتح الرومان العالم للقوائد المادية اكثر من المجد

قرطاجنة — لما امتد سلطان رومية الى جزيرة صقلية حملت على قرطاجنة وعندئذ بدأت الحروب الفينيقية فحدثت ثلاث حروب فكانت الحرب الاولى من سنة ٢٦٤-٢٤١ حرباً بحرية ولا نعرف عنها شيئاً الا ما روثه الاساطير بعد زمن من حدوثها . فذكروا ان الرومانيين لم يملكوا سفناً حربية قط وانهم جعلوا سفنهم على مثال سفينة قرطاجنة وقامت بالعرض في الشاطي فأخذوا يمرنون مجذفيهم على استعمال المجاذيف على اليابسة . وهذه القصة لا اساس لها لان بحرية رومية قديمة اما الرومان فقد نقلوا اخبار هذه الحرب كما يلي : غلب القنصل دو بليوس الاسطول القرطاجني في ميلي (٢٦٠) وكان نزل الى افريقية من البحر جيش روماني على عهد الحاكم رجولوس فغلب وتمزق شذر مذر (٢٥٥) واسر رجولوس وأرسل الى رومية ليعقد الصلح وقرر مجلس الشيوخ اباء الصلح فرجع هذا الى قرطاجنة حيث قضى نحبه في العذاب . ثم حمي وطيس الحرب في صقلية فكثبت الغلبة للاسطول القرطاجني اولاً (٢٤٩) ثم دمر بالقرب من جزائر ايفات (٢٤١) وبعد ذلك حوصرها مليكار في جبل اركيس فوقع على الصلح ودخلت صقلية في حوزة رومية

ونشبت الحرب الثانية (من سنة ٢١٨ الى ٢٠١) وكان قائدها هانيبال من نسل الاسرة القرطاجنية صاحبة الحول والسطوة في بادكاس وكان اداؤه هامليكار الى صقلية جيشاً قرطاجنياً في الحرب الفينيقية الاولى ثم عهد اليه ان يفتح اسبانيا وكان هانيبال اذ ذاك طفلاً

فصعبه ابوه . وكانت العادة ان تقدم الضحايا للارباب عند ما يغادر الجيش البلاد ويقال ان هامليكار بعد تقديم الضحايا حلف ابنه ان يكون ابداً عدواً ازرق للرومان
 ربي هانيبال وسط الجند فأصبح احسن قائد وامهر راجل في حرب . ولم يكن يعرف من الحياة الا انه محارب وكانت عنايته منصرفة الى تعهد حصانه وأسلحته واشتهر أمره كثيراً حتى اذا هلك القائد اسدروبال الذي كان يقود الجيش الاسباني اتخبوه قائداً عليهم دون ان ينظروا أوامر مجلس الاعيان القرطاجني في ذلك . وهكذا أصبح هانيبال في الحادية والعشرين من عمره قائداً لجيش لا يطاع أحد سواه فدخل غمار الحرب على الرغم من مجلس الشيوخ في قرطاجنة وراح يحاصر ساغونت حليفة رومية فاستولى عليها وخرّبها وما كتب به الحمد لهانيبال انه عوضاً عن ان ينظر الرومانيون جرأً على ان يتقدمهم في عقودارهم من بلاد ايطاليا ولم يكن له اسطول يحمله وجيشه اليهم فعزم على اجتياز البلاد اليهم براً فقطع جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب وضمن لنفسه محافلة الشعوب الغالية وقطع جبال البيرنيه دون أن يلقى فيها مقاومة في جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل من الجنود المستأجرة من الافريقيين والاسبانيين ومعه سبعة وثلاثون فيلاً مدربة على الحرب وقد طمع بعض الشعب الغالي ان يحولوا بينه وبين المسير في نهر الرون فأرسل هو فرقة من جيشه تقطع النهر على مسافة بضعة أميال من اعلاه وتهاجم الغاليين من ورائهم على حين يمتناز معظم جيشه النهر على زوارق وتجرف القيلة على ارمات كبيرة . ثم صعد وادي ايزر وانتهى الى جبال الالب في أواخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) فقطعها على ما كانت مغطاة به من الثلوج وعلى الرغم من غارة السكان الجبليين عليه فوقع كثير من الرجال والخيول في الهاويات . وقضى تسعة أيام لبلوغ قمة جبل الالب وصعب عليه النزول لان المضيق الذي كان يجب عليهم السير فيه غطته الثلوج والصقيع فانقضى لجيشه ان يتخذ له طريقاً يحفره في الصخر ولم يصل الى السهل الا وقد أصبح جيشه نصف ما كان . ثم لقي هانيبال ثلاثة جيوش رومانية في مسافة متدانية على شاطئ نهر تيسين وضفة نهر ترييا وبالقرب من بحيرة ترازيمين في انزور يا فهزمها كلها وكان كلما تقدم الى الامام يزداد جيشه وينضم المحاربون من الغاليين « ايطاليا الشمالية » تحت لوائه لخدموه وينصروه على الرومانيين
 فاجتاز هانيبال ايطاليا واتخذ لنزوله اقليم ابوليا في الجهة الثانية لرومية فهاجمه فيها الجيش الروماني . وكان جيشه نصف جيش ولكن كان معه فرسانه الافريقيون يركبون خيولاً سريعة وقد رابط في سهل « كان » بحيث جعل الرومانيين يقابلون بوجوههم الشمس والتراب الذي يثيره الريح فاحاط الفرسان بالجيش الروماني احاطة السوار بالمعصم وذبحوه

عن آخره (٢١٦) وكان يظن ان هانيبال سيزحف على رومية الا انه لم يكن على تهيئة تامة . وهكذا ظل هانيبال في ايطاليا الجنوبية تسع سنين يحاول ان يفصل عن رومية الشعوب المحالفة لها ولم ينجح الا بالاستيلاء على بضعة مدن حاصرها الرومان وخربوها وبعد ذلك سافر اخوه اسدروبال في جيش اسبانيا للاتحاق به فوصل الى اوساط بلاد ايطاليا فسار الجيشان القرطاجيان احدهما على الآخر يقابل كلاً منهما جيش روماني بقيادة احد حكام الرومان . وكان نديون محاذياً لهانيبال نجراً على قطع ايطاليا الوسطى لينضم الى رصيفه مقابل اسدروبال . ولقد سمع اسدروبال في صبيحة ذات برم الابواق نبوق مرتين في المعسكر الروماني وكان في ذلك اشارة الى انه كان في المعسكر قنصلان او حاكمان فوقع في نفسه ان اخاه غلب وانهمز وان الرومان يطاردونه وانه قتل وذبح جيشه عن بكرة ابيه ثم رجع نديون الى الجيش الذي غادره امام هانيبال والتي في معسكر قرطاجنة رأس اسدروبال (٣٠٧)

فلم يبق لهانيبال غير قوته يعتصم بها واقام خمس سنين في اقليم كالابروما أكره على الخروج من ايطاليا الا لما علم بان جيشاً رومانياً كان نزل الى افريقية واخذ يهدد قرطاجنة فذبح هانيبال الجند الايطالي الذي ابى الالتحاق به وركب البحر الى افريقية (٢٠٣) وانتهت الحرب بوقعة زاما (٢٠٢) وكان هانيبال اعتمد بحسب عادته ان يسوق الجيش الروماني الى الدخول في صفوفه ولكن القائد الروماني سيبون ثبت مع جيشه وما كانت الا هجمة واختها حتى ركب هذا اكتاف عدوه وهزم جيشه متهزماً .

فاضطرت قرطاجنة الى عقد الصلح ونذازات عن كل ما تملكه خارج افريقية وترك اسبانيا للرومانيين . واضطرت زيادة على ذلك الى تسليم سفنها وفيلتها وان تدفع مبلغاً من المال يربو على خمسين مليوناً من الفرنكات وتمهدت بان لا تعان حرباً قبل الاستئذان من رومية . وكانت عاقبة الحرب الثالثة (من سنة ١٤٩ الى ١٤٦) القضاء على قرطاجنة فطال حصار الرومان كثيراً لها حتى اخذوها عنوة وجعلوا عاليها سافلها ونحوا اقليمها واعمالها وجعلوها ولاية افريقية خاضعة لسلطانهم .

مكدونية والشرق — كان ملوك اليونان اخلاف قواد الاسكندر انقسموا الشرق وحارب اعظمهم سطوة مملكة رومية وغلبوا مثل ملك مكدونية فيليب سنة ١٩٧ وابنه برسي سنة ١٦٨ وملك سورية انطيوخوس سنة ١٩٠ وهكذا خلا الجول للرومانيين فاخذوا يفتحون البلاد التي برونها فافتحوا مكدونية سنة ١٤٨ ومملكة فرغانة (١٢٩) وبقية آسيا (من سنة ٧٤ الى ٦٤) بعد مزينة ميتريداتس ومصر (٣٠)

وما عدا مكدونية لم يندب الشرق لقنالمه غير جنود مستأجرة او برابرة غير منظمين بنفرون ايدي سبا لاول صدمة يلقونها . ولم يقتل في الغلبة العظمى على انطيوخوس في مانيزيا سوى ٣٥٠ جندياً رومانياً وانفخر سيلا بأنه لم يفقد من جيشه في شيرونيا سوى اثني عشر جندياً .

ودخل الرعب قلوب سائر الملوك فخضعوا السلطان مجلس الشيوخ من دون مقاومة فان انطيوخوس العظيم ملك سوزية بعد ان فتح جزءاً من ديار مصر جاءه بوبيلوس مندوباً من قبل مجلس الشيوخ بأمره بالجلء عما بسط يده عليه من البلاد فتردد انطيوخوس وكان بيد بوبيلوس محزنة فاخطط بها في الارض خطوطاً حول ملك سورية وقال له : أجب مجلس الشيوخ قبل ان تخرج من هذه الدائرة التي رسمها لك . فلم يسمع انطيوخوس الا الخضوع والقي حبل مصر على غاربها . وجاءه بوزياس ملك يفتيا وقد حلق رأسه ولبس ثياب العبد المعنق وركع امام مجلس الشيوخ الروماني . وحاول ميتريداس ملك بون ان يقاوم وحده فطرد من بلاده بعد حرب خمس وعشرين سنة (٦٣ -- ٨٩) واضطر الى ان يتناول السم ويقول بيدي لا بيد عمرو .

اسبانيا وغاليا الجنوبية — لم يستطع الرومان ان يغلبوا على الشعوب البربرية والمحاربين في الغرب بادنى سبب كما تغلبوا على غيرهم فقصوا قرناً لاختضاع اسبانيا لسلطانهم . وقد ناولهم الحرب في جبال البرنتال رجل من الرعاة اسمه فيرياث (١٤٩ — ١٣٩) وهزم خمسة جيوش واكره احد قناصل الرومان على عقد الصلح معه ولم يتخلص مجلس الشيوخ من شره الا بقتله . واهلك الاريفاكين وهم شعب صغير في الشمال الشرقي عدة جيوش رومانية واقتضى لرومية ان ترسل احد قوادها سيدون للاستيلاء على عاصمة تلك البلاد وهي المدينة الصغرى المسماة نومانس . وكانت الشعوب الصغيرة الخاملة في صيتها المعتصمة في جبال جين كثيراً ما تلوش الرومانيين القتال . وكان الغاليون اشد الاعداء على رومية وهم منتشرون في جميع سهل بوزيفون على ايطاليا الجنوبية وقد استولت احدى عصاباتهم على رومية سنة ٣٩٠ فكان جندهم يدخل الذعر على قلوب الجند الروماني باج امهم الضخمة البيضاء وسبلاتهم الطويلة المشقراء وعيونهم الزرقاء واصواتهم التي تعج فيبلغ صداها عنان السماء . والخوف يستولي على رومية عندما يبلغها مجيء العسكر الغالي فيصدر مجلس الشيوخ امره بجمع عامة الجند .

وكانت هذه الحروب شديدة جداً ولكنها تضع اوزارها في الحال في الحرب الاولى استولى الرومان على اقليم غاليا المعروف بسيزالين اي ايطاليا الشمالية ونشبت الحرب الثانية

(١٢٠) للدفاع عن مارسيليا حليفة رومية فدمر الجيش الغالي واخضعت رومية بلاد الرون وشاطيء البحر الرومي (اقليم لانكدوك وبروفانس ودوفينه)

عواقب الفتوح

سريان الاصطلاحات اليونانية — ان الفتوح هي التي دعت الرومان الى رؤية الروم والمشاركة عن أم فاستوطن رومية الوف من اليونان جاؤوها اسرى او للاتجار وتعاطى بعضهم الطب وآخرون التعليم وغيرهم العرافة وغيرهم التمثيل . وكان القواد والضباط والجنود الرومانيون يعيشون في آسيا وسط الشعوب التي تتكلم اليونانية فتحلقوا باخلاق باليونان وهكذا عرف الرومان عادات حديثة ومعتقدات جديدة لم يكن لهم بها عهد واخذوا يعملون بها على التدرج وقد بدأ هذا التبدل بعد الحرب المكدونية الاولى (٢٠٠) ودام الى اواخر المملكة الرومانية القائد ان كانون وسيبيون — بينما كانت الاخلاق لتغير اشتهر احد رجالهم كانون باحتفاظه بعادات اسلافه . ولد هذا الرجل سنة ٢٥٢ في بلدة توسكولوم وقضى شببته في الحرث والكرث وفي السابعة عشرة من سنه دخل في الجيش بحسب العادة المتبعة واشترك في عامة الحملات على هانيبال . ولم يكن من الاشرف ولكنه اشتهر بقوته واستقامته وزهده وقد انتخب مرات وزيرا للمالية وناظرا للابنية والملاعب وقاضيا وقصلا ووكيلا للإحصاء وشغل مناصب الشرف عامة وكان في جميع حالاته على قدم قدماء الرومان فاسيا جاقا بمحتمسا وقد منح قنصله عند ما كان وزيرا للمالية وكان القنصل سبيون غالب هانيبال فاجابه لست في حاجة الى ناظر مدقق مثلك الى هذا الحد . ولما عين ناظرا للابنية والملاعب في ساردينيا ابى ان يمس المال الذي دفعته اليه تلك الولاية للنفقة . ولما صار قنصلا تكلم بشدة عن قانون اوبيا القاضي بالخطر على النساء الرومانيات بان لا يتزين بالحلي الثمينة فظفر النساء بمطليهن وألغى ذلك القانون . ولما ذهب لقيادة الجيش الروماني في اسبانيا اتى باموال طائلة دفعها الى خزنة الامبراطورية وباع حصانه عند ما ركب البحر ليقصد من نفقات نقله ولما عين وكيلا للإحصاء اسقط من قائمة مجلس الشيوخ عدة من الاعاظم لما عرفوا به من الترف والبدخ واحال جباية الاموال الاميرية بثمن عال وقدر حلي النساء وزينتهن وعرباتهن بعشرة اضعاف ما تساوي وبعد ان خففت له اعلام النصر لم يستنكف من الخدمة في الجيش الروماني ضابطا بسيطا .

سرف كانون حياته في مناهضة الاشراف والنض من بدخهم وتزهم وتجملم وحمل خاصة على امثال القائد سبيون مثما اباهم بالاختلاس الا انه لم ينبج هو ايضا من الصاق التيم به فاتهم اربعا واربعين مرة ولكنه كان يبرا كلما اتهم . وكان يحرق ارضه مع عبيده

وبوا كلهم ويضربهم بالعصي متى رآهم يحيدون عن جادة الصواب وقد ذكر في رسالته في الزراعة التي كتبها الى ابنه جميع ما كان يأتي الفلاحين الرومانيين من الابرادات ويرى ان من الواجب على المرء ان يفتني وكان يقول : « للارملة ان تصرف من مالها وعلى الرجل ان يزيد وكل من شهدت دفاتر حساباته بعد موته بأنه ربح أكثر مما ورث جدير بالشهرة وملم من الارباب » ولما رأى ان الزراعة لا تأتيه بارباح طائلة اخذ يقرض ماله ليحوز به سفناً تجارية واتخذ له خمسين شريكاً جهزوا كلهم معاً خمسين سفينة ليتقاسموا بينهم الاخطار التي نال سفنهم والارباح التي تأتيهم بها . وعلى هذا كان كاتون زارعاً ماهراً وجندياً عظيماً عدواً للبدخ حريصاً على الكسب فهو مثال الروماني الاصيل وانموذج الفضيلة والثبات وعلى العكس منه كان القائد سبيون مثلاً للاهتمام بالفنون والافكار الفلسفية اليونانية فكان سبيون الذي استولى على قرطاجنة ونومانس يتكلم باليونانية وهو صديق المؤرخ اليوناني بوليبي الذي أمسك في رومية رهينة . ولم يكن يهتم بجمع المال وقد دفع الى شقيقاته دفعة واحدة مبالغاً من المال كان عليه ان لا يدفعه اليهن الا في اوقات مختلفة وانازل لاخته وكان اقل منه مالاً عن حصته في ارث ابيه ولم يخلف بعده سوى كمية قليلة جداً من الاواني الذهبية والفضية .

الاخلاق القديمة — مضى زمن طويل على قدماء الرومانيين وهم يتوفرون على زرع حقولهم وقتال عدوهم والقيام بفرائض دينهم حتى كانوا حقاً الرقيقين العاملين الجفاة . فكانوا يزرعون جانباً صغيراً من اقليم لاتيوم اولاسابين . وهم من نسل اللاتين والايطاليين الذين تغلبت عليهم رومية . وقد صور لنا الشيخ كاتون في كتاب له في الزراعة شيئاً من اخلاقهم بقوله : كان اجدادنا اذا أرادوا الثناء على رجل يصفونه بأنه زارع ماهر وحراث مجيد وهذا غاية ما يمدح به انسان (١)

فكان هؤلاء الزراع أشداء في اعمالهم واهل طمع في مكاسبهم وانظم في شؤونهم واقتصاد في نفقاتهم وبذلك كانوا قوة الجيوش الرومانية . ولطالما تألف منهم مجلس الامة أيضاً وكانت لهم القوة العظمى في الانتخابات . فيجيء الاشراف الذين يطمعون في ان ينتخبوا حكاماً الى ساحة السوق ليزوا أيدي هؤلاء الفلاحين . رأى أحد المرشحين انفسهم للانتخابات بد احد الحراثين وهي شنة غليظة فآله : هل تمشي على بديك ؟ وكان السائل من الاشراف ينتسب الى أسرة كبيرة ولكنه لم ينتخب

(١) وقد اورد أيضاً شيئاً من امثالهم القديمة منها : « ادب الزراع من يتنازع شيئاً ما تغله له ارضه » « واحط المقتصدين من يعمل في النهار ما يتأتى له ان يعمل في الليل »

سكن الرومان بيوتاً ضيقة ذات طبقة واحدة لانظام في بنائها وكان الاثر يوماً ناحية من الدار وفيه المكان المقدس وهو مكشوف من أعلاه ينزل منه ماء المطر . والاثاث عبارة عن بضعة حناديق ومقاعد من الخشب . وطعامه بسيط مؤلف خاصة من حساء معمول بالبر ومن خبز وبعض بقول وما كانوا يتناولون اللحوم الا في الاعياد وما شرب النساء الخمر قط والرجال يتناولون منه على الندرة . ولباسهم عبارة عن قميص يلبسون فوقه رداءً من صوف زمن البرد . ويلبس الوطنيون في أيام الاعياد حلة من الصوف مزينة من جهة العنق ويلبسون في أرجلهم نعلاً منسوجة من الصوف ويسجن الاقمشة ويطن الحبوب لجعلها برّاً . ولم يكن للرومانيين من ضروب التسلية الا ان يذهبوا كل تسعة أيام الى السوق أو يحضروا الاعياد التي تقام اكراماً للارباب

كان يرى قدماء الرومان ان الرجل الشديد هو غاية ما تطمح اليه الآمال ويقال ان ان سينيئاتوس كان يسوق محاربه بنفسه عند ما اتاه نواب الامة من قبل مجلس الشيوخ يدفعون اليه الامر بتنصيبه . ولم يكن عند فابريسيوس من الاواني غير كأس وملمحة من فضة . وكان كوريوس وانتانوس وهو غالب السامنيين جالساً على مقعد يأكل بقولا في قصعة من خشب عند ما أتاه مندهو السامنيين ليقدموا اليه المال فقال لهم : اذهبوا وقولوا للسامنيين ان كوريوس يؤثر ان يقود من عندهم ذهب أكثر مما يؤثر ان يكون هو مالكاً له . هذه هي بعض الافايس التي يروونها عن قواد الازمة القديمة وسواء كانت حقيقية او ملفقة فانها تدل على ما كان الرومانيون بعد يذهبون اليه بشأن قدماء اجدادهم

الاخلاق الجديدة - اخذ كثير من الرومانيين بعد القرن الثاني ولا سيما طبقة الاشراف يقلدون الاجانب . وكان زعماؤهم قواداً رأوا بلاد اليونان والشرق عن أم فكثبت الغلبة لسبيون على ملك سورية ولفلامنيوس وبولس اميل على ملوك مكدونية ثم للوكوس على ملك ارمينية . فعزت نفوسهم عن الحياة القاسية الصعبة التي كان عليها اجدادهم وأخذوا يسرون في حياتهم على البذخ والرفاهية وما زال الحال كذلك حتى نسج على منوالهم عامة النبلاء والاغنياء بحيث لم يطلع فجر القرن الاول حتى لم يعد في ايطاليا الاسادة عظام يعيشون المعيشة الشرقية او اليونانية

يرى الشرقيون من دواعي المحب ان يعرضوا للانظار الاقمشة البديعة والاحجار الكريمة واثاث الفضة وأواني الذهب وان يستكثروا في بيوتهم من الخدم على غير طائل

وان بنشروا على الشعب المجتمع دراهم ليدهشوم (١) فكانوا يرغبون في الاعلاق النفيسة
الذادرة أكثر من رغبتهم في النفائس الجميلة المناسبة

واصبح للرومان على شدة عجبهم وضعف استعدادهم في الصناعات ذوق في هذا الضرب
من البذخ فكانوا قلما يحفلون بالجمال أو بالموافق ولم يعرفوا قط الا الأبهة والتخففة فانشؤا
لم يوتوا ذات حدائق متسعة وحشروا اليها التماثيل واقاموا فيها المصايف الزاهية التي تمتد
الى البحر وسط الحدائق المتسعة واستكثروا من الخدم والحشم وأخذوا هم ونساءهم يعتاضون
عن ألبستهم الممולה من الصوف بالشفوف (برنجك - كريشة) واكسية الحرير والقصب
ويفرشون في ولائمهم بسطاً مطرزة وأذرة من الأرجوان وأواني من ذهب وفضة (وكان
عند الحاكم سيللا مئة وخمسون صحفة من الفضة ووزن ما عند ماركوس وروزوس من
الاوراني الفضية عشرة آلاف ليرة) واذا ظل العامة يأكلون قعوداً بحسب عادة الشعوب
الايطالية القديمة فالخاصة من الاغنياء اتبعوا العادة الشرقية في الاكل مضطجعين على
سرهم ثم سرت عادة التأنق في المآكل على الاسلوب الشرقي والاستكثار في الطعام من
الابازير والصباغ (سلسا) والصيد والسمك الغريب ومخاخ الطواويس والسنة الطيور
واستحكم منهم السرف حتى نفدت أحد الحكام سنة ١٥٢ وقد ذكر في وصيته قوله «لالم
يكن الاكرام الحقيقي عبارة عن أبهة باطلة بل هو لتذكر اقدار المتوفى وأجداده فانا أمر
أولادي ان لا ينفقوا على جنازتي أكثر من مليون آس (مئة الف فرنك)»

العلوم الادبية اليونانية -- رأى الرومانيون في بلاد اليونان المصانع والتماثيل والالواح
التي كانت منذ قرون تنص بها المدن وعرفوا الادباء والفلاسفة فصار لبعضهم ذوق في
الصنائع النفيسة واولع آخرون بالحياة العقلية فجعل امثال القائد سبيون حولم اناساً من
اليونان المنورين ولم تطمح نفس بولس اميل من جميع الغنائم التي غنمها جيشه من مكيدونية
الا الى الاستيلاء على مملكة الملك برمي وعهد بتربية اولاده الى اساتذة يونان وبذلك
صارت الكتابة والتكلم باللغة اليونانية من الامور المستحسنة في رومية (٢) واراد الاشراف
ان يظهروا في مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالالوف التماثيل وقلز كورنت المشهور
ان يظهروا في مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالالوف التماثيل وقلز كورنت المشهور

(١) تجد مثلاً من هذا الذوق الشرقي في الابهة الباطلة التي تمثل لك في حكايات
الف ليلة وليلة

(٢) ولذلك كان يخاف الشيخ كاتون عادية اليونان وقد كتب لابنه ما يأتي : اقول ان
ملاحظته في آثينة ان هذا الجنس من اخبت الاجناس واصعبها مراساً الا فاستمع لما اقول
كما تسمع لماتف رباني الا ان هذه الامة اليونانية كلما اتتنا بصناعاتها نفسدنا كلنا

وملأوها بيوتهم . ودخل في ملك الحاكم فريس شي كثير من النفائس والاعلاق جعلها في رواق وكانت مما نبيه من صقلية .

وهكذا اخذ الرومان على التدريج من الفنون ظواهرها ومن الآداب اليونانية قشورها . وسمي هذا التهذيب الجديد فن الادب معارضة للخشونة التي كان عليها اهل الريف من الرومان ومع هذا لم تكن الا قشوراً فقط فلم يعرف الرومان ان الجمال والحقيقة يرغب فيهما لذا تهما بل كانت السماعات والعلوم عندهم اموراً يقصد بها الزينة والبذخ ليس الا . ولم يكن الرومان على عهد شيشرون يعتبرون من اهل الاعمال غير الجندي والحراث والسياسي والتاجر او الحامي اما الكتابة والتأليف والاشتغال بالعلم والفلسفة والنقد فكل ذلك كان يسمى عندهم بطالة . وما قط اصاب ارباب الفنون والعلماء من الاعتبار في رومية ما يساويهم بتاجر غني . قال لوسين احد كتاب اليونان : « متى صرت مثل فيدياس النقاش اليوناني تصنع الف قطعة بدية من النقوش لا يرغب احد ان يثقل مثالك لانك مهما بلغت من الخدمة لا يطلق عليك الا لقب صانع ولست اذ ذاك غير رجل يعيش بكد يمينه »

لوكلوس - ولد لوكلوس وهو مثال الروماني الحديث سنة ١٤٥ من أسرة شريفة وغنية جداً ولذا سهل دخوله في سلك ارباب المناصب والشرف واشتهر في غزواته الاولى بانه يعطف على المغلوبين ويعاملهم باللطف ثم عين قنصلاً وقاد الجيش الذي انتدب لقتال ميتريداس . وقد رأى سكان آسيا ساخطين من كثرة السرقة وفظاعة العشارين فعني بجمل حد لتلك الاعمال وحظر على جنده ان يذهبوا المدن المغلوبة وبذلك جلب لنفسه حب الآسيويين الباطل وبغض العشارين والجنود الخطر . فدست الدسائس لتستدعيه حكومته وكان قد هزم ميتريداس واخذ يطارده وهو سائر الى حليفه ملك ارمينية وقد هزم جيشاً من البرابرة بجيشه الصغير المؤلف من عشرين الف مقاتل فسلبت منه القيادة وسلمت الى بومبي نديم العشارين وحببهم

واذ ذاك اعتزل لوكلوس الاعمال للاستمتاع بما جمعه في آسيا من الثروة واصبح يملك في احياء رومية حدائق غلبا وله في نابولي مصيف قام في البحر مبنياً بالحجر الصلد . وفي توسكولوم قصر صيني وفيه مخف للاعلاق والنفائس فكان يقضي الصيف في توسكولوم بين اصحابه وجماة العلماء واهل الادب يطالع مصنفات اليونان ويبحث في الادب والفلسفة . وتروى عن بذخه حكايات كثيرة . منها انه كان ذات يوم يتغدى وحده فرأى مائدته اكثر بساطة من العادة فوج الطامي فاعتذر بقوله ان عدم وجود الضيوف هو الذي دعاه الى تقليل المآكل فاجابه لوكلوس : « اما علمت ان لوكلوس يتغدى اليوم عند لوكلوس ؟ »

ودعا يوماً قيصر وشيشرون فقبلا دعوته على شرط ان لا يغير شيئاً من عاداته فاكتفى لوكلوس بان قال لاحد الخدمة فقط اجعل الطعام في قاعة ابولون وكانت المأدبة على غاية من التأنق بحيث عجب منها المدعوان . ولما سُئِلَ عن اخلاله بشرط الضيافة قال انه لم يأمر بشيء وان نفقات طعامه محددة بحسب القاعة التي تجمل فيها وان بسط الموائد في قاعة ابولون لا يمكن ان يكلف اقل من خمسين الف فرنك

وظلَّ لوكلوس في رومية يمثل الاخلاق الجديدة كما كان كاتون يمثل الاخلاق القديمة ويرى قدماء الرومان ان كاتون هو الروماني الصالح وان لوكلوس هو الروماني الفاسد ومع هذا فقد كان لوكلوس يعتمد عن عادة الاجداد ولذلك كان واسع المدارك حسن التربية لطيف المأثى مفطوراً على العطف على الخدم والرعايا .

الاتقلاب الديني والعقلي

العبادات الجديدة — لم يكن بين ارباب الرومان وارباب اليونان من شبه حتى في الاسماء ومع هذا اعتقد اليونان بان معظم الارباب المعبودة في رومية كانت اربابهم احبوا ان يعترفوا بانها كذلك . والى ذاك العهد لم يكن للارباب الرومانية شكل خاص ولا تاريخ معين وهذا مادعا الى الارتباك في حالتها فخرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخاً وحكايات .

فخلطوا بين المشتري اللاتيني وزيوس اليوناني وجونون مع هيرا ومنيرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانوس مع اريثيس الصيادة البديعة ومزجوا هر كول رب السواد بهيرا كليس الغالب على الفيلان . وهكذا دخلت الميثولوجيا اليونانية تحت اسماء لاتينية واستحال ارباب رومية الى ارباب يونان . امتزجت الارباب بعضها ببعض حتى اعتدنا ان نطلق على الارباب اليونانية اسماء لاتينية فلا تزال نقول اريثيس ديان وبالاس منيرفا . وبالميثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان ان يصوروا اربابهم في تماثيل كما اقتبسوا ايضاً بعض الاحتفالات اليونانية وكانت الحكومة الرومانية ادخلت الى بلادها عبادة ابولون وبدأ بعض الافراد يعبدون باخوس رب الكرم . ويحفل من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سرّاً ولا يطلعون احدًا على خفايا العبادة الباخوسية واخذ المجلس يحقق فرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعة أشخاص بين رجال ونساء اشتركوا معاً في هذه الاسرار فقصى عليهم بالموت .

ثم ان الرومان اخذوا ايضاً يعبدون ما يعبد شعوب الشرق فقد كان سنة ٢٢٠ سفي

رومية معبد للرب سيرايس المصري فامر مجلس الشيوخ بهدمه فلم يجسر احد الفعلة على ذلك وبقى المعبد لا يمس بسوء حتى جاء القنصل بنفسه ففرض ابوابه بالفأس وبعد سنين اي في سنة ٢٠٤ خلال حرب هانيبال بعث مجلس الشيوخ الى آسيا الصغرى بوفد للبحث عن المعبودة سيبيل وكانت هذه الام الكبرى كما كانوا يدعونها مصورة على حجر اسود فاتى بها مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال حافل وجعلوها في رومية وقد لحق بها كهنتها واخذوا يطوفون الشوارع على اصوات الزامير والصنوج لابسين البسة شرقية وهم يتوكفون الاكف على الابواب

ثم غصت بلاد ايطاليا بالسحرة من الكلدان ولم يكن العامة يعتقدون وهدم بهؤلاء العرافين . ولا هدد براءة السحرة مدينة رومية سنة ١٠٤ تقدمت عرافة من سورية اسمها مارتا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بانها تنوسط في غلبة رومية على عدوتها فطردوها مجلس الشيوخ ولكن النساء الرومانيات بعثن بها الى المعسكر فابقاها مازيوس القائد العام لديه وما فتىء يأخذ رأياها الى ان وضعت الحرب اوزارها . ورأى سيللا في نومهرية كابودسيا فعمل بنصيحتهما وسار الى ايطاليا .

السفسطائيون — لم يكن يأتي الى رومية كهنة وعرافون فقط بل كان ينزل فيها فلاسفة يحنقرون الدين القديم . ومن اشهرهم كارنياد سفير الآثينيين فانه كان يصرح بافكاره في رومية امام الجمهور فيخف شبان الرومان الى سماع اقواله حتى اراد مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة الا ان الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وآثينة حتى اصبح من السنن المألوفة ان يبعث الرومان بفتيانهم الى تينك المدينتين يتعلمون فيها الفلسفة

وفي القرن الثالث قبل المسيح ألف الفهمير اليوناني كتابا نبى فيه وجود الارباب وانما ليست الا رجالا ألهمهم الناس حتى ان المشتري نفسه كان ملكا على كريت . فانتشر كتابه اي انتشار ونقله الشاعر انيوس باللاتينية . وعلى هذا النحو اخذ اشراف رومية يتسخرزون من اربابهم ولم يقبوا من الدين القديم الا على مراسيمه وظواهره (١) وكان اهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات اعتقاد سفسطائيين لا يؤمنون بشيء الحياة العقلية — كان غاية ما يعلم اليونان الاقدمون اولادهم القراءة فقط في الزمن الذي كان فيه بوليب في رومية (قبل سنة ١٥٠) ويعهد المحدثون من الرومان بتعليم ابنائهم الى مربين من اليونان ولذلك افتتح اناس من اليونان في رومية مدارس لتعليم الشعر والبلاغة والموسيقى . وكانت الاسرار الكبرى تنقسم الى اناس يتعلمون على الطريقة القديمة وآخرين

(١) قال شيشرون : يجب ان نبقي على عادة اخذ الطالع لثلاث العامة في معتقداتهم

على الحديثة . ولكن بقي في الازدهار شيء من الموسيقى والرقص فكانوا ينظرون اليهما بانهما من الصناعات المهينة بمن يتعاطاها اذا كان كريم المحدث . قال سبيون املين حامي اليونان في كلامه على مدرسة رقص كان يختلف اليها بنون وبنات من الخاصة : ما كنت اتوم عند ما ذكر لي ذلك ان اناساً من الاشراف يعملون مثل هذه الامور لاولادهم ولما اخذوا يدي الى مدرسة الرقص رأيت فيها زهاء خمسمائة صبي وفتاة وفي جملتهم ولداً ثرياً في الثانية عشرة من عمره وهو احد المرشحين للانتخابات يرقص على نغمت البوق "كروتال" وقال سالوست في كلامه على عقيلة رومانية قليلة الاعتبار انها كانت تضرب على الطنبور وترقص احسن مما يليق بامرأة محتشمة .

التريّة — استهوى نساء الرومان حب الاديان الشرقية والبذخ الشرقي في اسرع ما يكون فكان يذهبن زرافات زرافات الى معابد باخوس ومساجد ايزيس . وقد سنت لهن قوانين ليمنعن بها من لبس الالبسة الثمينة وركوب العجلات واتخاذ الخلي والجواهر ولم تلبث ان أُلغيت فصار النساء في حلّ من ان يلبسن كالرجال ما يشأن وانقطع النساء النبيلات عن العمل والجلوس في بيوتهن وانشأن يخرجن في أبهة ويختلفن الى دور التمثيل والملاعب والحمامات والمجتمعات . واذ كنّ بلا عمل ومن الجهل على جانب سرى الفساد اليهن في الحال حتى اصبح النساء الطاهرات في طبقة الاشراف من النوادر

سقط النظام القديم في تربية الاسرات وجعل القانون الروماني الزوج سيد زوجته وابتدعوا ضرباً جديداً من الزواج يجعل المرأة تحت تصرف ابوها ولا يكون للزوج اذى سلطة عليها وكان الآباء يجهزون بناتهم بجهاز وصدّاق ليجعلوهن اكثر استقلالاً .

وكان من حق الزوج وحده ان يطلق امرأته ومن العادة ان لا يحاد عن هذا الحق الا في احوال استثنائية شديدة فصار للمرأة الحق ان تترك زوجها واصبح منذ ذلك العهد من اهلين اللين ان يفصم الزوجان عرى ارتباطهما ولم يعودا يحتاجان الى حكم حاكم ولا الى سبب مشروع ويكفي احد الزوجين متى استاء من زوجه ان يقول له : « احمل ما يخضك واعد لي ما املكه » وبمد الطلاق يتيسر لكل منهما بل للمرأة ايضاً ان يتزوجا في الحال .

وبلغت الحال في الطبقة الرومانية العالية ان تعتبر الزواج عقداً مؤقتاً فقد تزوّج سيللا بخمسة نساء وقصر باريق وبومبي بخمسة والطونبوس باريق . وتزوجت ابنة شيشرون من ثلاثة رجال وطلق هورتانسيون زوجته ليزوجها من احد اصدقائه

يبد ان هذا الفساد لم يُصب غير اشراف رومية ومن هذا حذوهم من اهل النعمة الحديثة

اما في أسرار رومية والولايات فقد حفظت قروناً آداب الدور القديم القاسية الشديدة واخذت تربية الاسرة ترق شيئاً فشيئاً والمرأة تحرر من استبداد الرجل يبطئ

التبدل الاجتماعي

زوال الطبقة الوسطى — كان الشعب الروماني القديم مؤلفاً من صغار ارباب الاملاك وهم يتعاطون زراعة حقولهم بانفسهم ومن هؤلاء الفلاحين الصالحين الاقوياء بتألف الجيش والمجلس . وكان عددهم كثيراً سنة ٢٢١ خلال الحرب الفينيقية الثانية . وفي سنة ١٣٣ لم يبق منهم احد . لا جرم انه هلك منهم كثيرون في الحروب التي اعلنتها رومية على البلاد القاصية ولكن هلاكهم يحصل في الاكثر على انه كان من المتعذر عليهم البقاء . فقد كانوا يعيشون من زراعة القمح عند ما اخذت ترد على رومية حبوب صقلية وافريقية فسقطت اسعار الحنطة بحيث لم يتيسر للحرثين الايطاليين ان يستخرجوا من غلاتهم ما يغذون به اسرانتهم و يتحملوا اعباء الخدمة العسكرية فقضي عليهم من ثم ان يبيعوا حقولهم فيبتاع كل غني من جاره الفقير ارضه فغدت الحقول الصغيرة ملكاً عظيماً لواحد وصير ارباب الاملاك من تلك الاراضي مروجاً يقيمون فيها ماشيتهم واذا عن لهم ان يزرعوها يبعثون اليها برعاة وحراثين من العبيد بحيث لم يمض قليل حتى لم يبق على ارض ايطاليا الا بعض كبار ارباب الاملاك وجماعات من العبيد . وكان بلين القديم يقول ان الاملاك العظيمة قد اخطأت ايطاليا ومع هذا فالدوائر العظمى هي التي قضت في الارباب على احرار الفلاحين . فصاحب الارض القديم الذي اباع حقله لم يستطع ان يبق اجيراً بل قضي عليه ان يتخلى عن مكانه ليحل محله العبيد وبذا اصبح دائماً على وجهه لاعمى له ولا شغل قال فارون في رسالته في الزراعة ان معظم زعماء الاسرات دخلوا بيوتنا تاركين المنجل والمحراث وآبوا يؤثرون التصفيق بايديهم في الملاعب على العمل في حقولهم وكرومهم .

الطبقات الاجتماعية — ليس الشعب في رومية كما هو في يونان عبارة عن مجموع السكان بل هو مجموع الوطنيين وكل رجل ينزل أرض البلاد لا يعد وطنياً بل الوطني هو الذي له حق التمتع بحقوق الوطنية . وللوطني عدة امتيازات فله الحق وحده ان يكون عضواً في الهيئة السياسية وله الحق وحده ان يقترح في مجالس الشعب الروماني وان يخدم في الجيوش الرومانية ويحضر احتفالات رومية المقدسة ويتخب حاكماً رومانياً وهذا ما يسمونه بالحقوق العامة . وللوطني الحق وحده ان يحميه القانون الروماني ويحق له فقط ان يتزوج على طريقة مشروعة ويكون رب أسرة أي حاكماً مطلقاً على زوجته وأولاده وان يوصي بما يشاء ويبيع ويبتاع ممن يشاء وهذا ما يسمونه بالحقوق الخاصة

ولا يحرم من لم ينالوا حق الوطنية الرومانية من الخدمة في الجيش وانجلس فقط بل لايسوغ لهم ان يكونوا ازواجاً ولا آباء ولا أصحاب أملاك مشروعة ولا ان يتقاضوا الى القانون الروماني ويحاكموا في المحاكم الرومانية ولذا تألفت من الوطنيين طبقة من الاشراف بين سواد الامة من غير طبقتهم الا لا يتساوون بينهم أيضاً . فبينهم فرق في الطبقات أو كما يقول الرومان في الصفوف .

النبلاء - النبلاء هم في الصف الأول من الامة فكل وطني يعد في النبلاء اذا سبق لاحد أجداده ان تولى شيئاً من امر الامة لان الحكم في رومية من علائ الشرف ينبل به من تولاه كما يكون بضة شرف لاخلافه من بعده . اذا نصب احد من الوطنيين ناظر المملع والابنية أو قاضياً أو قنصلاً تخلع عليه خلة مطرزة بالارجوان ويخ كرسياً كالعرش ويحق له ان يرسم ويصور . وهذه الصور عبارة عن تماثيل صغيرة تعمل من الشمع ولا ثم تطل بالفضة وتجعل في مزار الدار (اتريوم) بالقرب من الكانون وارباب البيت وتجعل في مخدع خاصة بها كما تجعل الاصنام ويعبدها الذرية من اهل البيت . وحتى مات احد في الاسرة يخرجون الصور ويجرونها على مركبة في موكب يأخذ احد انساب المتوفى بعد صفاته ويرثيه . وهذه الصور هي التي تشرف الاسرة كلما احتفظت بها . وكلما كثرت الصور في أسرة تزداد شرفاً فيقولون فلان شريف بصورة او شريف بعدة صور . والاسر الشريفة في رومية قليلة جداً (ولم يكن فيها اكثر من ثلثائة امرة لان المناصب التي تولي صاحبها شرفاً توسد في الغالب الى اناس حازوا الشرف من قبل

الفرسان - تجي طبقة الفرسان بعد طبقة النبلاء . وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعهد لهم جدود من الحكام فتقيد ثرواتهم في سجلات الاحصاء وينبغي ان لا يقل ما يملكه احدهم عن اربعمائة الف سسترس (او مئة الف فرنك) منهم التجار والصيارف والملتزمون وهم لا يحكمون بل يغتنون . ولهم في دور التمثيل اما كن خاصة بهم تقع الى ما وراء مقاعد طبقة الاشراف . وربما ساع للفراس منهم ان ينتخب حاكماً وعندها يدعونه الرجل الحديث الثعمة و يصبح ابنه شريفاً

العامة - العامة هم غير طبقة الاشراف والفرسان فهم جمهور الامة ويكونون من نسل ابناء البلاد في ايطاليا وينقلون من فلاحين اصحاب املاك الى وطنيين رومانيين . ويعد في طبقتهم العبيد المعترفون او قدماء العبيد وابناؤهم . ويحافظون على مميزات اصولهم ولا يقبلون في خدمة الجيش الروماني ولا ينتخبون الا بعد غيرهم . ولقد مضت ازمان وصغار ارباب الأملاك يؤلفون السواد الاعظم من الامة وبينما كانت الارباب تصغر من قلة

الناس غصت رومية بالواردین علیہا فانہال علیہا اليونان والسوریون والمصریون والآسیویون والافریقیون والاسبانیون والغاللون ممن أخذوا من بلادهم ویعوا یبع العبید ثم اعتقہم موالیہم فاصبحوا وطنیین ضاقت بہم المدينة فہم كانوا شعباً جدیداً لیس لہم الرومانية غیر اسمہا

خطب سبیون غازي قرطاجنة ونومانس جمہورا من الناس في احدى الساحات فقاطعه العامة باصواتہم فقال لم : « صر ایہا الابناء الادعیاء المنتسبون لا یطالیا زوراً فمن العبت ما نفعولون لان من جالبتہم الى رومية مقیدین لا اہلہم ولو حلت قیودہم » وھذہ الطبقة الجدیدة من السوق تعيش بکدحہا او یقفی علی الحکومة ان نطمعہا وقد اخذت الحکومة سنة ١٢٥ تقدم لمامة الوطنیین حنطة بنصف ثمنہا المعتاد تأتيہا من صقلية وافریقیة . ومنذ سنة ٦٣ اخذت توزع الحنطة تجاناً وتشفعہا بزیت . ورأى قیصر سنة ٤٦ ان من كانوا ینناولون ھذہ الجرایة بلغوا ٣٣٠ ألفاً

العبید - جمیع الاسرى وسكان البلد المفتوح ملك للفتح یتصرف فیہم فاذا بقی علیہم ولم یقتلہم یستعبدہم . ھکذا كان الحق القديم . وقد ظل الرومان یعملون بہ بالحرف یعاملون الاسرى كأنہم بعض الغنیمة یبعونہم من الخناسین الذین یتبعون الجیش واذا حملوہم الى رومية فانما یحملونہم لیبیعوہم فی المزاد (١) وھکذا كانوا یبعون عقیب کل حرب الوقاً من الاسرى رجالاً ونساءً والاولاد الذین یولدون من اسیرات یكونون اسرى کامہاتہم فالام المغلوبة للرومانیین ہی مادة الرقیق الرومانی

العبید ملك صاحبه فهو لا یعتبر اعتبار شخص بل اعتبار متاع فمن ثم لیس لہ حق من الحقوق فلا یكون وطنیاً ولا مالکاً ولا زوجاً ولا أباً . قال احد الابطال فی رواية ہزلیة رومانية : « ای شیء ھذا أعرس عبید ! ما اعجب عبداً یتزوج ! ان ھذا مخالف لعادة جماع الام » .

ولئولی جمیع الحقوق علی عبده یرسلہ حیث یرید ویشغلہ علی ما یرى بل یشغلہ اکثر من طاقته ویطمعہ اخشن طعام ویضربه ویعذبہ ویقتلہ دون ان یسألہ احد عما جنى . وعلى العبد ان یخضع لرغائب سیدہ کما . ویقول الرومان ان العبد لا وجدان لہ وان الواجب علیہ ان یطیع مولاه طاعة عمیاء فاذا قاوم او ابق من بیئہ فالحکومة تعاون سیدہ علی قمع

(١) نقام سوق الرقیق فی کل مدينة ذات شأن کما نقام سوق للبقر واخیل فیعرض العبد الذی یراد بیعہ علی دكة وقد نیطت فی عنقه بطاقة کتبت فیہا سنہ وصفاتہ وعبوہ

جماحه او القبض عليه وكل من يؤوي عبداً آبقاً تجري عليه احكام اللصوص كأنه مرق بقره او حصاناً لغيره .

والعبيد في المملكة الرومانية اكثر من الاحرار ويملك اغنياء الوطنيين من عشرة الى عشرين الف عبد وعند بعضهم منهم من يكفون لتجنيد جيش كامل . وكان لسيلوس ايزدوروس احد قدماء العبيد زهاء اربعة آلاف عبد وكان عند هوراس سبعة اعبدة فكان يشكو من فقره . ومن علائم الفقر في رومية ان لا يملك المرء سوى ثلاثة اعبدة . واذ كان العبيد يعملون اشق الاعمال او يتربسون في البطالة مكرهين وهم ابداء عرضة للضرب بالسياط والتعذيب اصبحوا بحسب فطرتهم اما متوحشين اغبياء او اندالاً مستعبدين ومن كان منهم على شيء من الشهامة يتحرون وغيرهم يعيشون كالألة الصماء . وكان الشيخ كاتون كثيراً ما يقول : على العبد دائماً ان يعمل او ينام . ومعظم العبيد يفقدون الاحساس والشرف ولذلك كانوا يقولون هذا عمل عبيد يريدون به انه دنيء رذل

الحياة السياسية

الحكام — ينتخب الشعب كل سنة رجالاً يتولون امره ويفوض اليهم السلطة المطلقة ويطلق عليهم اسم الحكام « اي ولاية الامر » فيسير امامهم حملة الفؤوس يحملون حزمة من القضبان وفأساً . ومعنى هذا الرمز ان للحاكم ان يضرب ويقتل على ما يراه مناسباً ومن حق الحاكم ايضاً ان يرأس مجلسي الامة والشيوخ وان يكون له محل في المحكمة ويقود الجيوش وهو السيد المسود في كل مكان فيجتمع المجلس ويفضه بحسب ما يرى ويصدر الاحكام برأيه وحده .

وفي زمن الحرب يفعل ما يشاء بالجند ويقتلهم دون الرجوع الى رأي ضباطهم . وقد كان مافليوس القائد الروماني في احدى الحروب التي أعلنت على اللاتين حظر على الجنود الخروج من المعسكر فدعا احد المقاتلين من جيش العدو ابنه الى المبارزة فخرج لبرازه وقتله فلم يعم مافليوس ان قبض على ابنه واعدمه في الحال .

وللحاكم بحسب التعبير الروماني سلطة ملك ولكن هذه السلطة قصيرة موزعة وذلك لانه لا ينتخب الا لسنة واحدة وله رصفاة لم مثل سلطته في رومية فنصلاان او حاكمان يتوليان امر الامة وقيادة الجيش وفيها عدة قضاة يتولون الحكم او القيادة بالنيابة ويصدرون الاحكام وهناك كثير من الحكام ومراقبان واربعة نظار للابنية والملاعب للنظر في الطرق العامة والاسواق وعشرة محامين عن حقوق السوق وصيارفة يتولون النظر في خزائن المملكة الاحصاء — ارقى الحكام هما الوكيلان المسيطران وهما مكلفان كل خمس سنين

بمنظم احصاء للشعب الروماني فيتمثل امام المكافين باحصاء جميع ابناء البلاد ليدكرها
 وهم يقسمون الايمانات — اسماءهم وعدد اولادهم وعبيدهم ومقدار ثروتهم يقيد كل ذلك في
 سجلات خاصة . والقائمان باحصاء الامة هما اللذان يكتبان قائمة باسماء اعضاء مجلس
 الشيوخ والفرسان والوطنيين ويحددان اكل واحد مقامه في المدينة ثم هما مكلفان ايضاً
 بان يحفلا احتفال الثريا وهي حفلة عظمى تقام للتزكية كل خمس سنين فيجتمع ذاك اليوم
 عامة الوطنيين في ساحة المريج اجتماعهم في حرب ويطوفون ثلاث مرات حول المجلس يحملون
 ثلاث ضحايا لتكفر عن السيئات وهي عبارة عن ثور ونجعة وخنزير يخنقونها ويرشون المجلس
 بدمها وبذلك تصبح المدينة مزكاة مطهرة وسلماء مع الارباب .

وللقائمين بالاحصاء الحق ان يقيدا وان يجعللا كل انسان في المنزلة التي يربانها ولها
 ان يجردا احد الشيوخ باسقاطه من قائمة مجلس الشيوخ وان لا يحسبا احد الفرسان في جملة
 اهل طبقته او بحرمان احد الوطنيين بان يحذف اسمهم من سجلات القبائل . ويسهل عليهما
 عقاب من يرهنهم مجرمين ويتجاوزان عن السيئات التي لا تقدر بمنطوق القانون . ولطالما
 رأوها يجردان الوطنيين لانهم لم يحسنوا التوفر على حقوقهم ولصرفهم كثيراً على خدمهم وسجنوا
 احد الشيوخ لانه كان يملك عشر ليرات من الاواني الفضية واخر لانه اهمل تعهد قبور
 اجداده . وغيره لانه طلق زوجته . هذه السلطة المفرطة هي ما يطلق الرومان عليه
 « حكومة الاخلاق » فوكيلا الاحصاء هما سيدا المدينة على الجملة .

جلسة مجلس الشيوخ — يتألف مجلس الشيوخ من نحو ثلثائة رجل يعينهم وكيل الاحصاء
 الا ان هذا لا ينصبهم كيفما اتفق فلا ينتخب من ابناء البلاد الا الاعنياء اصحاب المكناة
 وسلالة الاسرات الكبرى ومعظمهم من قدماء الحكام ويختار على الاغلب دائماً اناساً كانوا
 في المجلس من قبل بحيث ان عضو مجلس الشيوخ يبقى في هذا المنصب طول حياته . فمجلس
 الشيوخ هو محل اجتماع رجال رومية ولذلك كانت لهم سلطة وسطوة

فاذا حدث امر يجمع احد الحكام اعضاء الشيوخ في احد المعابدو يعرض عليهم المسألة
 ثم يسألهم رأيهم فيها فيجيبه كل واحد بمفرده مراعين في ذلك مراتبهم في الشرف وهذا ما
 يدعى اخذ رأي مجلس الشيوخ ويسطر الحاكم بعد ذلك رأي الاكثرية وهذا ما يسمونه
 مرسوم ديوان الاعيان او الشيوخ ويكون قرارهم عبارة عن رأي لان ليس من حق مجلس
 الشيوخ ان يقنن القوانين . بيد ان رومية تعمل بهذا الرأي عملها بأمر مفروض . وللشعب
 ثقة بشيوخه لعلمه بانهم اكثر خبرة منه ولا يجراً الحكم على مقاومة مجلس مؤلف من
 اكفاء يساوونهم في الشرف . ولذلك كان المجلس يفض جميع المسائل فيقرر الحرب ويعين

عدد الجيوش ويقبل السفراء ويعقد السلم ويفرض الدخل والخرج فيصدق الشعب على قراراتهم والحكام ينفذونها . وفي سنة ٢٠٠ قرر مجلس الشيوخ اعلان الحرب على ملك مكدونية فاجس الشعب خيفة ولم يوافق على ذلك فصدر امر مجلس الشيوخ بجمع المجامع من جديد وان يلقي عليهم خطاب يكون ابلغ في اقتناعهم من الخطاب الاول وعندها لم يسمع الشعب الا الموافقة . وبذلك رأيت ان الشعب في رومية كان يحكم كما يحكم الملك في انكلترا ولكن كان الحكم لمجلس الشيوخ

المجلس والانتخابات — تسمى حكومة رومية « الجمهورية » اي متاع الشعب وجماعة الوطنيين المدعوين شعباً كأنهم سادة مسئولون في المملكة فتم الذين ينتخبون الحكام ويوافقون على الحرب والسلام ويسنون الشرائع ويقول الفقهاء ان القانون هو ما امر به الشعب والشعب في رومية كما في آثينة لا يعين نوابا وعليه ان يوافق على كل شيء بنفسه حتى ان حكومة رومية بعد ان قبلت في المدينة زهاء خمسمائة الف رجل كانوا مشغولين في اطراف ايطاليا كلها اضطر الوطنيون للحصول على حقوقهم ان يحضروا بالذات الى رومية .

ويجتمع الشعب في الساحة ويسمى المجلس « المجتمعات » يدعو الحاكم الى الالتئام برياسته وكثيراً ما يدعى الوطنيون الى الاجتماع بصوت البوق فيذهبون الى ميدان العمل (ساحة المريخ) يصطفون فرقا تظلمهم اعلامهم وعندها يتألف منهم مجتمعات ذات فرق وكثيراً ما يجتمعون في ساحة السوق « الفوروم » منقسمين الي ٣٥ جماعة يسمونها القبائل فتدخل كل قبيلة في نوبتها الى مكان مسور بسدود لتوافق على ما تقرره وتسمى المجتمعات بحسب القبائل . والحاكم الذي جمع المجلس يبين له المسألة التي يجب عليه الموافقة عليها ومتى فعل ينفض . فمن ثم كان الشعب حاكماً ولكنه اعتاد الخضوع لزعائمه .

والمجلس ايضاً هو الذي يختار كل سنة الحكام فينتخب بحسب الفرق جميع الحكام الذين كان انتخابهم قديماً مثل القناصل والقضاة وكلاء الاحصاء ونظار الابنية والملاعب . ومجلس القبائل ينتخب حكام اهل الطبقة المتوسطة ومحامي الشعب ونظار ابنية الشعب . وقد ضاقت ساحة الفوروم منذ القرن الثاني فاخذت تجتمع جميع مجالس الانتخابات في ساحة المريخ لنقسم الرحبة بمحاجز ذات مراتب صفيرة نلقب بمحاجز الغنم فنقطع كل قبيلة الى احدى تلك الرحاب وتلاحظ كل قبيلة اكثرية الوطنيين في التصويت اذ ليس لكل قبيلة غير صوت واحد .

سلك المناصب — ليس تولي الحكم او المشيخة عن الامة في رومية صناعة من الصناعات فان الحكام والشيوخ يصرفون وقتهم وما هم دون ان ينالوا اجرا فنصب الحكم في رومية

يعدّ من دواعي الشرف فلا يتطالّ اليه غير الاشراف او الفرسان على الاقل على شرط ان يكونوا اغنياء ثم لا يطمع امرؤ ان يبلغ ارق مناصب الحكم الا بعد ان ينقلب في المناصب الاخرى ومن اراد يوماً ان يحكم على رومية يجب عليه أولاً ان تكون له في الجيش عشر وقائع وحملات وبعدها يسوغ له ان ينتخب صرافاً فيمهد اليه النظر في احدى خزائن المملكة . ثم يصير ناظرًا للابنية والملاعب فينظر في امور الشرطة والبياعات وبعد ذلك ينتخب قاضياً ليجري احكام العدل وعقيب ذلك يصبح قنصلاً فيقود جيشاً ويرأس المجالس وعندئذ تحدّثه نفسه بان يكون وكيل احصاء وهذه هي الدرجة التي دونها في العلوكل درجة لا يبلغها المرء قبل ان يبلغ الخمسين من العمر . فترى بهذا ان رجلاً واحداً يكون مالياً وادارياً وقاضياً وقائداً وحاكماً قبل ان يتولى وظيفة وكيل الاحصاء الغريبة وهي عبارة عن تنظيم المجتمع وتسمى سلسلة هذه الوظائف سلك المناصب ولا تدوم كل وظيفة من هذه الوظائف الا سنة واحدة والارثقاء للوظيفة التالية يقضي انتخاب جديد . ويجب على الموظف في خلال السنة التي لتقدم انتخابه ان يظهر في الشوارع بلا انقطاع ويسير كما يقول الرومان او يطعم في امتياز المنصب وان يلتبس اصوات الشعب والعادة في خلال هذه المدة ان يلبس حلة بيضاء وهذا معنى مرشح باللغات الافرنجية اي المكتسبي بالبياض .

ادارة الولايات

الشعوب الخاضعة — ما انقضى القرن الاول قبل المسيح الا وقد اخضعت رومية عامة الاقطار الواقعة حول البحر الرومي منذ اسبانيا الى آسيا الصغرى ولم تضاف هذه البلاد الى المملكة الرومانية ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولم تغد ارضهم ارضاً رومانية بل ظلوا غرباء وانضموا فقط الى هذه المملكة اي انهم اصبحوا تحت استيلاء الشعب الروماني كما ان الهنود اليوم ليسوا وطنيين انكليزاً بل هم رعايا انكلترا والهند جزء لا من انكلترا بل من المملكة الانكليزية فقط

فلا يصبح سكان البلاد المغلوبة وطنيين في رومية بل يبقون غرباء اجانب ولكنهم رعايا الشعب الروماني يؤدون اليهم الجزية وعشر غلاتهم واثاوة من المال ورسماً على كل رأس وعليهم ان يخضعوا لجماع ما يأمر ونهيم به واذ ليس في استطاعة الشعب ان يحكم بالذات ليعت بحكام يندبهم لان يحكموا عنهم وكل بلد خاضع لوال كان يسمى ولاية ومعناها «المعنة» كان في اواخر عهد الجمهورية (في سنة ٤٦) ١٧ ولاية منها عشر في ايربا وخمس في آسيا وثنان في افريقية ومعظمها متناحية الاطراف جداً فلم تكن بلاد الغال كلها سوى اربع ولايات واسبانيا ولايتين . قال شيشرون ان الولايات املاك الشعب الروماني فاذا اخضع

هذه الشعوب بأسرها فذلك طمعاً في فائدها لا لاجل منفعتها ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استئثارها .

الولاية — يتخذ الشعب حاكماً لإدارة كل ولاية وهو اما ان يكون قنصلاً او قاضياً خرج من الوظيفة فيطيل امد سلطته وليس هذا الموظف الكبير قنصلاً بل هو وال يرب عن القنصل والوالي كما للقنصل سلطة مطلقة يسير فيها على هواه لانه وحيد في ولايته (١) وليس لديه حكام آخرون ينافونه السلطة ولا محامون عن الطبقة الوسطى ليصدوه عما يريد ولا مجلس شيوخ يسيطر على اعماله فهو وحده بقود الجيوش ويحملهم على القتال وينزل بهم حيثما يشاء فيتخذ له مقاماً في محكمته حاكماً بالغرامة والسجن والموت ويصدر ايامر تكون قانوناً متبعاً وله وحده السلطة المالية لان فيه يتجسد الشعب الروماني

وكان هذا الحاكم الذي لا يقاومه مقاوم مستبداً حقيقياً فيقبض على من يريد ويحبس ويضرب بالعصي ويعدم من لا تروق له حالتهم واليك مثالا من ألوف الامثلة التي كانت الحكام يجرّون فيها مع الهوى كما رواه احد خطباء الرومان قال : " جاء القنصل مؤخراً الى تيانوم فخطر لامرأته ان تلذذ بالاستحمام في حمامات الرجال فاخرج من الحمام الرجال الذين كانوا يستحمون فيه فشكت المرأة من ابطائهم وقلة استعداد الحمام فنصب القنصل عموداً في الساحة العامة واحضر اشهر رجل في المدينة يجعله عليه فجرد من ثيابه وضرب بالعصي والوالي يأخذ من ولايته ما يستطيع من المال وينظر اليها كأنها ملك له ولا تعوزه الوسائط لاستئثارها بل يمد يديه الى خزائن المدن وينزع التماثيل والحلي الموضوعة في المعابد ويجبي من السكان الاغنياء اتاوات من المال او البر . واذ كان له الحق ان ينزل جنوده حيث اراد فالمدن تقدم له المال لتعفى من قبول جنوده واذ كان في حل من ان يعدم كل من يترأى له فالافراد يعطونه المال ليأمنوا غائلته . واذا طلب شيئاً فنياً او مبلغاً من المال يجاب في الحال الى ما طلب ولا يجراً امرؤ ان يأبى عليه طلبه . واتباعه يسبّرون على مثاله وينهبون باسمه بل بحمايته ويسرع الوالي في جمع المال اذ الواجب عليه ان يغني في سنة وبعدها يعود الى رومية ويخلفه آخر يعود بمثل ما بدأ فيه سلفه .

على ان هناك قانوناً يحظر على كل وال ان يقبل هدية ومحكمة مخصوصة (منذ سنة ١٤٩) ننظر في دعاوي الاختلاس . بيد ان هذه المحكمة تؤلف من طبقة الاشراف والفرسان الرومانيين فلا يرون ان يحكموا على ابن بلدهم والعاقبة المهمة في هذه الطريقة كما قال شيشرون

(١) كانت تبقي رومية في بلاد الشرق بعض اقبال اي ملوك صغار مثل الملك هيرود في بلاد اليهودية ولكنهم يؤدون الجزية ويخضعون للحاكم او الوالي الروماني .

ان يضطر الوالي الى بسط يده في السلب من ولايته ليتسنى له ان يريشي المحلفين في المحكمة ولا ينبغي العجب اذا رأينا اسم الوالي مرادفاً لاسم مستبد ومن اشهر هؤلاء اللصوص فيريس والي صقلية وقاضيا وقد خطب في بيان اعماله الخطيب شيشرون لاسباب سياسية خطبها اشتهر بها ومن المحتمل ان كثيرين مثله قد اتوا ما اتاه .

العشارون -- كان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والفضائب والحقول الناحلة لزراع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين فكان هؤلاء مثل المزارعين العموميين في فرنسا قديماً يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنيهم وفود الشعب الروماني وكان في كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والحباية يظهرن في مظهر السادة وبناتلون أكثر مما يجب لهم اخذه ويسلبون نعمة الاهلين وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق وكانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب ولما طلب مار يوس من ملك بينيتا ان يقدم له جنداً أجابه الملك ان العشارين لم يبقوا عنده من الرعايا غير النساء والاطفال والشيوخ وقد عرف الرومان هذه المظالم حق معرفتها وكتب الخطيب شيشرون الى اخيه وكان هذا حاكماً اذ ذاك : « اذا وفقت الى طريقة ترضي بها العشارين دون ان تهلك سكان الولايات فتكون قد رزقت مهارة رب » بيد ان العشارين كانوا قضاة في محاكمهم حتى ان الولاة انه هم خاضعون لهم . وقد اراد سكاروس والي آسيا المشهور بالافراط في العفة ان يمنع العشارين من اطالة اليد الاذى في ولايته فلما عاد الى رومية رفعوا عليه شكوى وحكموا عليه

ولطالما اثار العشارون سخط سكان الشرق الخاضعين الساكنين فقد ذبحوا بامر ميتريداس في ليلاة واحدة مئة الف روماني وبعد ثزن اي على عهد المسيح كان اسم عشار مرادفاً لاسم لص .

الصارف -- جمع الرومان في بلادهم ثروة الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة جداً في الولايات فكان في رومية يمكن الافتراض بفائدة اربعة او خمسة في المئة اما في الولايات فلا يجد المستدين مالاً يقتضيه باقل من اثني عشر في المئة . وكان الصيارفة الرومان يقترضون مالا من رومية ويقرضونه للولايات ولا سيما باسم الملوك او المدن

واذا لم يستطع المستدين ان يوفي رأس المال و رباة يعمد الصيارفة في نقاضي اموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون فقد افترضت مدن آسيا سنة ٨٤ على نية ان تدفع مبلغا

كبيراً لتستعين به على الحرب فبعد أربع عشرة سنة فقط أي في سنة ٧٠ صار المبلغ بفوائده ستة أضعاف ما كان فاضطر الصيارفة مدن آسيا أن تبيع حتى التحف والطرف وقد شوهد ابوان يبيعان ابناءهما وبناتهما . وبعد بضع سنين اقترض برونوس من حكام الرواقين ومن اشهر رجال عصره من الرومان واعلاهم كعباً ومكانة لمدينة سلامينة في قبرص مبلغاً من المال بفائدة ٤٨ في المئة (أي ٢ في المئة كل شهر) فلما طالب وكيله سكاتبوس بالمال مع فائضه تعذر على المدينة ان تؤدّي اليه مطلوبه فقصد سكاتبوس الوالي ابيوس فاصحبه هذا بفرقة من الفرسان فجاء الى سلامينة وحاصر مجلس شيوخها وكان اعضاؤه في قاعة الجلسات فمات خمسة منهم جوعاً

رعايا رومية — كان سكان الولايات لا حول لهم ولا طول مع هؤلاء الظالمين باهرهم وذلك لان الولاة كانوا يالئون العشارين والصيارفة على رغائبهم وياخذون بايديهم في كل ما يطلبونه ووراء الوالي الجيش والشعب الروماني يعضدانه فكان يسمح للوطني الروماني ان يشكي السلايين في الولايات ولكن لايس الوالي بأذى ولا تتأذى شكايته الا مرة واحدة عند ما يخرج من الخدمة فيصبر عليه الرعايا يسلمهم ويعتدي كما يشاء ربثاً لنقض مدته واذا اتهم عند عودته الى رومية فتكون محاكمته امام محكمة مؤلفة من الاشراف والعشارين ممن تكون مصالحهم في معاضدته لافي احقاق الحق ورفع ظلامة اهل الولاية التي كان فيها واذا صادف ان حكمت عليه المحكمة يستعص عن الحكم بالنفي فيذهب الى احدى مدن ايطاليا يتمتع بما نهيه ايام ولايته وهذا القصاص لا يوازي ما اتاه البتة ولا يعد انتقاماً ولذلك كنت ترى سكان الولايات يؤثرون ان يجمعوا ولاتهم بخضوعهم لهم فيعاملونهم كما يعاملون الملوك وينافقونهم ويهادونهم وقيمون لهم التماثيل وربما نصبوا للوالي في آسيا هياكل (١) وبنوا لهم المعابد وعبدوهم كما يعبد الرب

ولئن عامل الشعب الروماني رعاياه بقسوة فلم يكن بأذى عليهم الانضمام اليه كما كان شأن المدن اليونانية بل ان الغريب يصبح وطنياً رومانياً بارادة الشعب الروماني والشعب ينج هذه العاطفة احياناً وكثيراً ما ينجحها الى شعب برتمه ففتح حق الوطنية الرومانية الى اللاتين اولاً في سنة ٨٩ ومنح هذا الحق للطلبان في سنة ٤٦ ومنحه لاهل غاليا فاصبح سكان ايطاليا والرومانيين سواء حتى ان العبد الذي يعتقه سيده يسوغ له ان يكون وطنياً في الحال . وكما عرضت للشعب الروماني عوارض الضعف ونقص في الانفس يزيد عدده

(١) ذكر شيشرون الخطيب الروماني المعابد التي اقامها له سكان سيسليا التي كان

والياً عليها .

برعايا جدد وعبيد جدد فكان عدد الوطنيين يزيد في كل احصاء ولا ينقص فبلغ عددهم في قرنين من ٢٥٠ ألفاً الى ٧٠٠ الف . وهكذا ظلت رومية غاصة بالسكان ولم تخل منهم كما خلت اسبارطة بل كانت تمتلئ بالقادمين اليها من المغلوبين على التدريج .

قانون الاراضي

الا املاك العامة — متى طلب شعب غلبته رومية على امره ان يعقد معها الصلح يجب على نوابه ان يلفظوا بالجملة الآتية : « نخلّي لكم عن الشعب والمدينة واخقول والمياه وتماثيل الارباب الحامية للحدود والاثاث وجميع ما يملكه الارباب والناس قد جعلناه بيد الشعب الروماني » وبهذا التسجيل تصبح الامة الرومانية مالكة لما يملكه المغلوبون لهم باسره بل مالكة حتى لاشخاصهم . وكثيراً ما يبيعون السكان وقد اباع بولس اميل مئة وخمسين ألفاً من اهل ابير على هذه الصورة كانوا اسلموا اليه . ومن العادة ان تمنح رومية لمن تغلب عليهم حريتهم وان تبقى املاكهم ملكاً للشعب الروماني يجعلونها ثلاث حصص متساوية . فيعطى للالهالي قسم من اراضيهم على ان يدفعوا شيئاً معلوماً من المال او الحبوب عنها وتحفظ رومية لنفسها الحق ان تأخذ منها كما تشاء . وتؤجر الحقول والمراعي الى اناس من الملتزمين وتترك الاراضي البائرة شاغرة يأخذها من يريد ويحق اكل وطي روماني ان يقيم فيها ويزرعها .

قوانين العقارات — شملت قوانين الاراضي التي اختل بها نظام رومية الاملاك العامة وما كان لاحد الرومان ان يخطر في باله نزع الاملاك من اربابها لان حدود تلك الاملاك نفسها كانت ارباباً يدعونها آلهة الخنوم والدين يمنع من نزعها . الا ان الشعب كان يستولي بموجب قانون الاراضي على اراض من الاملاك العامة فقط بوزعها بصفة ملك على مواطنيه وللشعب من حيث الشرع الحق في ذلك لان الاراضي كلها ملكه الا ان الرومانيين تسامحوا قروناً بان تركوا اناساً من رعاياهم واولادهم يتمتعون بفلات تلك الاراضي وقد انتهت بهم الحال ان صاروا ينظرون الى تلك الاراضي كأنها ملكهم يحبسونها وبيعونها وابتاعونها ولو أخذت منهم اقضي على جمهور عظيم من الامة بالافلاس في الحال . وقد حدث في ايطاليا خاصة ان ينزع من اهل مدينة باسرها جميع ما يملكون . هكذا نزع اغسطس جميع اراضي ماتنتو من سكانها وكان الشاعر فوجيل في جملة التكويين فنوصل بفضل شعره الى ان تعاد اليه املاكه ولكن سائر الشعب الذي لم يكن شاعراً كفوجيل بقي مسلوباً من املاكه . وتوزع هذه الاراضي المأخوذة على تلك الصفة احياناً على اناس من فقراء الوطنيين في رومية وفي الاغلب على جماعة من قدماء الجند وقد وزع سيللا اراضي اهل ايتروور يا على ١٢٠ ألفاً من قدماء الاجناد .

الاخوان الاشتراكيان — كان الشقيقان تيربوس وكابوس غراشوس من اشرف
أميرات رومية ولكن حاول احدهما بعد الآخر وقد تولى زعامة السوق ان ينزع الحكومة
من يد الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ .

وكان في ذاك العهد في رومية بل في ايطاليا جمهور كبير من الوطنيين لا سبد لهم ولا
لبد يطمحون الى احداث ثورة ومنهم الاغنياء ومعظمهم من طبقة الفرسان الذين يشكون
من حرمانهم من الحكومة . فعرض تيربوس غراشوس نفسه على ان يتولى الدفاع عن
العامّة وسعى الى توطيد سلطته هذه وكان في قلق مما يراه في بلاد الارياف في ايطاليا
من اقامة الرعاة العبيد يخافون قدماء اصحاب الاملاك الفلاحين ومن رؤية رومية غاصة
اناس من الوطنيين لا يملكون فتية ولا نقيرا

قال مرة في خطاب له يخاطب به العامة : « للوحوش البرية في ايطاليا مغاور تأوي
اليها والرجال الذين يهريقون دماءهم في الدفاع عن بيضة ايطاليا ليس لهم الا النور والهواء
الذي يستنشقونه يهيئون على وجوههم مع ازواجهم وابنائهم لا بيوت تؤويهم ولا منازل
يسكنونها . الا وان القواد الذين يحرضونهم على الدفاع عن مدافهم ومعابدهم ليكذبون في
اقوالهم . وليت شعري هل ملك واحد منهم حتى الآن مذبحاً مقدساً في بيته ومدفنّاً يضم
رفات اجداده . يدعونهم سادة الارض وهم لا يملكون مدرة منها »

فاقترح على الشعب من قانون للاراضي وذلك بان تأخذ الحكومة من الافراد جميع
الاراضي التي هي من المنافع العامة فتضع يديها عليها ويترك لكل فرد منهم خمسائة
فدان ، يوزع الباقي من الاراضي حصصاً صغيرة على فقراء الوطنيين فوافق المجلس على هذا
القانون لحدث بذلك اضطراب عام في نظام الثروات لان معظم اراضي المملكة على
التقريب كانت من الاملاك العامة ولكن وضع الواضعون ايديهم عليها واعتادوا ان يعتبروا
انفسهم مالكيها . على انه كان كثيراً ما يصعب التمييز بين الملك الخاص والملك العام اذ لم
يكن للرومانيين سجلات للاراضي .

فاقام تيربوس ثلاثة مفوضين عهد اليهم قسمة الاراضي كما ان الشعب أعطاهم سلطة
مطلقة . وكان هؤلاء المفوضون هم تيربوس نفسه وأخوه وعمه . فقام خصوم تيربوس
يتهمونه بانه سن قانون الاراضي ليتخذ من ذلك حجة لتكوين له بها السلطة . فمضت
سنة وهو السيد التحكم في رومية ولكنه لما أراد ان ينتخب معامياً من العامة عن السنة
التالية اقام أعداؤه الحجة (وهذا كان منافعاً للعادات المتبعة) فنشأت من ذلك فتنة انتهت

بأستيلاء تيربوس وأصحابه على معبد الكابitol فنهض أنصار مجلس الشيوخ وعبيدهم مسلحين بالدبابيس وخشب المقاعد وطار دوا تيربوس واتباعه وضربوه (١٣٣) و بعد عشر سنين انتخب كايوس أصغر الاخوين غراشوس محامياً عن الشعب (١٢٥) وجدد التصديق على قانون الاراضي وقرر توزيع حنطة على فقراء الوطنيين وقرر ان يجري انتخاب القضاة من طبقة الفرسان ليتوصل بذلك الى هدم سلطة الاشراف فكانت كلمته هي العليا مدة حولين كاملين ولكنه لما قصد قرطاجنة ليسكن فيها جماعة من الطواري (المسنمرين) الوطنيين تحلى الشعب عنه مدة غيابه حتى اذا عاد لم يتيسر له ان يعاد انتخابه اذ كان اعداؤه اغتصموا تلك الفرصة للتخلص منه وعندها أمر الحاكم بتسليح أشباع مجلس الشيوخ وزحف على كايوس وأحبابه وكانوا اعتصموا في جبل افتتين فقتل كايوس بيد احد العبيد وذبح أشباع أو اعدموا في السجون ونقضوا بيوتهم من أسسها وصادروا املاكهم (١٢١)

ماريوس وسيللا

لم يكن النزاع بين الشقيقين غراشوس ومجلس الشيوخ الا عبارة عن هرج في شوارع رومية ينتهي بفتنة نشأ بين العصابات المسلحة على عجل اما العتة التي حدثت بعد فكانت حروباً حقيقية بين جيوش منظمة وكان رؤساء الاحزاب من القواد الحروب المدنية - ليس الشعب الروماني سوى مجموع فقراء لاعمل لهم وما الجيش الا حفنة من المتشردين نزاع الآفاق فلا المجلس ولا الكتائب خاضعة لمجلس الشيوخ لان الاشراف الفاسدين فقدوا كل سلطة اذية فلم يبق ثمة سوى قوة حقيقية واحدة ونعني بها الجيش ولم يبق سطوة الا للقواد وقد أبى القواد ان يخضعوا فتعذر الحكم بواسطة مجلس الشيوخ حتى أصبح بيد القائد . وغدت الثورة لامناص منها ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة بل تحمرت زهاء مئة سنة وكان مجلس الشيوخ يقاوم وقد امسى من الضعف بحيث لا يتيسر له ان يجري الاحكام بذاته على انه مازال على شيء من القوة تحول دون غيره من القبض على قياد الامة والقواد يتنازعون بينهم فتمت يكون السيد المتحكم وهكذا قضى الرومانيون قرناً يخبطون في الفتن والحروب المدنية

ماريوس - كان اصل ماريوس القائد الاول الذي جعل جيشه تحت أمره في رومية من اريينوم وهي مدينة جبلية صغيرة ولم يكن من سلالة شريفة واشتهر بانه ضابط وانتخب محامياً عن العامة ثم قاضياً بمساعدة الاشراف له . ثم انقلاب عليهم وانتخب قنصلاً وعهدت اليه محاربة جو كورتا ملك النوميديين الذي بدد شمل عدة جيوش رومانية

وعندها جند ماريوس جماعة من فقراء الوطنيين ممن أصبحت الخدمة العسكرية صناعتهم فتغلب ماريوس بجيشه على جوكورتا واهلك الشعوب البربرية كالسمبريين والتوتون ممن اغاروا على غاليا واطاليا الشمالية . واذ لم يكن للشعب ثقة في غيره لقيادة الجيش انقذه قنصلاً ست مرات متوالية خلافاً للقوانين المتبعة

عاد الى رومية بعد هذه الانتصارات فاصبح مطلق اليد في الحكومة وعندئذ تألف في تلك العاصمة حزبان دعيا انفسهما باسم حزب الشعب (وهو حزب ماريوس) وحزب الاشراف (وهو حزب مجلس الشيوخ)

الحرب الاجتماعية - ارتكب اشباع ماريوس من الفظائع ما انتهى بتلوث شهرته بين الناس فاغتنم أحد الاشراف من أسرة كورنيوليوس الكبيرة واسمه سيللا هذه الفرصة لينازعه السلطة وكان هو أيضاً من جملة القواد . وفي خلال ذلك استشاط الطليان غيظاً من قيامهم بمثل مايقوم به الرومانيون من التكاليف دون ان يكون لهم مثل امتيازاتهم فنزعوا الى مقاومته لينالوا حقوقهم المدنية وهذا مادعوه بالحرب الاجتماعية أي حرب مقاومة المتحالفين لجيشواجيوشاً كبيرة تقدم احداها على مقربة من رومية وكان سيللا هو الذي انقذ رومية بقتاله الطليان أشد قتال . وبعد حرب دامت سنتين (٩١ - ٨٩) خضع الطليان بيد انهم نالوا ماطلبوه وغدوا وطنيين رومانيين

سيللا - طارت شهرة سيللا في هذه الحرب فنصب قنصلاً وعهد اليه ان يزحف على ملك بحر الخزر ميتريداتس الذي اغار على آسيا الصغرى وذبح فيها الرومانيين عن بكرة ابيهم (٨٨) فحمل الحسد ماريوس على ان يثير فتنة في رومية فخرج سيللا للاتحاق بجيشه الذي كان ينتظره في ايطاليا الجنوبية وعاد معه وكان الدين الروماني يحظر على الجنود الدخول الى المدينة وعليهم السحتم وعلى الحاكم نفسه قبل ان يختار الباب ان يخلع عنه رداء الحرب ويلبس الحلة الرومانية فكان سيللا القائد الاول الذي جسر على خرق سياج هذا المنع ودخل الى رومية فانهزم ماريوس امامه .

ولما وصل سيللا الى آسيا عاد ماريوس في جيش له من المتشردين ودخل رومية بالقوة (٨٧) وعندئذ بدى بقتل المعتدين قبل محاكمتهم وجعل خاصة اشباع سيللا تحت الاحكام العرفية بل صدرت اوامر الحكومة ان يقتلوا حيثما وجدوا وصودرت اموالهم ومات ماريوس بعد بضعة اشهر وظل سينام انصاره يجري احكامه في رومية ويقتل كل من لا تروقه حالته وكان سيللا في خلال هذه المدة قد تغلب على ميتريداتس وضمن اخلاص جنده له بان اباح لهم نهب آسيا على ما يشاءون . وقد عاد (٨٣) سيف جيشه الى ايطاليا

فبعث عليه خصومه بخمسة جيوش فانهزم بعضها وانحاز الآخر اليه ثم دخل سيللا الى رومية وذبح الاسرى وخنق انصار ماريوس .

الاحكام العرفية — بعد ان مضت بضعة ايام في المذابح شرع سيللا ينفذ الاحكام العسكرية على الاصول وعلق ثلاث قوائم باسماء من يريداهلا بهم قال : « اعلنت اسماء جميع من ذكرتهم وقد نسيت كثير منهم وسأعلن اسماءهم كلما خطرُوا في بالي » وكل من علق اسمه في قائمة المحكوم عليهم كان معداً للقتل ومن اتى برأسه ينال مكافأة وتصادر اموال القتل وكان يقتل الواحد بدون محاكمة بل يجرد هوى القائد وبدون ان يندثر بالقتل . وعلى هذا الوجه لم يكتف سيللا بذبح اعدائه فقط بل قتل الاغنياء الذين كان يطمع في ثروتهم و يروى ان احد الوطنيين البعيدين عن السياسة نظر وهو مار الى قائمة المحكوم عليهم بالقتل فرأى اسمه مسطوراً في اول القائمة فهتف قائلاً : « ما انه - بي فقد قتلني بيتي في آب » ويقال ان سيللا قتل ألفاً وثمانمائة الف فارس .

قوانين سيللا — بعد ان تخلص سيللا من خصومه حاول ان ينظم حكومة تكون الكلمة فيها لمجلس الشيوخ . فعينوه حاكماً مطلقاً (ديكتاتور) ويطلق هذا اللقب قديماً على القواد في ايام الشدة والخطر من تكون لهم السلطة المطلقة فاستخدم سيللا هذه السلطة ليسن قوانين تغير النظام الدستوري القديم وذلك بان ينتخب القضاة بموجب هذا القانون من مجلس الشيوخ ولا تجري المناقشة في قانون قبل ان يوافق عليه مجلس الشيوخ ولا يحق لمحامي الشعب بته ان يقترحوا شيئاً وبعد هذه الاصلاحات التي خولت مجلس الشيوخ سلطة مطلقة اسنقل سيللا من منصبه واخذ نفسه بالاقتطاع الى داره والعيش في العزلة (٧٩) وكان يعرف بانه في مأمن اذ كان له مائة الف من جنوده في ايطاليا .

بومبي

بومبي — عاد مجلس الشيوخ فقبض على السلطة لانه حسن في رأي سيللان بعيدها اليه ولكنه لم يكن له من القوة ما يستطيع معه المحافظة على تلك السلطة متى قام احد القواد ينازعه اباها . ودامت حكومة مجلس الشيوخ ايضاً في الظاهر اكثر من ثلاثين سنة وذلك لانه كان ثمة عدة قواد وكل منهم يحول دون خصمه ان يستأثر بالحوال والطول . ولما هلك سيللا كان في البلاد اربعة جيوش على قدم الاستعداد اثنان منها خاضعان لقائدين من انصار مجلس الشيوخ وهما كراسوس وبومبي والاخران بقيادة قائدين خصمين لمجلس الشيوخ وهما لبيدوس في ايطاليا وسرتوريوس في اسبانيا . والمأثور انه لم يكن احد سيفي تلك الجيوش على استعداد ونظام وان ليس في اولئك القواد حاكم له الحق بقيادة الجند .

وكان القواد الى ذلك العهد ابدآ من القناصل اما الآن فاصبحوا من الافراد ينضم اليهم الجند لايخمدوا الجمهورية الرومانية بل ليغتنوا بسلب الاهلين .

ولقد انهزمت جيوش خصوم مجلس الشيوخ وبقي القائدان كراسوس وبومبي وحدهما وانفقا بينهما على الزعامة وجري انتخابهما قنصلين .

سبارتا كوس — تكرر حدوث عصيان العبيد مرات (حروب العبيد) وكان ذلك في الاغلب في جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا حيث كان العبيد يحملون السلاح لحراسة القطعان . وبعد ان ولي الولاية القائدان كراسوس وبومبي بدأت اشهر تلك الحروب وذلك ان عصابة مؤلفة من ٧٠ مزارعاً هربت من كابو ونهبت عربة تحمل اسلحة وانشأت تحمل على البلاد حملاتها تخف العبيد وانضموا اليها زرافات زرافات فلم تلبث تلك العصابة ان اصبحت جيشاً . وقد هزم هؤلاء العبيد على الولاء ثلاثة جيوش رومانية ارسلت لتأديبهم وكان سبارتا كوس زعيمهم أسرى في الحرب وهو من اقليم تراسياحيء به الى ايطاليا ليستخدم في الصراع فحدثه نفسه ان يحتاز بلاد ايطاليا كلها للعود الى تراسيا بلده . بيد ان جيش كراسوس قاوم عصابات سبارتا كوس مؤخرآ وكانت مختلفة النظام فقتلها عن آخرها . وبعدها حظرت رومية على العبيد ان يحملوا سلاحاً . ويحكى انه أعدم راع من العبيد لانه قتل خنزيراً برياً بجرعة كانت معه .

حروب في الشرق — عهد مجلس الامة لبومبي ان يتولى قيادة الجيوش في حربيين متعاقبتين في الشرق . الاول (٦٧) كانت مع قرصات البحر في شواطئ آسيا الصغرى وقد غزوا شواطئ ايطاليا ونهبوها والثانية (٦٦) كانت مع ميتريدانس الذي لم يبرح نلى ما اصابه من الفشل يدافع عن حوزته في اطراف آسيا الصغرى

ولقد عاد بومبي من آسيا في جيش يتفانى في الاخلاص له وكان في بضع سنين الدائد المسود في رومية واذ كان ينظر الى الشرف اكثر منه الى السلطة لم يدخل ادنى تعديل في الحكومة . وفي خلال ذلك نال الخطوة من الامة شاب من الاشراف اسمه قيصر فانفق بومبي وكراسوس وقيصر على اقتسام السلطة (٦٠) فانخب قيصر قنصلاً ثم والياً على غاليا وتولى كراسوس قيادة الجيش الذي ارسل الى آسيا للمعاملة على البارثيين ولقي حتفه سنة ٥٣ وبقي بومبي في رومية .

كاتالينا — بينما كان بومبي يحارب في الشرق حدثت في رومية ازمة كادت تؤدى الى ثورة وذلك ان احد الاشراف من قدماء انصار سيلا واسمه كاتالينا كان فقد ثروته لاسترساله في الشهوات فحاول ان يسترجع ماله بالقبض على ازمة الاحكام وكان رجلاً

قوي الشكينة جري، النفس مقدماً لا بتطرق الى قلبه وسواس وله اصدقاء كثيرون من اشراف الشبان المستهترين الفاسقين اخلصوا في حبه اذ كان يقضي معهم اوقات صفائه ويقرضهم مالا ويهديهم خيولاً وكلاب صيد . وله من الانصار قدماء اشياخ سيللا وقدماء الجنود الذين اسكنهم سيللا في ايطاليا ممن باعوا اراضيهم واخذوا يجهنون عن مورد يعيشون منه .

فاتفق كاتالينا مع جمهور من هؤلاء الساخطين على ان يذبحوا في آن واحد القنصلين يوم يذهبان معاً الى معبد الكابيتول فلم يفلحوا فيما دبروه لان الخبر تراسى الى القنصلين الا ان كاتالينا احتفظ بانصاره وظل يدس الدسائس وكان اعداء مجلس الشيوخ وربما قيصر ايضاً يمتدونه سراً فقدم نفسه لينتخب قنصلاً فكان خضمه في هذا الانتخاب شيشرون اشهر محام واعظم خطباء الرومان وكان هذا توصل الى ان ينتخب حاكماً لان الاسرات الشريفة غدت منذ عهد ماريوس لا تسمح الا بانتخاب اناس من الاشراف .

وساعد اشياخ مجلس الشيوخ الخطيب شيشرون فجري انتخابه وسقط كاتالينا الا ان الفصل الآخر رصيف شيشرون وهو ايطونيوس كان ممالئاً مرةً للمخائين . فدير كاتالينا مكيدة كبرى على ان يذبح اصحابه شيشرون واعضاء مجلس الشيوخ في رومية ويحرقوها بينما يكون قدماء سيللا المقيمين في اتروريا زاحفين على رومية . فبلغ الخبر شيشرون فلم يخرج الا في كوكبة من الفرسان محدقة به الا انه لم يكن عنده جيش لقتال قدماء الاجناد الذين شرعوا يتجمعون ويتسلحون والعبيد الذين اخذوا يسلمونهم في كاو ففضي جزءاً من السنة التي تولى فيها القنصلية وهو في قلق مستمر .

واخيراً رجع واليان يقودان جيوداً اشهر شيشرون بقوة تمكنه من الدفاع فاستدعى مجلس الشيوخ ليوافق على قيام القناصل بما فيه سلامة الجمهورية الرومانية وان يعطي القناصل سلطة ليأخذوا عامة الاسباب التي يرونها مناسبة وادخل الجنود الى رومية يرايون في الساحات ودعا مجلس الشيوخ الى الاجتماع ثانية وفي هذه الجلسة التي خطبته الاولى في مقاومة كاتالينا وسأله مشعراً اياه بما دبّره من المكيدة التي افصح امرها وانذره بالانصراف فغادر كاتالينا رومية وذهب للاتحاق بقداماء الاجناد المتحدين في اتروريا وظل اشياخه في المدينة فانفقوا سراً مع وفود الالوبروج بان يقدموا لهم فرساناً ثم غيروا آراءهم وافشوا امر المتآمرين . فطلب شيشرون خمسة من رؤوس زعماء المؤامرة واضطرم الى الافرار . ثم استنقى مجلس الشيوخ فيما يجب ان يعاملوا به فاجاب بانه يجب اعدامهم ولكن كان احد المجرمين واسمه لانتولوس فاضيا ولا يحق لاحد ان يوقفه الا حاكم له .

مقام ارق من مقامه فذهب شيشرون بذاته لتوقيف المجرمين الخمسة واخذهم الى مجن انكابتول وخنقهم وعاد يقول لمجلس الشيوخ : « لقد عاشوا »
 فاعلن كاتالينا الحرب ولم يكن سوى جزء من رجاله يحمل سلاحاً ومعظمهم انقضوا من حوله وزحف عليه جيش بقيادة القنصل انطونيوس آتياً من الجنوب وزحف آخر من الشمال ولم يبق لكاتالينا سوى ثلاثة آلاف رجل حاول بهم الفرار نحو الشمال فرأى جبال ابنين في وجهه مسدودة فانقض على جيش انطونيوس وهاجمه وقتل مع اصحابه جملة واحدة (٦٣) فقال اذ ذاك شيشرون من مجلس الشيوخ لقب « ابو الوطن » دلالة على انه انقذ رومية من غلب العدو ولكن لما انتهت سنة حكمه لم يعهد له بسلطة

فتح بلاد الغال

دحول قيصر الى غاليا - اتفق قيصر مع بومبي وكراسوس ان يتولى كل منهم القيادة في احدى الولايات اعطى على ان يكون له الحق في ان يجيش جيشاً فوضع كراسوس يده على سورية وبومبي على اسبانيا وقيصر على الثلاث ولايات النجاة غاليا وذلك لمدة خمس سنين . وقد ذهب قيصر لما انقضت سنة حكمه بصفته والياً الى مقرر ولايته ايشي ، فيها جيشاً يكون هو قائده ودخل في الحال في عدة حروب وثلث عشر سنين بعيداً عن رومية (و لم يدم حكمه اكثر من خمس سنين الى سنة ٥٣ ولكنه جده دفعة ثانية الى سنة ٤٨) وكانت رومية الى ذلك العهد لم تخضع غير جزء من البلاد التي نزلها الشعوب الغالية بل لم يكن لها سوى ولايتين غاليتين : غاليا سيزالين وهي مؤلفة من البلاد الواقعة بين جبال ابنين . الالب (وهي اليوم ايطاليا الشمالية) . والبروفانسيا وهي عبارة عن شواطئ البحر المتوسط وبلاد الرون من جبال الالب الى جبال البيرنيه . وكانت هذه البلاد مع افليم ايليريا (الجبال الواقعة في شرقي الادرياتيك) هي الثلاث ولايات التي تولاها قيصر . اما باقي بلاد فرنسا الحالية التي دعاها الرومانيون غاليا فكانت مستقلة بحد يسكنها ثلاثة عناصر من الناس . أحدها الغاليون وهم يشغلون القسم الاعظم من البلاد اي جميع فرنسا الواقعة بين نهر الغارون ونهر السين ويصفهم اليونان والرومان بان هؤلاء السكان من الرجال العظام بيض البشرة شقر الشعر زرق العيون طوال السبلات يأكلون اللحوم ويسكرون بنبيذ السرفواز (خبر من الجعة) او بشراب الايدرول وهو أشد شرباً بالجرمانيين منهم بالفرنسيين اليوم . وكان السواد الاعظم من هذه الامة يعيش شقياً في الاكواخ لاتشأن لهم في ادارة شؤون بلادهم يخضعون لكبار ارباب الاملاك الذين يقاتنون راكبين صهوات خيولهم ويدعوم قيصر بالفرسان ويذكروهم كما يذكرون عار بين تجمعنا للغاية ولا يبعد

ان يكون هؤلاء الفرسان الغاليون شببيين بالجرمانيين هم من الفاتحين نزلوا وسط شعب اصغر منهم أجساماً اشقرا صب يشبه الشعب النازل اليوم في البلاد الغرية أي فرنسا و ايرلندا و بلاد الغال

و القسم الثاني من تلك العناصر الثلاثة هم البلجيكيون نزلوا البلاد الواقعة في شمالي السين الى نهر الرين وهم يشبهون كما كان يقول الرومان الجرمانيين النازلين في الشاطئ الآخر من نهر الرين والظاهر انهم كانوا أقل اختلاطاً بالشعب القديم من الغاليين واحسن الفرسان فيهم كانوا يقاتلون راكبين

و القسم الثالث من تلك العناصر هم الآكيثيون نزلوا في جنوبي نهر الغارون وهم ضئلا الاجسام شجعان يشبهون الايريين في اسبانيا و يتكلمون بلغة ايبيرية و يعتبرون سائر شعوب غاليا كأنهم غرباء و هؤلاء خضعوا لقيصر اول الامر . وبعد فلم يكن الغاليون و البلجيكيون و الاكيثيون أمماً معدودة بل لم يكن ثمة غير شعوب صغيرة يستولي أقدرها على نحو ثلاث أو اربع من مقاطعاتنا اليوم وكل مقاطعة تؤلف حكومة مستقلة ودعاها قيصر سيفيتا أي التي يحكمها كما يشاء و تحارب غيرها . وكانت لبعض تلك الحكومات ملك و يحكم معظمها مجلس من الاشراف (الفرسان) و كان للكهنة عند الغاليين سلطة كبرى

لم تبرح تلك الشعوب على حالة من التوحش بعد تعيش بما تنتجه لها ماشيتها و ما مدنها الا اسوار صغيرة محصنة يجعلون فيها مواشيتهم و عيالهم ابان الحرب ولئن كان معظم البلاد غابات و حراجاً فقد بدأوا يزرعون حنطة ليتيسر ان تطعم جيشاً رومانياً بأسره

جاء قيصر بنوي فتح غاليا في جيش اختاره من سكان الولايتين الغاليتين الخاضعتين لرومية خاصة و كان مؤلفاً بحسب العادة الرومانية من مشاة و منظمين ككتاب و عليهم اسلحتهم و هم مدربون اكثر من جيوش الشعب الغالي و لقد عني قيصر بذكر خبر الفتح في مفكراته فاهوم القاريء بان الغاليين ساقوا عليه جيوشاً اكثر عدداً من جيشه و من المحتمل بانه لم يقل الحقيقة اذ لم يكن في استطاعة غاليا ان تطعم غير عدد قليل من الناس و معظم سكانها ليسوا محاربين

غارة الهيلفتيين و السوفييين - عند ما وصل قيصر الى بلاد الغال كان الايدوانيون النازلون في جبال مورفان اشد شعوب اواسط غاليا بأساً و عاصمتهم يبراك بالقرب من أوتون و بلادهم واقعة بين نهر السون و الوار . و من اشداء البأس الارفونيون النازلون في البلاد الجبلية التي أطلق عليها اسمهم (اوفرنيا) و كانوا حاكمين على الامم النازلة في البلاد الصحراوية الوسطى

فحارب الابدوانيون السكيانيين النازلين في جبال جورا لاختلاف طراً بينهم على الملاحه في نهرسون فاستدع السكيانيون من المانيا زعيماً سوبيقاً وهو الملك (ار يوفيست) فأقى بمصابه من خيرة المحاربين مؤلفة من العامة خاصة وهم السوفيون . وبعد ان تغلب الابدوانيين طلب الملك ار يوفيست الى السكيانيين جزءاً من ارضهم لينزل فيها جيشه . وكان السكيانيون صالحوا الابدوانيين لقتال ار يوفيست الذين نزولوا عليهم وعندها استجد الابدوانيون برومية ولما قاد قيصر جيشه الى بلاد سون تقدم على انه حليف شعب غالي لمقاومة ناراء جرمانية وفي غضون ذلك اخذ الهيلفتيون وهم شعب غالي يسكن سويسرا بالحجرة من بلادهم فانقلبوا منها يحملون أسراتهم ومواشيهم وامتعتهم محمولة على مركبات قائلين انهم يريدون مهاجمة بلاد الغال ليستوطنوا شواطئ المحيط . وربما كان ذلك حيلة منهم ليذهبوا لنصرة الابدوانيين على ار يوفيست وتقدموا الى قيصر ان يسمح لهم باجتياز تلك الولاية الرومانية فأبى عليهم ذلك فلم يبق امام الهيلفتيين الا ان يقطعوا وادي سون فداهمهم قيصر بالقرب من نهرسون وحمل اولاً على ساقه جيشهم ثم هاجم مجموعهم فذبح منهم جزءاً عظيماً واضطر من افلتوا من القتل الى الرجوع الى بلادهم . ثم ارتد على اعقابهم لقتال ار يوفيست وامرّح حتى بلغ في جيشه الى فيرونوسيو (بزانسون) وحاذر جنده من هول هذه الحرب وهم في بلاد جبلية مغطاة بالغابات يهاجمون برابرة اشداء على اهبة تامة فجمع قيصر قواد المئة من جنده (يوزباشية) وقال لهم على من يوجسون خيفة ان يسافروا مع الفرقة العاشرة فاجابه قواد المئة بانهم يتبعونه حيثما ذهب

وقطع الجيش الروماني مجاز جبال الفوسيج ونزل الى سهل الالزاس وجاء يعسكر امام العدو . والف ار يوفيست معسكره من مركباته وتحصن وراءها وكان قيصر يمرت جيشه في السهل ويعبئه للقتال ثم صحت عزيمة ار يوفيست على الخروج من المعسكر فداهم الجيش الروماني في فرسانه فخرج وفر جنده فطارده العدو حتى نهر الرين . وكان المهاجمون الجرمان يطردون الى خارج غاليا ولكن قيصر لم يأت مع جيشه الى ولايته بل رابط معه في وادي سون حيث قضى الشتاء وقد اخذ يعامل بلاد غاليا كالبلاد المغلوبة فاضطرت الشعوب الغالية ان تحالف رومية .

فتح شمال غاليا -- ابى البلجيكيون النازلون بين نهري السين والرين وهم اشجع شعوب غاليا كافة ان يدخلوا في محالفة رومية فتعاهدوا بينهم وتحالفوا وجمعوا جميع المحاربين من ابنائهم في بلاد لاون . فجاء قيصر في الربيع في ثمانين فرق من الجند وعقد محالفة مع احد هذه الشعوب وهم الريمسيون ونزل في معسكر حصين على رابية يفصلها عن معسكر البلجيكيين

وإذ ذوبطائح وظل الجيشان زمناً أحدهما قبالة الآخر وإذ كان الجيش الروماني منظماً كانت تأتيه النجدة من الطعام تبعاً أما البلجيكيون فشق عليهم أن يتغذوا في تلك الأدغال والحراج فأخذ قيصر الأيدوانيين أحلافه يجرّبون بلاد البيلوفاكيين أهم تلك الشعوب المتحالفة ولما بلغ البلجيكيون ذلك انقضت جموعهم ليذهبوا للدفاع عن بلادهم فخلص قيصر من جيش العدو بدون قتال وراح يطوف بلاد البلجيكيين ويهاجم مدنها الواحدة بعد الأخرى مكرهاً كل أمة أن تكون حليفة لرومية وإن تعطيها على سبيل الرهن رجالاً من الأسر النبيلة في بلادها .

وقد دام النيرفيون (أهل بلاد السامر) أحد هذه الشعوب الجيش الروماني في نابة على شاطئ نهر السامر بينما كان يبنى معسكره وهزم الفرسان الغاليين أحلاف الرومان وعساكر الرجالة الخفيفة إلا أن الكتائب حمت المؤخرة وحالت دون المزيمة فأخذ قيصر يحارب النيرفين حرباً يريد بها إبادةهم عن آخرهم . ولما أخضع الجيش الروماني الشعوب البلجيكية قضى الشتاء في وسط بلاد غاليا على شاطئ الوار .

فتح الغرب — قبلت الشعوب النازلة على ضفاف البحر المحيط أن تحالف رومية وتقدم لها رهائن وما جاء الشتاء حتى تحالفوا بهم وأبوا أن يرسلوا حنطة لإطعام الجيش الروماني وأسروا عندهم مندوبي الرومان الذين جاؤهم في طلب ذلك ليكرهوا قيصر على أن يعيد إليهم من استبقاهم عنده من رجالهم رهينة . وكان للفنتيين (سكان فان) وهم من الشعوب الخطيرة في ذلك الحلف سفن حربية صنعوها من شجر البلوط وجعلت بحيث تسير على إرادة ربابها ولها مقدم مرتفع يقاوم فعل الأمواج وطبقات سفلى منبسطة تستطيع أن تعبر على قيعان الشاطئ وفي البحار الصغيرة فانشأ قيصر سفناً ذات قلع في مصب نهر اللوارهاجم بها أسطول الفنتيين . وصعب عليه أن يحطمه لأن سفنه لم يكن لها من العلو ما يكفي للوصول إلى مساماة تلك السفن الفينيقية وكانت مراكبه داخلية في الماء كثيراً بحيث لا يتسنى لها أن تطارد مراكب عدوه في وسط العنخور والقيعان وبعد الماتيا والتي صنع الرومان مناجل ذات مقابض وعصي طويلة قطعوا بها الحبال التي كانت تمسك قلع سفن الفنتيين فلما سقطت القلع من هذه السفن ولم يكن عندها مجاديف تقذف بها وقت لا تبدي حراكاً فدهمها الجيش الروماني وأخذها عنوة فطلب الفنتيون الصلح إلا أن قيصر أمر بإشراقهم فضربت أعناقهم وباع سائر الشعب بيع العبيد . وفي تلك المدة أيضاً كان اقتطع قيصر فرقة صغيرة من جيشه لتخضع لسلطان رومية جميع الشعوب النازلة في الأقليم المعروف اليوم بأقليم نورمانديا وهناك فرقة أخرى له تحارب شعوب الأكتيين في جنوب نهر الغارون

وعلى هذا فقد اخضع قيصر في ثلاث حملات (٥٨ -- ٥٦) عامة بلاد غاليا واغتنم فرصة الشتاء للعودة الى ولايته في ايطاليا المعروفة بسيزالبين وفي العام التالي (٥٦) ضرب موعداً للقائدين الآخرين اللذين كانوا يقاسمونه الحكم وهما بومبي وكراسوس فاجتمع ثلاثتهم على تخوم ولايته في ولاية لوكس وقرروا تجديد حكومتهم لمجلس سنين اخرى

حملات الى خارج غاليا — حارب قيصر خارج غاليا دلالة على سطوته واشغالا لجيشه وكان شعبان جرمانيان اجتازا نهر الرين وهاجما بلاد البلجيك فسار قيصر في جيشه وفرنسا شعب غاليا على نهر الرين بالقرب من ملتقى نهر الموز وهاجم الجرمان وذبهم مع نسائهم واولادهم ثم بنى على الرين جسرا من جذوع الاشجار وذهب لتخريب الشاطئ الايمن ولما عاد الى غاليا ركب البحر مع فرقتين (٥٥) واجتاز بحر المانش وزل الى بريطانيا (انكلترا) ولما انشأ في السنة التالية سفناً متسعة قليلا لقل الاثقال والخيول عاد الى بريطانيا في جيش كبير واجتاز الغابات التي دافع عنها المحاربون البريطانيون حتى بلغ نهر التيمس (٥٤)

قيام الغاليين — كان الاشراف في معظم الشعوب الغالية من اشياخ رومية يقاتلون في الجيش الروماني على انهم رديء من الفرسان وبعاشرون الضباط الرومانيين وكان بعضهم من اصحاب قيصر الا ان السواد الاعظم من تلك الامم كانوا يتبرمون باوائك الجنود الغريباء الذين يسيرون سير السادة فانشق بعض الزعماء عن حزب الاشراف وانفقوا بينهم سرا على تهيج الشعب . وكان قيصر قد وزع جيشه على شعوب كثيرة لقضاء فصل الشتاء وذلك لان القمم كان نادراً في تلك السنة . فقرر زعماء الغاليين ان يغتصموا هذه الفرصة لمهاجمة الفرق المنعزلة وقطع مواصلاتهم فانظروا ريثما يتعد قيصر الى ولاية سيزالبين حيث ذهب لقضاء الشتاء .

الا ان شعب الكارنوت (شارتر) ابدى نواجذ العصيان قبل ان يتم ما يدبروه مستشيطاً غضباً من ملكه الذي نصبه قيصر وحاكمه فحكم عليه بالاعدام وقتل . فبلغ قيصر هذا النبأ فاستعد للحرب ولما ازمنت الفرقة الرابطة في بلاد السامبر الخروج من معسكرها داهمها الانيبوريون وذبوها . ورأت فرقة رومانية اخرى ان تبقى في معسكرها فحاط بها الغاليون فامسرع قيصر وتمكن من انقاذها وعند ذلك استراحت الجنود الرومانية الى آخر الشتاء . ولما طلع الربيع اجد عدة شعوب غالية من الشمال ان يبعثوا بوفودهم الى قيصر لجمع جيشه بمرته ومخيمهم واحداً بعد واحد فانقم من الانيبوريين بتخريب زروعهم وحرق قراهم وذب

السكان وطارد المنهزمين الى غابات آردن وما جاء الخريف الا وقد خضعت غايا الشمالية بأسرها .

الفارس فرسختور بكس — اجمع شعوب اواسط البلاد في خلال الشتاء امرهم بينهم على العصيان ثانية وبدأ الكارثيون اولاً فداهموا مدينة سنايوم على نهر اللوار فقتلوا فيها تجار الطليان كافة . وفي هذه المرة تسلم عامة الشعوب النازلين بين نهر السين والغارون لقتال الرومان وبقي الاكثيون على الحياذ . وبدأت الشعوب المحالفة لرومية تنزع السلطة من يد الاشراف اشياح قيصر واقاموا زعماء جدداً ودخل هؤلاء في التحالف العالي

وكان زعيم الثورة شاباً من اشراف ارفرنا اسمه فرسختور بكس وهو فارس يحسن الفروسية خدم في الجيش الروماني وكان سديق قيصر وحدث ثورة في بلاده اولاً وما هاج سكان القرى حتى نزع السلطة من ايدي الاشراف واصبح منكأً على ارفرنا . ثم بعث برسل الى الشعوب الاخرى وجمع جيشاً وجعل من نظامه ان يحرق الخائنين ويصلم اذان الابقين ويسمل عيونهم . فداهم الغاليون الرومانيين في آن واحد في الجنوب من ولاية بروفنسيا (من اقليم لانكدوك) وفي الشمال من البلاد الواقعة بين نهري السين والسون حيث كانت ترابط الفرق الرومانية واضطر قيصر ان يجتاز جبال سيفين وهي مكللة بالثلوج واكره فرسختور بكس من رجاله ان يعود للدفاع عن بلاده فاتسع الوقت لقيصر ان يجمع جيشه بالقرب من سانس ويذهب فيه الى اقليم اللوار فغرب فرسختور بكس جميع البلاد وجعل المدن قاعاً صفصفاً لتكون قفراً لا يجد فيها العدو شيئاً يطعمه بيد ان البيطور يجيبين لم يقبلوا بتغريب مدينتهم افار يكوم ودافعوا قيصر عنها زمناً

بعث قيصر في الربيع (٥٢) فيلقاً لمباغثة شعوب السين وذهب بنفسه في معظم جيشه للهجوم على جر كوفيا قلعة الارفرنيين فرد على اعقابه وخرج موقفه اذ لم يكن لديه طعام (لخواب مخازن ذخائره في نر) وهو محصور بين شعوب الارفرنيين والابدوايين الذين ذبحوا تجار الطليان ومع ذلك اصر على عدم اخلاء غاليا وتمكن من الوصول الى سانس . وفي خلال ذلك عين المجلس المؤلف من مندوبي جميع الشعوب الغالية الزعيم فرسختور بكس قائداً عاماً على الجيوش الغالية

فاستدعى قيصر من جرمانيا فرساناً اخذهم لحساب رومية وفاد جيشه من ناحية سون ولعله فعل ذلك لتمكن من مراسلة بروفنسيا فنبهه فرسختور بكس في جيشه وحاول ان يقطع عنه مواد الطعام ورمى الجيش الروماني وهو في مسيره بفرسانه الغاليين فهزمهم فرسان الجيش العالي ورجع فرسختور بكس على اعقابه الى مدينة اليزيا الحصينة في بلاد

الآكام بين نهر السون ومصب نهر السين فنبعه قيصر وحاصره فيها جاعلاً حول اليزيا سوراً تعلوه دائرة مجنحة ذات أبراج يجمعها بخندق .

وصل جيش من الغاليين لرفع الحصار عن جيش فرسختوريكس ودام الرومانيون ولكن حال دون الوصول اليه ذاك السور الذي اقامه قيصر من ناحية الخلاء . وبعد اشتباك القتال بين الجيشين ردّ الجيش الغالي على اعتقابه ونفرك شذر مذر فلم يبق عند الجيش المحاصر في اليزيا شيء من الزاد فسلم فرسختوريكس (٥٢) فبعث به قيصر الى رومية حيث قضى ست سنين سجيناً ثم شهد حفلة انتصار قيصر وضرب عنقه .

وهكذا انتهى العصيان العام . وقضى قيصر سنة اخرى في اخضاع الشعوب التي كانت تقاوم واحداً بعد الآخر فابادها . وكان بفاخر بانه ذبح في ثماني سنين مليوناً من السكان وانه اسر منهم مليوناً آخر باعه بيع العبيد وقضى سنة اخرى لتنظيم شؤون حكومة غاليا . وبعد ذلك صفا الجو لرومية بهلاك اعدائها . وقد وسد قيصر الحكم الى الاشراف اشباع الرومان والف فرقة من الغاليين لقبوها بالسنونو وكان جيشه المدرب يحبه فحدثته نفسه ان يستخدمه في الاستيلاء على المملكة الرومانية باسرها . فخضعت غاليا لرومية مباشرة وانقسمت ولايات ولكن تنظيمها لم يتم الا على عهد اغسطس .

عاقبة الجمهورية

كانون الاوتيكي — بينما كان القواد يتنازعون بينهم فحين يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتملقه بالدستور الجمهوري القديم الذي اخذ يمزق ولما رآه آخذاً في التداعي لم يلبث ان اتحرر وكان كانون هذا هو الملقب بعد بكانون الاوتيكي باسم المدينة التي اتحرر فيها .

كان هذا الرجل من أسرة شريفة من اخلاف كانون وزير الاحصاء الشهير والمدافع عن الاخلاق الرومانية القديمة كتب له ان يكون صاحب ثروة طائلة وهو شاب بعد . وكان قد تعلم فلسفة الرواقين وجرى عليها فانشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلاً ويشرب قليلاً ولا بتطيب وعود نفسه احتمال الحر والبرد الشديد يسافر ماشياً في كل فصل من فصول السنة حتى مع اصحابه الراكبين خيولهم ولا يلبس الا ثياباً بسيطة رثة وقد وقع له ان خرج بدون حذاء .

ولما أرسل قائداً لاحد الجيوش الى احدي الحروب (بموجب امتياز فنيان الاشراف) احبه جند . واحترموه اذ رأوه يعيش مثلهم عيشاً بسيطاً ولما وسدت اليه نظارة المالية عني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فحين كان قبله من الاشراف يتولون هذه النظارة

فانهم كانوا يتركون الكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف تزيورات
الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بنيرته وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ
او مجلس الامة فصار يضرب المثل اشرفه واصبح القوم يقولون عن الامر المتعذر « لا يمكن
تصديق هذا ولو قاله كاتون »

وكان كاتون يقوم بما يعتقد انه واجب عليه دون ان تأخذه رافة او ناله رهبة .
وحاول ان يحكم على مورينا لانه ابتاع اصوات الامة حتى انتخبته قنصلاً فبراه شيشرون
وكان اذ ذاك قنصلاً بخطاب سخيفه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون : « حقاً ان لنا
قنصلاً مضحكاً » واقترح قيصر في مسألة المشتركين في قتل كاتالينا ان يتأخر اعدامهم
لانهم رفعوا قضية فاشد كاتون على قيصر و اشار الى مجلس الشيوخ ان يأمر باعدام الجناة
في الحال فلم يسمع المجلس الا ان يقرر قتلهم .

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بادخال جيشه الى رومية خلافاً لما رسمه الدستور
استشاط كاتون غضباً في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع
القانون وصرح بانه ما دام حياً لا يدخل بومبي الى المدينة مسلحاً ولما جاء متلوس الى الساحة
في جيش من العبيد المسلحين للموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد
بالقرب من متلوس ومنه من قراءة مشروعه فجاء العبيد اذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة
ويضربون بالعصي فهرب الشعب وبقي كاتون فانقذه مورينا بان جره الى احد المعابد وعاد
الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فاجاب متلوس ان يعرضه وذهب
الى آسيا ليحقق ببومبي

ولما اتمق قيصر وبومبي وكان قيصر قنصلاً اقترح سن قانون فلم يجرأ غير كاتون على
قناله فانزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة وبعث به الى السجن وظل كاتون يتكلم
في الطريق وقد تبعه جمهور من اعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر ان يخلي سبيله ولخلاص
منه ارسلته الحكومة الى قبرص ليطرد منها الملك بطليموس دون ان يعطوه جيشاً واذ كان
هذا الملك انحر لم يبق على كاتون الا ان ينظم فئمة بما خلف الملك من الكنوز فاتي الى رومية
بمبلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ احسن استقبال وتقدم للانتخاب قاضياً وكانت القبيلة
الاولى وافقت على انتخابه واذ كان بومبي رئيس المجلس لم يردأ من ان يدعي ان السماء
ترعد واعلان بانفضاض الجلسة (والرد طالع شؤم كما عرفت في بعض الفصول السابقة)
وعند ما اقترحوا ان يعطوا لقيصر جيشاً تقدم كاتون الى بومبي ولطالما شغل الاول بقتال
الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدواً لهذا وهذا لم يمنع كاتون عند ما رأى

المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاهدة اقتراح المقترحين ان يبنوا بومبي وحده قنصلًا عند ما اقترب احدهما من صاحبه ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نصح كاتون لمجلس الشيوخ ان يلقى الى بومبي بقايلد الحكم باجمعه قائلاً على من عمل الشر ان يتلافاه . وتبع بومبي الى خارج ايطاليا ومنذ ذاك العهد اطلق شعره ولميته علامة على الحزن و اشار باطالة زمن الحرب وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم بعضاً ولما بلغته هزيمة فارسال سافر الى مصر يريد الالتحاق ببومبي ووقف في افريقية حيث كان لاحد اشياع بومبي جيش وتولى الدفاع عن مدينة اوتيكيما

واذ هزم قيصر جيش افريقية اقترح كاتون على الرومانيين النازلين في اوتيكيما ان يحاصروا فابوا فاطلق كاتون جميع اعضاء الشيوخ الذين لجؤا اليه ثم استقم وتعشى مع اصحابه واخذ يخوض في المباحث الفلسفية ولما حان وقت النوم طالع محاورة لافلاطون في خلود النفس والتمس سيفه الذي كان نزعته ابنه عنه مغاضباً فاحضره اليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر ثم طعن نفسه في صدره وكان عمره ٤٨ سنة .

فارسال — لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومبي وقيصر وكلاهما يودا الاستئثار بالسلطة وكان من تقدم بومبي على صاحبه انه كان في رومية مسئولاً على ازمة مجلس الشيوخ وكان مع قيصر جيش غالبا المدرب على الحروب منذ ثاني سنين قضاها في الحملات .

فاتخذ بومبي خطة الهجوم واستصدر من مجلس الشيوخ امرًا بان يترك قيصر جيشه ويحيى الى رومية فعقد قيصر اذ ذلك عزمه على اجتياز حدود ولايته (وكان الحد هو نهر روبيكون) وزحف على رومية . ولم يكن عند بومبي جيش في ايطاليا للدفاع فركن الى الفرار مع اكثر الشيوخ من الشاطيء الآخر من بحر الادرياتيك وكان له عدة جيوش في اسبانيا واليونان وافريقية شنت قيصر شملهم واحداً بعد الآخر فهزم جيش اسبانيا سنة ٤٨ ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش افريقية سنة ٤٦ ولما غلب بومبي في فارسال لجأ الى مصر فقتله ملكها .

حكم قيصر — ولما رجع قيصر الى رومية عهد اليه بالامر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق ثم حارب جيوش اشياع بومبي في افريقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتل في رومية بظفره باربعة انداء الغاليين والمصريين وملك بحر الخزر في آسيا الصغرى وملك النوميديين حليف البومبيين في افريقية (لم يكن من الاياقة بان يفاخر لتغلبه على جيش روماني) .

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فاعطاه اولاً كرسيًا اعلى من مقاعد

القنصل ولقبه بالاول ثم خوله الحق ان يحمل تاجاً من الفار (وكان ذلك من حق الارباب) ومنحه لقب «ابو الوطن» وابتدع احتفالات والعاباً اكراماً له واقام لعمثالاً خطوا فيه الفاظ التعظيم وعهدوا الى انكسنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر . ومن الممكن ان يكون قيصر طمع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالامبراطور وقبل بان يلبس ثوباً ارجوانياً وان يجلس على عرش من ذهب ويرسم خوذته على النقود .

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضى على الشعب انتخابهم وهو الذي وضع قائمة بمجلس الشيوخ وكان هلك كثير من الشيوخ فابلق عدد الاعضاء الى تسائة ومعظمهم من انتخابه وكثيرون منهم من الغالين ولم يقض في رومية غير خمسة عشر شهراً من حيث المجموع فما اتسع له الوقت ان يقوم بالاصلاحيات التي كان بنوياً (ما عدا تقويم السنين) ثم قتله ندماءوه الذين كانوا يرغبون في اعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤)

احد الحكام الثلاثة --- اضطر الشعب الروماني وكان يحب قيصر زعمي قتله وهما بروتوس وكاسيوس ان يهربا فنجيا الى الشرق حيث جيشا جيشاً عظيماً وظل الغرب تحت حكم انطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكماً استبدادياً وكان قيصر تبنى ابن اخته اوكتاف وعمره ثماني عشرة سنة بوصية اوصى بها فسمي بحسب العادة الرومانية باسم متبنيه ودعا نفسه يوليوس قيصر الاوكتافي . فضم الى حربه جند قيصر وعهد اليه مجلس الشيوخ ان يحارب انطونيوس وبعد ان تغلب عليه آثر الاشتراك معه لافقسام السلطة فاتحداً مع ليبيدوس ودخلا ثلاثتهم الى رومية واستولوا على الامر استيلاءً مطلقاً مدة خمس سنين تحت اسم الحكام الثلاثة المعهود اليهم تنظيم المسائل العامة . وشرعوا سيف ذي خصوصهم واعداهم الخاصة (فامر انطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣) ثم ذهبوا الى الشرق لتشتيت جيوش التحالفين وبعد ذلك انقسموا للمملكة بينهم . ولم يدم الوفاق بينهم طويلاً بل قاتل بعضهم بعضاً في ايطاليا حتى توسط جندهم في الامر واضطروهم الى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فاصبح انطونيوس ملك الشرق واوكتاف ملك الغرب (٣٩)

حرب الاكتيوم - دام السلم بضع سنين فاخذ انطونيوس يعيش عيش ملك شرقي مصاحباً لكلو بطرة ملكة مصر وشغل اوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت امره اسطوله يخرب به شواطئ ايطاليا . وانتهت الحال بهذين الملكين بانقطاع علائقهما فنشبت آخر حرب بينهما وكانت حرباً بين الشرق والغرب تمت بحرب اكتيوم البحرية واسلم اسطول

كلو باطرة انطونيوس صاحبها فلجأ الى مصر وانحروا بقي اوكتاف وحده صاحب المملكة المطلق (٢١) وكان قد انتهى امر حكومة مجلس الشيوخ .

تقرير السلطة المطلقة - شكوا الناس كلهم من هذه الحروب وكان سكان الولايات يؤخذون فداءً ويسبي الجنود معاملتهم ويقتلهم تقتيلاً يضطرونهم كل فريق من الحكام ان ينحازوا اليه ويعاقبهم الغالب على انضمامهم الى المغلوب . وكان القواد يمدون الجنود بان يكافئهم باعطائهم اراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء الاجناد . وكان اغنياء الرومان يخاطرون بآرويتهم وحياتهم ومتى غلب حزبهم يصبحون العبدية في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء . فقد وضع سيلاً مثلاً من المذابح المدبرة (٨١) وبعد اربعين سنة (٤٣) جدد انطونيوس اوكتاف امر القتل بدون محاكمة

واقصد كان شعب رومية نفيه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل الى رومية الحبوب التي هي مادة غذائه على طريقة مطردة بل كانت تقع في يد قرصان البحر او ينهاها اسطول العدو فبعد ان مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الروما وسكان الولايات والاغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعندها تقدم الى ذاك الشعب المنهوك بالفتن الاهلية وارث قيصر ابن اخته اوكتاف احد الحكام الثلاثة - تقدم اليهم بعد ان تغلب على رصيفيه قال المؤرخ تاسيت وقبض بيده على جميع سلطات الامة ومجلس الشيوخ والحكام . ولم تمض بضع سنين الا وقد اصبح سيداً على رومية وليس بعد هذا من لقب فلم يعد يفكر احد في مقاومته وقد اغلق معبد جانوس ونشر في العالم الوية السلام وهذا كان ما يطلبه العالم باجمعه وذلك لان حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب والثورات وعلى هذا الوجه أسست الامبراطورية الرومانية .

اغسطس

تنظيم الحكومة الملكية - يقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قيصر ان يكون الحكم المطلق بيد رجل واحد يدعى الامبراطور اي الرجل المدير الامر وله الحق ان يتولى السلطات باسمها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء في رأس مجلس الشيوخ ويجمع الجيوش كلها ويقودها ويضع قائمة باءاء اعضاء الشيوخ والفرسان والوزنبيين ويجبي الضرائب وهو القاضي الاكبر والخبير الاعظم وله سلطة القضاة . وليان ان هذه السلطة قد جعلته رجلاً فوق الرجال من البشر لقبوه بلقب ديني وهو اغسطس او اغست ومعناه المحترم لم تنتظم شؤون المملكة بشورة انت على كل اصطلاح قديم ولم يبلغ اسم « جمهورية »

وانقضت ثلاثة قرون واعلام الجنود لا يزال يكتب عليها اربعة حروف من اول اربع كلمات S. P. Q. R. ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن اجتمعت السلطة التي كان ينقسمها اشخاص كثيرين في يد واحد وبدلاً من ان يتولاها سنة فقط اصبح يتولاها طول حياته فالامبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب الروماني ولذلك كان مطلق التصرف .

مجلس الشيوخ والشعب — بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديماً مجلس اعيان الاغنياء واكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف المرغوب فيه فاذا ارادوا ان يقولوا الاسرة الفلانية كبيرة يقولون هي اسرة شيوخ ولكن مجلس الشيوخ على حرمة لم تعد له سلطة لانه لا يتأني الامبراطور ان يستغني عنه ولم يرح مع هذا اول قوة حاكمة في الحكومة وان لم يكن المسيطر عليها وكان يتظاهرا لامبراطور احياناً بانه يريد اخذ رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته .

فقد الشعب كل سلطة اذ ألغيت مجالسه منذ عهد تيريز . واصبح جمهور الامة المزدهم في رومية لا يتألف الا من بضعة الوف من كبار السادة مع عبيدهم ومن خليط من الشحاذين وكانت الحكومة قد تعهدت باطعامهم ودام الامبراطرة يوزعون عليهم الخنطة ويرضخون لهم بشيء من النقود فاعطى اغسطس سبعائة فرنك عن كل رأس تسع مرات واعطى نيرون ٢٥٠ فرنكاً ثلاث مرات عن كل رأس .

ثم ان الحكومة كانت تقيم مشاهد لتسلية هذا العوزاء . وكان عدد المشاهد النظامية ٦٦ يوماً في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك اوريل ١٣٥ يوماً وفي القرن الخامس وصلت الى ١٧٥ يوماً دع عنك الايام الاضافية

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس الى غروبها فيتناول المنفرجون طعامهم في الساحات . وهذا ما كان الامبراطرة يتخذون منه طريقة امينة لاشغال العامة . قال احد المثابن لاغسطس : لفائدتك باقصر يعني الشعب بنا . بل كانت هذه المشاهد واسطة لاستئالة قلوب الامة للامبراطور فكثيراً ما كان اقبح الامبراطرة اكثرهم حظوة عند العامة فكان نيرون الظالم يعبد لانه قام بالعباد لطيفة فلم يصدق العامة بانه مات . وكان ينظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته .

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الامور بل غاية ما تطال اليهم نفوسهم ان يتسلوا او يأكلوا كما قال جوفينال في عبارة له شديدة : « خبز والعباد الميدان »

التأليه — الامبراطور وحده سيد المملكة ما دام حياً لان الشعب الروماني يتغلى له

عن كل سلطة ومتى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما إياه في حياته ويحاكمه باسم الشعب فإذا حكم عليه تبطل جميع أعماله وتُحطَّم تِثْلُهُ ويُعَيَّ اسمُه من المصانع والآثار (١) وإذا أقر على أعماله (وهو ما يحدث غالباً) يقرر مجلس الشيوخ بأن الامبراطور مات وقد ارتقى الى مصاف الارباب .

وقد غدا معظم الامبراطرة ارباباً بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعهد الى كاهن ان يقيم لهم الشعائر الدينية وقد كان في جميع اجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب اغسطس والربة رومية واشتهر عن اشخاص انهم قاموا بوظائف كاهن للآلهي كلود وللآلهي فنز بازين وهذه العادة في تأليه الامبراطور المتوفى كانت تسمى « التأليه » والسكمة يونانية وانقلت عاداتها من يونان الشرق على ما يظهر

ادارة الولايات — كان ثلثائة او اربعمائة أسرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستثمر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الامبراطور بنزع منهم الحكومة ويخضعهم لسلطان ظله . حتى اصبح كتاب الرومان يشنون من فقد حريتهم المسلوحة ولم يكن لسكان الولايات ما بأسفون عليه بل ظلوا رعايا ولكن بدلاً من ان يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام ويجيئونهم نهجين للغنى اصبح لهم رئيس واحد وهو الامبراطور يهتم بالنظر في امريهم . ولقد اوجز تiber السياسة الامبراطورية بما يأتي « الراعي الصالح يميز صوف غنمه ولا ينتهه » ففضي زهاء قرنين وقد اكتفى الامبراطرة بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الاموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي بل من عماهم انفسهم . وعند ما كان سكان الولايات يشكون من الفظائع ومن سرقات حكامهم كانوا يستعدون الامبراطور فيعديهم . وكان من المعروف عند القوم ان الامبراطور يقبل الشكوى على ضباطه وهذا كان يكتفي لادخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وادخال الطمأنينة على رعاياهم

الولايات كلها ملك للامبراطور (٢) لانه يمثل الشعب الروماني فهو قائد جميع الجنود وسيد الناس طراً ومالك الاراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في اراضي الولايات الا التمتع بها والامبراطور وحده مالك لها) واذا كان من المتعذر ان ينصب الامبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل الى كل ولاية بضابط (يسمونه مندوب اغسطس لتولي وظيفة القضاء) وهذا المندوب يحكم البلاد ويقود الجيش ويطوف في

(١) عثر على كتابات محي منها اسم دو منيسين على هذه الصورة

(٢) ترك اغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من اقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكماً متحكماً مثل ولاياته الخاصة كأنه صاحبها

ولايته لينفذ المصالح المهمة ويده الحياة والموت كالامبراطور . ويعتد الامبراطور ايضا
بمحافظة الحجي الخراج وادخال المال في صندوق الامبراطور (ويسمونه نائب اغسطس)

فالضباط والمحافظ يمثلان الامبراطور ويحكمان على رعاياه ويقودان جنده ويثبتان
ملكيته . ويختارهم الامبراطور ابدًا من الطبقتين الشريفتين في رومية يختار الضباط من
مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهؤلاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان
الحكام في رومية القديمة يتدرجون من ولاية الى اخرى ذاهبين من طرف المملكة الى
طرفها (١) فمن سورية الى اسبانيا ومن انكلترا الى افريقية . واذك لتقرأ في الكتابات
المكتوبة على قبور رجال ذاك العهد جميع المناصب التي شغلها مبينة احسن بيان . وكتابة
قبورهم تكفي لبيان تراجمهم وما تولد من اعمالهم

الحياة البلدية - وكان تحت هؤلاء العمال الكبار الذين يمثلون الامبراطور وهم
لايسألون عما يفعلون اناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون انفسهم بانفسهم
والامبراطور الحق في ان يتدخل في شؤونهم الداخلية الا انه لايسيء في العادة استعمال
هذا الحق . فيطلب اليهم فقط ان لا يجاروا وان يدفعا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم
من الاموال وان يحاكموا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية كثير من الحكام
المحكومين ويسمون اهل المدينة او البلديون ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي
تجري كل مدينة خاضعة للامبراطورية في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها
مجلس الشعب وتنتخب حكماها لسنة ويقسمون الى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس
الشيوخ مؤلف من كبار ارباب الاملاك والاعنياء وارباب الاسر القديمة وفي الولايات
كما في رومية لا يكون مجلس الامة الا صورة والحكم لمجلس الشيوخ اي للاشراف

من العادة ان يكون مقر الولاية مدينة اي مثل مدينة رومية مصغرة ولها معابدها
واقواس نصرها وحماماتها العامة واحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة
مصغرة . من عيش رومية فتوزع الخنط . والدراهم على الفقراء وتولم الولاة العامة وتقام
الحفلات الدينية الكبرى والالعب الدموية . الا ان رومية تقوم بما يجب لذلك من
النفقات تأخذ من مال الولايات اما في الولايات فان الاشراف يقومون بالاتفاق على
حكومتهم واعيادها . والخراج الذي يجبي لحساب الامبراطور يحمل كله اليه ولذلك

(١) قال الفيلسوف ابيكت لا يقدر كبار الرجال ان يتأصلوا في الارض كالاناث .

بل عليهم ان يسبحوا كثيرا لاطاعة اوامر الامبراطور

يقضى على اغنياء كل مدينة ان يقوموا بما يقضي من النفقات للاحتفال بالالاعاب واحماء الحمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات . قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين وانفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع المثبتة في ارض المملكة وألوف من المكتوبات على الاحجار

المستعمرات --- تقيم رومية في البلاد التي تشك في خضوعها لها جيشاً صغيراً تسكنه فيها فيبني مدينة تكون حصناً حصينا وتبعث اليه بأناس من الوطنيين الرومانيين يكونون جندا وفلاحين في آن واحد ويميزي الجيش الاراضي المجاورة الى حصص متساوية توزعها عليهم وهذا ما يسمونه مستعمرة

ويبقى المستعمرون وطنيين رومانيين ويخضعون لجميع ما تأمر به رومية . وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية - التي كانت كثيراً ما تشق عصا الطاعة حتى انها لتحارب آثنته نفسها --- بان تكون ابدا ابنة خاضعة لامها فليست المستعمرة الاحامية رومانية مرابطة بين الاعداء . وكانت اكثر هذه المحطات العسكرية في ايطاليا ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فانها كانت مستعمرات رومانية .

جيش التخوم --- لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني لان سكان المملكة لا يرون الانقاضي على الحكومة فلم يكن للمملكة اعداء الا على الحدود وكان الاجانب ابدآ على استعداد من مهاجمتها فالجرمان وراء نهري الرين والطونة ورحالة الصحراء وراء رمال افريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية

ولذا كان من اللازم اللأزم اقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التخوم المعرضة ابدآ للتهديد . ادرك اغسطس ذلك فانشأ جيشاً دائماً فلم يكن جنود الامبراطورية من اصحاب الاراضي يؤخذون من حقوقهم لخدموا في الجندية بعض حملات بل كانوا اناسا من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لهم فيدخلون الجندية لخدموا فيها ست عشرة سنة او عشرين سنة وربما جددوا هذه المدة

وعلى هذا كان للامبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين اي ١٨٠ الف اولهم بموجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ الف رجل على التقريب وكان هذا الجيش قليلا بالنسبة لعظم تلك المملكة

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير بعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يجيى الباعة ينزلون بقرها فلا يعم المعسكر ان يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بازاء العدو فيحفظون

شجاعتهم ودربتهم . مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولا سيما على ضفاف الرين والطنونة في بلاد ندية قاحلة مغطاة بالغابات والمستنقعات . وربما بذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لا نتيجة لها من الشجاعة والشهامة أكثر مما بذل قدماء اليونان في فتح العالم

الآداب - لم يكن الرومان بالطبع امة فنون وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها أثر اليونان . فمن يونان أخذوا نموذجاً من فاجعاتهم وقصصهم المزلية وملاحمهم وأناسيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية . واقتصر بعضهم على ترجمة الاصل اليوناني (كما فعل هوراس في أناسيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان افكارهم ومناحيهم ومزجوها عند ما احتدوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها

واتفق الرومان على ان العهد الذي أزهرت فيه الآداب اللاتينية حقيقة كانت الخمسين سنة التي قضاها اغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبغ فيه فرجيل وهوراس واوفيد وتيبول وبروبرس وتيت ليف ولكن عصر اغطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرنات ربما عادلاه في اخراج النوابع في الجيل الاول (القرن الاول قبل المسيح) اظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وقيصرا نادر ناثر وشيشرون اخطب خطيب وفي الجيل اللاحق كتب سينيكا ولوكين وتاسيت وبلين وجوفنال ما كتبوا

وبعض هؤلاء المؤلفين العظماء فقط من أسرة رومانية ومعظمهم ايطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيكا اسباني . وكان الفصاحة هي الفن الوطني حقاً في رومية فكان الرومان كأطليان في ابامنا يحبون الكلام علناً . وكان الخطباء يأتون الى ساحات الاجتماع حيث تلتئم مجالس الامة في أواخر عهد الجمهورية يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم وشيشرون اعظم أولئك الخطباء وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس ففقدت الفصاحة لقلة المادة

اللغة اللاتينية - انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع لغتهم الى رعاياهم المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة وتعلموا اللغة اللاتينية . ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة اقتبسوا آداب حاكميهم فتكلم اهل الامبراطورية اذ ذاك بلغتي الشعبين الكبيرين القديمين فظل الشرق يتكلم باليونانية واخذ الغرب باجمعه يتكلم باللغة اللاتينية

فلم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط كما هي الانكليزية لهندنا في الهند بل ان الامة نفسها تتكلم بها ما امكن من الصحة بحيث ان القوم في اوربا بعد انقضاء ثمانية عشر قرناً ما برحوا يشكون الى اليوم بخمس لغات مشتقة من اللاتينية وهي الايطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسوية والرومانية

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة انحاء الغرب فما كانت تدرس في القرن الرابع في مدارس بوردو واوتون غير شعراء اللاتين وخطباءهم وظل الاساقفة والقسيسون بعد هجوم البرابرة يكتبون باللغة اللاتينية ونقلوا هذه العادة ايضاً الى شعوب انكلترا والمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية . فباللاتينية كتبت في القرون الوسطى السجلات والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية . وفي الادبار والمدارس لا تقرأ ولا تسمع ولا تعتبر غير الكتب اللاتينية وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مؤلفي اللاتين امثال فرجيل وهوراس وشيشرون وبلين لجون وما كانت النهضة العصرية الاوربية الا عبارة عن احياء ما فقد من آثار اقلام كتاب اللاتين واصبح التسج على منوالهم اكثر من ذي قبل . فكما ان الرومان انشؤا لانفسهم آداباً خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الاوربيين ينسجون على مثال كتاب اللاتين . وليت شعري هل عاد ذلك بخير ام بشر؟ ومن يجرأ ان يفوه بذلك؟ فما لاجدال فيه اذا ان لغائنا الرومانية الاصل هي بنات اللاتينية وان آدابنا طامخة بالافكار والمنازع الادبية الرومانية وان العالم الغربي بأسره مصبوغ بصبغة الآداب اللاتينية .

الصناعات - عثر الباحثون بكثرة على تماثيل وصور بارزة رومانية ابقتها الايام من عهد تلك الحكومة منها ما نقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها تقليداً لها ولكنها اقل من الاصل لطفاً وذوقاً . ومن اغرب الاموذجات الباقية النقوش البارزة والصور النصفية فلقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد واقواس النصر) والقبور والنواويس تمثل بها احسن تمثيل لمشاهد حقيقية وحفلات وندورا وحر وياوماتم وكل ما يحيطنا علماً بالحياة السالفة . وان النقوش البارزة التي جعلت حول اعمدة تراجان ومارك اوريل لتجملنا كأننا نشاهد مشاهد حروبيها العظيمة بتلك الرسوم تمثل لك الجنود ثقات البرابرة ويحاصرون قلاعهم ويأتون بالاسرى كما تشهد النذور العامة والامبراطور يخاطب شعبه والصور النصفية هي في الاكثر صور الامبراطرة وسائهم واولادهم واذ كثرت تماثيلهم في اطراف المملكة بأسرها عثر على كثير منها حتى ان عند جميع المتاحف اليوم مجموعة من الصور النصفية الامبراطورية وهي صور حقيقية وربما كانت شبيهة باصحابها كل

الشبه اذ نرى فيها سماء كل امبراطور واضحة اي وضوح وكثيراً ما تكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون ان يزبنوها ويخفوها من سحنات المصورين فلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي لانه يقوم بحاجة عملية وفيه ايضاً قلد الرومان اليونان باتخاذ الاروقة والعمد ولكن كانت لهم طريقة لا يستعملها اليونان وهي العقود (الاقبية) اي فن وضع الاحجار المنحوتة تدعم بعضها بعضاً على شكل قوس مربع . فبالعقود تسنى لهم ان ينشئوا انية اوسع واكثر نفنتاً من ابنية اليونان

المصانع - اليك اهم انواع المصانع الرومانية منها «المعبد» وهو كثيراً ما يشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون احياناً اكثر سعة تعلوه قبة . ومن هذا النوع معبد البانثيون الذي بني في رومية على عهد اغسطس . ومنها «الكنيسة الكبرى» وهي بناء مستطيل طويل يعلوه سقف وتحيط بها اروقة وفيها ينصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع التجار ليتجادلوا في ثمن البضائع فالكنيسة هي «بورصة» ومحكمة مثلاً . وفي الكنائس الكبرى اقيمت بعد ذلك مجالس المسيحيين وظلت الكنائس النصرانية قروناً محتفظة باسماء الكنائس الرومانية واشكالها

ومنها المرازح (المرايح) ذات الدرجات «انفنياتر» والملاعب وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملاعب وكل طبقة من هذه الاروقة يعلوه عدة صفوف من الدريجات وذلك مثل الكوليزة في رومية وميادين ارل ونيم . ومنها قوس النصر وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمرور مركبة منه وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة ومن هذا النوع قوس النصر في اورانج . ومنها الجسر وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر . ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيراً ما تكون على شكل جسر لتر فوق دار ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد

وقد كان الامبراطور اغسطس يفاخر بانه افنتح في رومية زهاء ثمانين معبداً قال : « لقد وجدت مدينة من القرميد وهاء انذا اترك مدينة من الرخام » وعمل اخلافه كلهم على زخرفة رومية وقد ازدحمت المصانع حوالى الفوروم (الميدان) خاصة واصبح الكتاتول مع معبده المعروف بمعبد المشتري اشبه شيء بالا كروبول في آثينة . وفيه ذاك الحلي ايضاً انشؤا عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة قيصر وساحة اغسطس وساحة نرفنا زساحة تراجان وهي ازهاهن

استخدم الرومان (١) في ابنتهم الخجارة التي وقعت تحت ايديهم في البلاد يرصفونها ببلاط

(١) لا ينبغي ان يغرب عن الاذهان ان الصناعات الرومانية هي كالأدب الرومانية

متين صنع بالكلس والرمل بحيث انت عليه الف وثمانمائة سنة وهو لم يتحت بما اصابه من الرطوبة . ولا نقرأ في مصانع الرومان تلك البهجة التي نجل على المصانع اليونانية بل انها متسعة متينة راسخة القواعد شأن الفتح الروماني . وما زالت ارض البلاد الى يومنا هذا طالحة بانقراض تلك المصانع ولم يبرح الباحثون يعثرون حتى في قفار افريقية والدعشة آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة . ولما أريد جلب الماء الى تونس لم يعملوا الا ان اصلحوا مجرى النهر الذي أنشئ في العهد الروماني .

التجارة — أصبحت رومية اعظم مدينة في العالم (ويذهبون الى انه جاء عليها زمن كان فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة . ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر تنقل في الماء اي في البحار وفي الانهار اكثر من الطرق التي يقضي ها عجالات ثقيلة لنقل تلك المتاجر . فكانت المتاجر تنقل الى رومية من طريق البحر خاصة فنقلها السفن الى مرفأ اوستي عند مصب نهر التبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر حتى تصل الى سفح جبل افنتين وتنزل شحنها في مرفأ رومية . وكانت البضائع الخاصة ببقية ايطاليا تفرغ في مرفأ بوزول في خليج نابولي ومن هناك يرسلونها في الطرق واذا تيسر لهم يرسلونها في قوارب تسير على الشاطئ او تجري صعداً في الانهار تجرها الخيول

وكانت رومية وايطاليا تصرفان اكثر مما تنتجان فجارتهما خاصة تجارة واردات وكان تجار من الطليان ينزلون في اهم مرافئ العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليعتثوا بها الى رومية . وكنت تجد في كل بلد مركزاً للتجارة مثل بلزمة في صقلية وقرطاجنة في افريقية والاسكندرية في مصر ومن هذه البلاد كانت تجلب الى رومية الحبوب والزيت والفاكهة والبقول الناشفة ومن المراكز التجارية افيز في آسيا الصغرى وانطاكية في سورية ومنها كانوا يرسلون الاصواف والاقشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية . ومن هذه المراكز اوبيا على شاطئ البحر الاسود واليهما كانت تأتي حنطة روسيا . ومنها فادش في اسبانيا كانت ترسل الى رومية فضة المناجم واو بار بتنكيا (في الاندلس) ومن هذه المراكز نار بون وارل في غاليا كان يجلب اليهما في نهر الرون جلود بلاد الغال واخشابها (اما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجوس اصبح ميناء حربية) .

وكان الرومانيون يجلبون ايضاً بضائع من خارج فيبعث اليهم الشرق بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاحجار

لم ننشأ بيد صناع من الرومان بل بيد اناس من سكان الولايات ربما كانوا من العبيد ولم يكن ثمة روماني الا الرجل الذي يعملون له اعمالهم

الكرمية واقشة الصوف والحريز والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولاسيما القروء) فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الاحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام (مع القوافل) والى اولبيا من طريق بلاد فارس وبحر الخزر وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عنبر البلطيق وقصدير انكلترا وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والاديم والشمع وشعور النساء والعبيد أغسطس — مات أغسطس ولم يخاف دور تأثيره مباشرة خلفه ابن زوجته تيبير وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والامبراطور ابدأ رجل من أسرة أغسطس وادرك الرومان منذ ذاك فساد هذه الطريقة

فكان للامبراطور مدة حياته سلطة مناهية لاحد لها فهو الحاكم على هواه في الاشخاص والاموال يحكم بالقتل ويصادر الاموال ويهلك من يريد اهلا كما بدون رقيب لا يقف امام ارادته حاجز من نظام ولا قانون . حتى قال المشرعون الرومان : ان لامر الامبراطور قوة القانون . وبذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لانهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم ينحصر في سور ضيق من مدينة بل كان عظيماً كالمملكة . فكما كان في يونان ظالمون اهل حشمة وقار كان في رومية امبراطرة حكماء محضمون ولكن قل في هؤلاء من لم يستهيم دوار السلطة عند مايرون انهم بلغوا ارقى رتبة يصل اليها انسان . ومن امبراطرة رومية من لم يستخدموا سلطتهم التي لم يسمع بمثلم الا لترسل اسماؤهم كالا مثال فضرب المثل بنبيرون وظلمه بكلود خليفة تيبروس خائفه وكاليجولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قنصل وتطاوله الى ان يعبد كالارباب . فكان الامبراطرة يضطهدون الاشراف خاصة ليحولهم عن كيد المكاييد ويضغطون على الاغنياء ليصادر اموالهم

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام وهي تتمثل كلها في شخص الامبراطور ومتى هلك ببحث فيما اتاه من الاعمال . كان القوم عارفين بان العالم لا يستغني عن سيد ولكن ليس في شريعة ولا عادة ما يستدل به على ماهية ذاك السيد . فكان من حق مجلس الشيوخ وحده ان يعين الامبراطور ولكنه يختار ابدأ بالقوة من اختاره الامبراطور السالف أو رضي عنه الجند . ولقد عثر حراس القصر الامبراطوري بينا كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الامبراطور كاليجولا على رجل اختبأ وراء الفرش وهو ترتعد فرائضه فأوأ انه من انساب كاليجولا فعينه الحرس امبراطوراً وكان هو الامبراطور كلود

الحرس الامبراطوري — كان يحظر زمن الجمهوريات على القائد ان يأتي في جيشه الى المدينة فاصبح الامبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو

عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تير في ثكنة حصينة بالقرب من المدينة . وبتخب هذا الحرس من قدماء الاجناد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتوالى عليه الاحسانات وبهؤلاء الجنود يعتز الامبراطور فلا يخاف باثقة تصيبه من الناقين عليه من أهل رومية . بيدان الخطر كان يأتي من الحرس نفسه واذ كانت القوة معهم اعتقدوا بأنه يحل لهم ان يأكلوا كل شيء وكان زعيمهم أوسع سلطة من الامبراطور

الثورات والحروب — استشاط أشراف الرومان غضباً مما أناه نيرون من الفظائع وضروب الجنون فحدا سخطهم ببعض الولاة الى الانتفاض وخلع الطاعة فشر اذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند اليها فأعلن بان نيرون عدو عام فلم يسعه الا الهرب ثم الانتحار .

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي اسبانيا المدعو غالباً فعينهوه امبراطوراً ولكن الحرس الامبراطوري لم يره كريماً جواداً فذبحه ونصب مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتون . ثم ان الجنود المرابطة في تخوم جرمانيا ارادت ان تنصب بنفسها امبراطوراً فدخلت فرق نهر الرين الى ايطاليا فصادفوا الحرس الامبراطوري بالقرب من كرميون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أخذت بطرفي الليل ثم نصبوا الامبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ وهذا القائد فينليوس

وفي ذاك الحين انتخب جيش سورية زعيمة فسباسين الذي قاتل فينليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة امبراطرة في سنتين وأُنزل الجند ثلاثة امبراطرة عن عروشهم . وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرقت معبد الكتابول . الفلافيون — نصب فسباسين امبراطوراً فوطد أركان السلم وكان ايطالياً وهو حفيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد والادحاجة في عيشه . فرأى القسم الاعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات ايطالية أو من اهل الولايات ولما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن ابداء العداء للامبراطور فغلب فسباسين أولاً (٧٩) ابنه تينوس الذي مات للحال ثم ابنه دومنين (٨١) الذي كان قاسياً غداراً مثل ظلمة اليونان

الانطونيون — اشتهر الخمسة الامبراطرة الاتون وهم نرفاوتران وادريان وانطونين ومارل أوريل (٩٦ — ١٨٠) بالحشمة والحكمة ويدعونهم الانطونيين (وهذا الاسم لا يوافق في الحقيقة الا الآخرين منهم) ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية بل كان تراجان وادرين اسبانيين وولد انطونين في نيم ولم يكونوا أمراء من أسرات امبراطورية خلقت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها . وقد تولى الحكم اربعة امبراطرة وهم عقيمون فلم

يتسنى نقل الحكم بالوراثة . وكان الامبراطور يختار كل مرة من قواده وولاته أقدر رجل يحلفه ويتبناه ويعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الامبراطورية الا اناس معنكون يحلفون آباءهم في مركزهم بدون قال وقيل .

ولقد كان عصر الانطونيين اهدأ العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تنشب بعيدة عن تخوم المملكة ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتاً ولا مظلة ولا أحكام جائرة . فكبح الانطونيون جراح الجند بتدريهمهم على النظام ونظموا الحاكَم ومجلس الامبراطورية وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عن حرورهم من العبيد الذين ظالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الانثي عشر قيصرأ باناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من اشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان) وما عاد الامبراطور ظالماً يحده جند بل كان حقاً الحاكَم الاول في الجمهورية لا يستعمل سلطته الا لما فيه نفع شعبه

حارب الانطونيون حروباً كثيرة ليدفعوا الشعوب المحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الامبراطور من ناحيتين . فحاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا كما حاربوا على الفرات حكومة البارثيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس .

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة ورجع في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ - ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان يأتى عليهم فانشأ على نهر الطونة جسراً من حجر وهاجم ولايتهم فضمها الى المملكة الرومانية (١٠٦) وأنزل فيها طواريء ومستعمرين أنشؤا فيها مدناً وأصبحت ولاية داسيا بلداً رومانية تكلم اهلها باللاتينية وتحلقوا بالاخلاق الرومانية .

ولما انجلت الجيوش الرومانية في اواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالبه . وقد اطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعى الروماني ويتكلم بلغة مشقة من اللاتينية كالفرنسية والاسبانية

حارب تراجان البارثيين ايضاً فجاز الفرات واستولى على « المدائن » وهي عاصمتهم وتوغل في احشاء البلاد الى فارس ودخل الى سوس واخذ منها عرش ملوك فارس المعمول من الذهب الاصم . وانشأ اسطولا على دجلة ونزل في النهر حتى مصبه والبحر في خليج فارس

واستخلص من البارثينين البلاد الواقعة بين بلاد الفرات ودجلة وجعلها ولايتين رومانيتين
بيد ان هاتين الولايتين انتقضتا بعد سفر الجيش الروماني .

اما الانطونيان الاخيران وهما انطونين ومارك اوريل فقد شرفا الامبراطورية بنضائهما
وكان كلاهما يعيش ببساطة كما يعيش الافراد على غناها دون ان يكون لهما ما يشبه قصرًا
او سرايا وان يشعرا بأنه كانت لهما سلطة وسيادة

ولقد لقب مارك اوريل على العرش بالحكيم وكان يحكم البلاد مدفوعا بعامل الواجب
على غير ارادته ومع انه كان يؤثر العزلة قضى حياته في الحكم وقيادة الجيوش .
وانك تترى فيما خطه في تذكركه البيئية من افكاره صورة الفيلسوف الرواقي الصالح الزاهد
العاذ عن العالم وهو على جانب من اللطف والحلم قال : « أحسن الاساليب في الانتقام
من الاشقياء هو ان لا يعمل المرء عملهم والارباب انفسهم يعطفون على الاتقياء فلك ان
تقندي بالارباب »

ولقد كان مارك اوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته
بدون انقطاع . ولقد وقف في وجه كثير من التعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها
ويدفع عادياتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل الشمال ايطاليا واقتضى
له ان يؤلف جيشا جند عبيدا وبرابرة (١٧٢) فانسحب الجرمانيون ولكن بينما كان مارك
اوريل مشغولا في سورية بقتال أحد القواد المتمردين عادوا على اعقابهم وهاجموا الامبراطورية
ومات مارك اوريل على ضفاف الطونة (١٨٠)

ولما وقفت الفتوح (بعد تراجان) كانت الامبراطورية تمتد على طول جنوبي اوربا
كلها وعلى طول الشمال من افريقية والغرب من آسيا ولا يقف في سبيلها الا الحدود الطبيعية
فمن الغرب البحر المحيط ومن الشمال جبال ايكوسيا ونهر الرين والطونة وقافقاسيا ومن الشرق
بوادي الفرات وبلاد العرب ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة . فكانت
الامبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من انكلترا واسبانيا
وايطاليا وفرنسا والبلجيك وسويسرا وبافيرا والنمسا والمجر والبلاد العثمانية في اوربا ومراكش
والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والاناضول أي انها ضعفا مملكة الاسكندر .

السلام الروماني - ابطال الرومان الحروب في داخلية بلادهم باخضاع جميع الشعوب
لسلطانهم . فتوطد السلم الروماني الذي وصفه احد كتاب اليونان بما يأتي : « لكل فرد ان
يذهب حيث شاء فالرواقي خاصة بالسفن والجبال أمينة على سالكيها أمن المدن لساكنتها

ولم يبق دواعٍ للغوف وقد طرحت الأرض سلاحيها الحديدية القديم ونجحت في ثياب الاعياد .
وها أنتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بأن الأرض ملك للجميع»

فأصبح الناس في الغرب للمرة الأولى في حلٍّ من إنشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع
بأموالهم وأوقاتهم دون أن يكونوا كل ساعة عرضة لمهدد يتهددهم باستلابها منهم أو أن
يذبحوا أو يقادوا كالأسرى والعبيد . وهذا أمان قلما نقدره قدره إذ قد تمتعنا به كلنا منذ
الصغر ولكن الظاهر أنه كان يعد من حسنات الأمور النادرة عند القدماء

سهلت الرحلة في تلك الامبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقاً في كل مكان مع
محطات ومواقف وصنعوا مصوّرات (خرائط) لطرق المملكة وكان كثير من أرباب
الصناعات والتجار يرحلون من طرف إلى طرف آخر من المملكة . ويرحل علماء البيان
والفلسفة في بلاد الامبراطورية ذاهبين من مملكة إلى أخرى وهم يلقون المحاضرات .
وكان ينزل في كل ولاية أناس من أهل الولايات القاصية فقد دلت الكتابات على
الاحجار انه كان في امبانيا اساتذة ومصورون ونقاشون من اليونان وفي غاليا صياغ وصناع
آسيايون

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم وأديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الأمم
التي ينزلون عليها ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية وما انتلج فجر القرن
الثالث عشر حتى غدت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة كما صحبت اليونانية لغة الشرق منذ
قام خلفاء الاسكندر . فنشأت في رومية كما نشأت في الاسكندرية حضارة مشتركة
سموها الحضارة الرومانية ولم تكن كذلك إلا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في
قبضة الامبراطور

الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيفير يون — بدأت الفتن الاهلية بعد عهد الامبراطرة الانطونيين فذبح الحرس
الامبراطوري سنة ١٩٣ : الامبراطور برتيناكس ورأوا أن يضعوا المملكة في المزاد فنقدم
طالبان يريدان ابتياعها احدهما سولسبين تقدم على ان يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك
والثاني ديدايوس رفع ما يدفعه لكل جندي الى ستة آلاف فرنك فحمله الحرس الى مجلس
الشيخوعينوه امبراطوراً ثم لم يستطع القيام بما تعهد به فذبحوه

وفي خلال ذلك بوجع بالملك ثلاثة قواد ثلاثة جيوش كبيرة وهما قائد برتانيا وقائد
ايليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون الى رومية فوصلت فرق ايليريا قبل
غيرها فعين مجلس الشيخ القائد سبتيم سيفير امبراطوراً على رومية فنشبت عندئذ حروب

سالت فيهما الذماء انهاراً احدهما لمدافعة جيش سورية والاخرى لمدافعة جيش برتانيا وظلت لسيفير الكلمة النافذة مدة سنتين وهو الذي اوجز سياسته في كلمتين فقال : « ايها الابناء ارضوا الجند واهزؤا بمن بقي »

الفوضى والغارة — مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير ارادة الجند وكان في الامبراطورية ماخلا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق وانكثرا . وكل جيش يود ان يجعل قائده امبراطوراً والمتنافسون يتقاتلون حتى كتبت الغلبة لواحد فحكم بضع سنين ثم قتل (١) واذا اسعده الحظ بنقل السلطة الى ابنه من بعده فالجيش يترد على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر .

وفي ذاك الحين نشأ امبرطرة غرائب في اطوارهم فكان ايلاجابال كاهناً سورياً لبس ثياب امرأة وترك امه تؤلف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شيخات وعجائز) ومنهم الامبراطور ماكسيان وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفك كان يأكل على مايقال ٣٠ لبرة من اللحم ويشرب عشرين لبرة من الخمر . وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الامبراطورية ثلاثون امبراطوراً انقطع كل منهم الى ناحية من المملكة (٢٧٨-٣٦٠) وسمى نفسه امبرطوراً فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالماً .

وبينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضاً كان يرى البرابرة ان التخوم خالية من الحامية فيجنازون ارض الامبراطورية ويحربونها . وكان اقليم غاليا خصوصاً هو الذي يقاسي الامر من هذه الغارات في القرن الثالث فتجنازها عصابات من الحاربين الجرمان كالامان والفرنك واذ لم يجدوا فيها مدناً حصينة ولا جيوشاً نهبوا المدن وحرقوها واخذوا ماشأوا من اهلها اسرى معهم وذبحوا الباقين . وفرسان الكسون يحربون شواطئ بحر المانش كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان انساناً يعبدون ارباب المشرق مثل الرب ايزيس واوزيريس والرة الكبرى ولكن ميترا وهو رب فارسي رب عام اكثر من الارباب قاطبة في الامبراطورية . وميترا الشمس وهي مصورة في المصانع التي انشئت اكراماً لها وهي تصرع ثوراً وقد كتب عليه ما يأتي : « للشمس التي تغلب الرب ميترا » وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع اجزاء الامبراطورية . وعبادة الشمس ملتبسة مبهمه فهي احياناً اشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد ولائم مقدسة ومسحة وتوبة وشموع ولاجل ان يقبل المرء في جملة اهل هذه العبادة يجب القيام باعمال من صوم ومحن وخوفه

(١) قدروا ان عدد الامبراطرة من القرن الاول الى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلاً

وقد كان دين ميترا في اواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة . ودان الامبراطرة والجيش بهذا الـب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح ونقوش بارزة وكان في رومية ايضاً معبد نخيم انشاء الامبراطور اورليان . وكان من اشد الحاجات الماسة في ذاك العهد البقاء مع الارباب على صلح ووثام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فلبس المؤمن ثوباً ابيض مزينا بالذهب ويقعد في اسفل هوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مثقوب ويأتون بثور يقفونه على هذا اللوح فيسخره الكاهن فيجري دمه من الثقب على اثواب المؤمن ووجهه وشعره . وكانوا يعتقدون ان هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة شمع الصورة ولكنه سعيداً مغبوطاً .

اختلاط الاديان — اخذت الاديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فتعبد الشمس تحت اسماء منوعة (وهي التريية وهليوس وبلع وايلكابال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيراً ما تجري على مثال العبادات النصرانية ومن اعظم الامثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه اسكندر سيفير الامبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة فقد كان في قصره مصلى يعبد فيه المحسنين للانسانية وهم ابراهيم واورفيه ويسوع وابولونيوس دي تيان .

ديوكسين — بعد مرور زمن في الحروب الالهية قام امبراطرة تمكنوا من وضع حد للشغب وكانوا قساة عاملين وجنداً ترقوا في درجات الجندية حتى اصبحوا زعماء وقواداً ثم صاروا امبراطرة . ويكاد يكون منشأ معظم اولئك الامبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وايلريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة او مزارعين . وكانوا في سداجة اخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان ولما طلبت وفود ملك فارس ان يروا الامبراطور بروبوس راوه شيخاً اصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الارض ويتناول حمصاً وشحم خنزير وكانت هذه سيرة كوربوس دانه توس قبل خمسة قرون

ولقد كان هؤلاء الامبراطرة اشداء على الجند فاحدثوا في الجيش نظاماً وفي البلاد اماناً ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة اضرم نيرانها الامبراطور ديوكاين الذي تدرج من الجندية الى تولي مقام الامبراطورية (٢٨٥) وتنازل عن الملك بعد ان نظم شؤون الامبراطورية .

ولم يعد يكفي رجل واحد لتولي شؤون الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فاتخذ كل امبراطور له كما اتخذ ديوكسين من انسابه واصحابه اثنين او ثلاثة يوازره

وعهد الى كل واحد النظر في جزء من مملكته . وفي العادة ان يدعوا باسم " قيصر " ويحدث أحياناً ان يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم اغسطس ومتى هلك احدهما يخلفه احد القيصرية اما الجيوش فلا تتنازع ان تنصب امبراطورة .
واتسعت الولايات اي اتساع حتى ادى ذلك بديوكلسين الى تقسيمها فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فاصبحت زهاء ٩٠ ولاية (وندت غالباً سبع عشرة ولاية بعد ان كانت سبعاً) وامسى الحرس الامبراطوري في رومية خطراً على البلاد فاستعاض الامبراطور ديوكلسين عنه بفرقتين سماها فرقتي القصر .

المدينة الرومانية على عهد الامبراطورية

مدينة بومبي — ذكر بلين الفتي في كتاب له قصة ثوران بركان فزوف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم . وكان المعلوم ان هذا البركان اخرب مدينتين صغيرتين نزهرتين وهما هر كولانوم وبومبي ولكن لم يعرف احد موقعهما . واكتشفت في القرن الثامن عشر بالعرض مدينة هر كولانوم مغطاة بطبقة من الحمم ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكدان . وبديء بالبحث في هر كولانوم فعثر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج مخطوطة محروقة توصل العلماء الى حل بعضها ولكن حالت صعوبة العمل في الحمم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا بدؤوا به . وآثروا ان يحنوا في بومبي حيث يسهل نزع الرماد وقد مضى القرن التاسع عشر باجمعه والهمم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة حتى كادت تظهر بأسرها الآن كما كانت .

ظهرت بومبي للانظار على ما كانت عليه قديماً وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفرّ السكان من كثير من البيوت عند وفيق هذا البلاء ثم عادوا يفتشون عن اثار الاعلاق وانفس النفائس . وما برحت الحيطان قائمة ولم تمح منها الاعلانات المكتوبة بالحمرة بل ما زلت ترى فيها الخطوط التي خطها المارة بالفهم وسلمت التوارع وبلاطها المحفور بسير المركبات والعجلات . وقد وجدوا ايضاً على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقاً من الرسوم وقد توصلوا بان جعلوا جيباً مانعاً في تلك الرسوم واخرجوها فكانت قوالب لثلاث الاجساد الميتة .

العيشة الرومانية — تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في المدينة الرومانية صغيرة فتمتد كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقطوعة الى زوايا قائمة ومبلطة ببلاط محكم الاجزاء ولها ارضنة الا ان الشارع الاعظم كان معوجاً وبلغ من ضيقه ان كان يتعذر على مركبتين ان تلتقيا في وسطه .

ولم يكن للمساكن غير نوافذ صغيرة وقليلة تطلُّ على الشارع بل كانت للغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل اليها النور . وبهذا عرفت ان الشوارع كانت محاطة بمحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة وعلى طولها صفوف من الحوانيت يستأجرها السوق والباعة . وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومحاكم وسوق مستقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع اهل البطالة وفيها داران للتمثيل حفر القسم الاعظم من الكبير منهما في أكمة وهو يسع خمسة آلاف منفرج والصغير يسع ألفاً وخمسمائة وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة « انفيتيتر » نقام فيه الالاعاب ويتصارع فيه المصارعون . وفيها ثلاثة حمامات عامة (على الاقل) لاصغرها وهو الذي حفظ اكثر من غيره مقصورة للاستحمام واخرى للحمام السخن وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب) وليس في الدور غير اخونة ومقاعد وصناديق وسرر وشمعدانات وكثير من المصاييح اذ لم يكن القدماء بكثرون من الاثاث . اما الغرف فصغيرة ويعملون الزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى الا ان مصاييف اغنياء السكان مبلطة بالفسيساء والجدران مغطاة بصور جميلة فيها مشاهد اساطير وتزيينات من اكاليل وازهار اما الحوانيت فخالتها تشعر بضعف التجارة والحوانيت باعة المشروبات اشارات مصورة وقد صوّرت في احداهما صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقوداً . وكتب على حانوت آخر : « هنا فندق بؤجر غرفة ذات ثلاثة سرر » وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان ندران باليد وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وادواته من القلن (الخماس الاصفر) ومعمل نقش ودباغة .

المشاهد — كان للمشاهد في حياة هذا الشعب العطل من الاعمال في رومية شأن يصعب علينا تصويره فكانت المشاهد كما في يونان عبارة عن العاب اي حفلات دينية وتتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الايام التالية مدة اسبوع على الاقل . والمشهد عبارة عن موعد تتواعد اليه الامة الحرة باسرها وهناك كانت تقام المظاهرات في خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ اخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون : السلم . والمشهد (الفرجة) كان يحسب ما تميل اليه النفوس في ذاك الزمن فقد مثل فيه ثلاثة امبراطرة قتل كاليجولا في هيئة حوذي ونبرون ممثلاً وكومود مصارعاً . والمشاهد ثلاثة اضرب وهي المرح او المسرح (المرح) والملمب وشكل نصف الدائرة (انفيتيتر) وكان المرح على الاسلوب اليوناني والممثلون ينان وقد جعلوا اوجهاً مستعارة على وجوههم يشخصون قصصاً اخذوها من اللغة اليونانية . وقلما كان الرومان بقدرهم مثل

هذه الروايات قدرها لانها تعلو عن عقولهم وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة المعروفة بالميم ولا سيما «البانتوميم» التي يشخصها الشخص دون ان يتكلم ويظهر عواطف الاشخاص الذين يمثلهم بحركاته وسكناته . تمتد بين امكنين من جبل افانئين وبالاتين ساحة للسياح تحيط بها اروقة علتها مراق وادراج . وهذا المكان هو الملعب الاعظم اصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ الف متفرج . ثم وسع في القرن الرابع حتى صار صالحاً لاجلاس ٣٨٥ الف شخص وهناك كانوا يمثلون الفرجة التي يحبها الشعب الروماني وهي سباق المركبات ذات الاربعة الخيول فالركبة الواحدة تطوف الملعب من اقصاه الى اقصاه ثلاث مرات وعليها ان تقطع ٢٥ شوطاً في اليوم الواحد . وسائقو المركبات تبع لشركات تزام كل منها الاخرى ويلبسون لوناً من الالبسة خاصاً بشركتهم فكانت الشركات اربعاً باديء بدء ثم استحوذت ثنتين وهما الزرقاء والخضراء ولكل منهما شهرة في تاريخ التمرد . ولقد اولى القوم في رومية بسباق المركبات كما يولى الناس اليوم بسباق الخيل حتى كان موضوع حديث النساء والاولاد ايضاً وكثيراً ما يتعصب الامبراطور لفريق دون آخر في السباق وتكون من النزاع بين الزرق والخضر مسألة سياسية

انشأ الامبراطور فسبازين على ابواب رومية بناء الكوليزة وهي عمارة ضخمة ذات طبقتين تسع سبعين الف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان يصطادون فيه ويتقاتلون فاذا ارادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجري رجال مسلحون بحراب يصيدونها . وكانوا بنوعون المشهد يجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولا سيما النادر منها كالاسود والفهود والفيلة والديبة والجواميس والكركدن والزرافة والتمور والتاسيح . وظهر في الانعاب التي احتفل بها الامبراطور بومبي ١٧ فيلاً و ٥٠٠ اسد في الميدان وكانت لبعض الامبراطرة دار لغرائب الوحوش . ثم رأى القوم بدلاً من ان يجعلوا الرجال المسلحين امام الحيوانات ان يطلقوا الحيوانات على الرجال وهم عراة مقيدون . وشاعت العادة في جميع مدن الامبراطورية باستخدام المحكوم عليهم بالاعدام في هذه التسلية فاقتربت الحيوانات ألوفاً من الناس من كل جنس وسن ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور .

المصارعون — كان قتال المصارعين (رجال بايديهم السيوف) من اجل المشاهد الوطنية عند الرومانيين فينزل رجال مسلحون الى الميدان يتبارزون حتى يقتل بعضهم بعضاً وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصران صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجاً من المصارعين في آن

واحد وقد قتل اغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل نرجان مثل ذلك في اربعة اشهر . وكان المغلوب يذبح في الحال الا اذا عفا الشعب عنه

وكثيراً ما ياتون باناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع ولكن المتصارعين يكونون في الغالب من العبيد واسرى الحرب . وكل انتصار يجلب الى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضاً ليتلذذ المتفرجون (١) وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون وربما كان منهم الزنوج فيقتلون بالسلمحة مختلفة عن اسلحتهم الوطنية عادة . وكان يحب الرومان ان يروا هذه المقاتلات في صور مصفرة .

و كنت ترى بين هؤلاء المقتتلين في الملعب اناساً من المتطوعة الاحرار حدا بهم حبهم للخطر ان يقدموا انفسهم للصراع وقواده القاسية وان يقسموا لزعائهم بانهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحمي ويقتلوا نقتيلاً . وقد تجند غير واحد من اعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمنشردين بل تجند في زمرتهم الامبراطور كومود ونزل الى الميدان بذاته . ولا نقام هذه الالعب الخطرة في رومية فقط بل في جميع مدن ايطاليا وغاليا وافريقية (اما اليونان فقد استنكفوا من قبول هذه الالعب) واليك صورة كتبت على تمثال اقيم لاحد اعيان بلدة منشورن : « قد اظهر في اربعة ايام احد عشر زوجاً من المصارعين ما برحوا يقتلون حتى بعد ان سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دية هائلة ولا شك انكم تذكرونه ايها الوطنيون الاشرف »

وكان الشعب يهوى اوراق الدماء على نحو ما يجري اليوم باسبانيا في سباق الثيران . وينبغي للامبراطور كما ينبغي للملك اسبانيا ان يحضر هذه المجازر . ولقد فقد الامبراطور مارك اوريل ثقة العامة في رومية لانه اظهر مللاً من مشاهدة تلك الالعب فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلاً من ان يفرج . ولما صحب معه المصارعين لستخدمهم في قتال الدرابرة الذين هاجموا ايطاليا اوشكت الغوغاء ان تنمرد وصرخوا قائلين : « انه يريد ان يسلبنا تسليتنا ليضطرنا الى التفلسف »

المدارس = لم يخطر للقدماء قط ان يعلموا الاولاد كلهم فليس العبيد وحدهم بل السواد الاعظم من سكان الامبراطورية لم يتعلموا القراءة . على انه لم يكن في المملكة

(١) شكر احد الخطباء الامبراطور قسطنطين في خطاب رسمي القاه لانه قدم جيشاً برمته من البرابرة الاسرى ليتصارع امام الجمهور ولانه استعمل قتل الناس لتسليمة الناس . قال وليت شعري اي ظفر اجمل من هذا ؟

غير مدارس للاغنياء والوطنيين الرومانيين . وقلما نعرف المدارس التي يتعلم فيها أبناء الوطنيين والاجناد القراءة والكتابة . وقد كان راتب معلم المدرسة قليلاً جداً وأبناء الاولاد هم الذين يؤدون اليه راتبه . وطريقة التعليم عبارة عن ضرب الاولاد بقربة او بالعصي . وقد مثّلوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولداً يسكه اترابه بينما كان المعلم يضربه بالسوط .

وتعلم الأسرات الغنية اولادها على مؤدب يكون رومياً في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية . والمدارس العامة تقبل الشبان الاغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم اليها ليتعلموا فيها الخطابة . والغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ومرائهم عليها . وعلى ذاك المهد بدأ المفوهون او الخطباء يكتبون ويعلمون الناس كيفية الاداء فانفتحوا منذ القرن الاول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الاغنياء . وكان بعضهم يبرن تلاميذه على انشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة وقد حفظ لنا الخليل سينيكا عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها اولاد مخطوفون واصوص ومتشردون على اساليب مختلفة أسست على الولاء مدارس من هذا الطراز في جميع اقطار المملكة فكان في غالبا مدرسة قديمة في مدينة مارسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من ايطاليا . واصبحت مدرسة اوتون منذ زمن اغسطس عامرة اكثر من غيرها بالطلاب وهي التي بقيت عامرة الى آخر ايام الامبراطورية .

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريس واخرى في تريف . وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه واشهرها هي التي اصبحت مدرسة بوردو بعد ذلك .

تنفق المدن على هذه المدارس فتعين لها الاساتذة وتدفع لهم اجورهم والمقصد الاول منها تعليم ابناء الاسرات الغنية التكلم باللاتينية واليونانية وان يكتبوا فيهما ليتسكنوا من ان يكونوا موظفين . ويعلم فيها النحو والبيان خاصة . وكان اشهر استاذ في مدرسة اوتون في القرن الرابع الخطيب اومين ارسله الامبراطور قسطنطين وكان مدحه . واعظم رجل في مدرسة بوردو هو اوزون مربي ابن الامبراطور (٢٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متكلفة .

الاشراف — دثرت الأسرات القديمة الغنية في رومية الا قليلاً ولكن قام غيرهما من الأسر الحديثة التي اغنت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستئثار الاراضي المفتوحة . وكلما تمكن غني من ارباب الاملاك من ان يعينه الامبراطور حاكماً تشرف أسرته وبذلك شرفت (٢٥) .

جميع الأسرات الغنية في إيطاليا والولايات (حتى لم يبق في أواخر القرن الثالث أناس من الفرسان العاديين) وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملوك يعيش بين عبيده ملكاً صغيراً لا عمل له الا اتباع الشهوات وداره في رومية اشبه بقصر تنقص غرفة التشريفات (الانزبوم) كل صباح باناس من الزين (الزبونات) وهم اناس من الوطنيين يختلقون اليه لامور طليفة صباح كل يوم يسلمون عليه بالسيادة ويسارون موكبه في الشارع . لان الاصطلاح يطلب ان لا يظهر الغني ابداً امام الجمهور الا ومحيط به جماعة . وقد ضحك هوراس من احد القضاة لمروره بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط . وللكبراء خارج رومية مصايف هجة على شواطئ البحر او في الجبال ينقلون فيها لا عمل لهم والصغير آخذ منهم

ولم تكن واجهات البيوت هؤلاء الاغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة بل كانت كلها دائرة من داخل اما من الخارج فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل وهي مظلمة لا يدخلها الضوء الا من قاعة التشريفات وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الاجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل اليها النور من شق في السقف ووراءها البير يستيد وهي حديقة محاطة بصفوف من العمد وعليها تطل غرف الطعام مزينة انحرزينة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام لان ذلك كان من عادة اغنياء الرومان كما كان من عادة اليونان في آسيا . وكثيراً ما يكون بلاط الدار ممولاً بالفسيفساء .

الاخلاق — وصف سينيك في رسائله وجوفنال في اهاجيه الرجال والنساء في عهدهما وصفاً مزعجاً حتى اصبح فساد رومية القياصرة مثلاً سائراً في الغابرين . على ان هذا ناشيء من دوام اضطرابات القرون الاخيرة للجمهورية مثل بذخ الاغنياء الفليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء الممزوج بجنون . فلم يأت الشر من طريقة الحكم الامبراطورية بل من الافراط في جمع ثروات العالم اجمع بيد بضعة الوف من الاشراف او ادعياء الشرف وتحتهم بضع مئات من الاحرار يعيشون عيشاً سافلاً وملايين من العبيد يظلمون ظلماً هائلاً وكانت الاسرة الكبرى تندثر بسرعة حتى هال الامبراطور اغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الاحرار فسن قوانين لجل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة واذ كان تأثير هذه القوانين يحتاج الى زمن لم تنجح اصلاً . ولقد كثرت عديد الاعزاب من الاغنياء حتى غدت مدهنتهم من الصناعات الرائجة وذلك ليوحي لهم من يدهنون لهم بشيء من المال يأخذونه بعدهم . ومن حسن التدبير ان لا يرزق الغني ولداً فيكون محاطاً بالمرائين والمترفين . قال احد القصصيين الروحانيين : « ينقسم الناس في هذه المدينة الى طبقتين

منهم من بصطاد ومنهم من بصاد « وقال سينيكا : « ان في حرمان الاولاد زيادة نفوذ المرء » .

الطبقات النازلة — فقد اتميز بين الوطنيين الرومانيين والغرباء موقعه ومكانته اذ لم يعد في رومية انتخبات وشمل حق التملك على التدرج سكان الولايات . وجاء زمن على عهد كاراكالا (سنة ٢١٢) صدر فيه امر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية ولم يشعر بهذا الامر كثيراً لان العمل كان جارياً عليه من قبل بالفعل

ويمتاز الرجل امتيازاً خاصاً بثروته التي يملكها ويقسم الناس الى طبقتين : الاغنياء ، ويدعون اشرف الشرفاء ، وهم اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان واطباء ، مجالس الشيوخ في المدن وتؤلف منهم طبقة قواد العشرة اما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدقعون والسوقة الحقيرون .

فاشرف الاشراف وحدهم يحسبون في المجتمع وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ او طبقة الفرسان وجميع حكام المدن من قواد العشرة . ولهم كلهم امتيازات رسمية ومحال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات واذا حكم عليهم بالاعدام لا يصابون ولا يلقي بهم للوحوش في الملعب لان هذه العقوبات الخزنية كانت خاصة بالغوغا ، والعامة

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الارستوكراسي عيشة ضنكاً فيعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف الى الاغنياء ومداينتهم وهذه العيشة كانت خيراً مستوراً من الشحادة . ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في اراضي كبار ارباب الاملاك الذين يعاملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد وترى الفقراء في المدن صناعات او مرتزقة ومنزلتهم منزلة المعتق من العبيد . واذا حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب في بوزعه الحكم من الصدقات ويدخلون بدون اجرة الى متاهد التمثيل والالاب والحمامات العمومية وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات احواض تأتيتها الحارة من موقد جعل تحت الارض . والحمامات في مدينة رومانية كجمال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم . بل كانت الحمامات في مدن الرومان اعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مئات من المقاصير على اختلاف اجناسها فمن مقصورة باردة الى فاترة الى حارة الى صوان للذباب ومقصورة لذلك البدن بالزيت ومحل للحادثة ومقاصير للرياضة وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم . وقد شغلت خرائب حمامات كاراكالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الارض .

العبيد - وتأتي تحت طبقة الأحرار الفقراء الطبقة الأخيرة وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان . والسادة من الرومانيين كالشرقيين لهدنا كانوا يجبرون ان يحيط بهم جمهور من العبيد . في البيت الكبير الروماني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فمنهم الموكلون بالفرش وتعد الاواني الفضية والاعلاق والتحف ومنهم حفظة للثياب ومنهم وصائف ووصيفات ومنهم القيمون على الطبخ والحمام ومنهم رؤيس المتكلم ومعاونوه ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدنه في الشوارع ومنهم حملة الخففة (الحجارة) ومنهم الحوذيون والسواس ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والاطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وارباب الصناعات من كل صنف لانهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحيكون الصوف وينسجون الثياب . ومن هؤلاء العبيد من حبسوا انفسهم في المعامل يصنعون اشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم ومنهم من يؤجرهم اصحابهم الى الخارج على انهم بناءون او بحارة فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين . وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن .

عبيد الريف - كل ملك (نفتيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبساتينيون والصيدون يجعلون شرادم تؤلف كل شزمة من عشرة اشخاص . وبلا حظهم وكيل منهم يهيم عليهم . ويرى صاحب الملك ان من دواعي اعجابه ان تخرج ارضه كل شيء فهو لا يبتاع شيئاً وكل حاجياته تلبث في ارضه وهذا مما يجعلونه من جملة الثناء على الاغنياء فصاحب الارض يؤدي اليه عدداً عظيماً من عبيد الريف كما يسمونهم والملك الروماني اشبه بقريه ويسمى مصيفاً (فيلا) وقد بقي اسمها فاطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى وهو الملك الروماني القديم مكبراً

معاملة العبيد - يعامل العبيد بحسب اخلاق سيدهم من السادة النورين الذين اشتهروا بالانسانية شيشرون وسينيكا وبلين فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً جيداً او يجادونهم وربما اجلسوهم معهم على موائدهم ويسمحون ان يكون لهم اسرة وثرثرة صغيرة . وهناك سادة على العكس من هؤلاء عاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبوهم اشد العقوبات بل ربما قتلوهم لهوى في النفس . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد كان فوبوس بوليوس عتيق اغسطس يطعم السلور البحري (سمك مريضة) في برسته فكسره احد عبيده آتية على غير قصد فما هو الا ان القاء في البركة ليكون طعاماً لسمكه

وصف الفيلسوف سينيكا فظائع السادات بهذه العبارة : « اذا سئل أحد العبيد أوعطس خلال المأدبة أو طرد الذباب متهاوناً أو رمى مفتاحاً وسمع له صوت نكلب في

الاقتصاص منه وأي كلب فاذا اجاب رافعاً صوته قليلاً ودلت تلاميجه وجهه على سوء خلق أيقظ لنا ان نصر به بالسياط؟ وكثيراً ما نبالغ في الضرب ونقطع له عضواً ونقطع سناً « وهكذا رأينا الفيلسوف ايبكتيت وكان عبداً كسر مولاه ساقه . اما الذئب فلم يكن أيضاً على شيء من الشفقة واليك كيف امتدح ادفيد احدى العقائل قال : « مشطوا رأسها امامي مرات وماقط غرزت الابرّة في ذراع العبد الذي يثبطها »

وما كان الرأي العام ليحول دون هذه الفظائع فقد مثل جوفدال عقيلة غضبي على أحد عبيدها وهي تقول أصلبوه - وأي جريمة أتاها العبد حتى استحق هذا العذاب؟ وما انحسه ولم العبد من البشر؟ ومواء أتي أمراً إذا لم يأت فاني أريد عتابه وأمر به وارادتي هي الحجة في هذا الباب

اما الشريعة فلم تكن الطف من الاخلاق فكانت في القرن الاول قبل المسيح توجب بان صاحب البيت اذا ذبحان يقتل عبيده كلهم به . ولما أريد الغاء هذا القانون خطب ترازبا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالباً ببقاء هذا القانون .

والعبيد مطبق تحت الارض يدخله الدور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول اليها فاذا اتوا ما يغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل وفي النهار يبعثون بهم ليشغلوا عقيد بن بسلاسل من حديد ثقيلة . وكثير منهم من ستمت وجوههم بحديدة محماة

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية بل كانوا يطحنون الحنطة بطاحن باليد يديرها العبيد وكان ذلك من اشق الاعمال يندبون اليها عقوبة لهم في العادة . وكانت المطحنة قديماً مثل محبس (لومان) وقال بلوت « كان يبكي أشقيا العبيد الذين يطعمون البولانتا (سويق من دقيق الذرة) وهناك برن دوي الاسواط وقعقة السلاسل والاغلال » وبعد ثلاثة قرون أي في القرن الثاني بعد المسيح وصف اقصي ابولييه داخل مطحنة بقوله : « ايها الارباب ما اتعس هؤلاء المساكين من البشر فقد اسودت جلودهم وتبرقشت من ضرب السياط ولا تستر ابدانهم غير خرق من قيص مدموغة جباههم مخلوقة رؤوسهم مقيدة ارجلهم مشوّهة ابدانهم من الديران مقروضة جفونهم من الدخان وقد علام غبار الدقيق »

ولم يكن العبيد يكتبون ولذلك لانعرف ما هو رأيهم انفسهم في معاملتهم ساداتهم لهم . الا ان الموالي أنفسهم كانوا يشعرون بمحقد عبيدهم عليهم . ولما انتهى الى بلين لجون ما اصاب احد ارباب الاملاك من ذبحه في حمام بيد عبيده قال ملاحظاً : « هو ذا الخطر الذي يتهددنا كلنا » . وقال كاتب آخر : « اصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم أكثر من حقد الظالمين »

الشركات — كان في جميع بلاد الامبراطورية في الشرق اليوناني اكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الفروب والاشكال . فمنها شركات لارباب الصناعة الواحدة وشركات للمثلين والمصارعين وشركات اديية وشركات لاجتماع السكيرين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الاغنياء مثل جمعيات الجبابة وكان اعضاؤها يلتزمون الاموال الاميرية . ومثل جمعيات التجار الذين يتجرون بين ايطاليا وغاليا ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفاً من صعايلك القوم .

واقعد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات ثم تسامحت بها حتى اذا كان القرن الثالث اخذت تمد اليها يد مساعدتها ولكن الحكومة لم تمنع قط الجمعيات لدفن الموتى وكانت هذه الجمعيات لتألف من اناس مساكين لا يستطيعون ان يقتنوا ارضاً لتكون لهم قبرا فكانوا يشتركون ويدفعون اقساطا للحصول على سرب يكون مشتركاً بينهم ليدفنوا فيه امواتهم . فالمغارة او السرب المعد لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمون بها برج الحمام بسبب شكلها .

وعلى هذا كان اعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وقبر دائم لهم على الدهر وهو ما كانت القدماء يحرصون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات بالأسماء حزن لئلا تكون شؤماً بل يسمونها باسماء ارباب ويسمون شركات الصغار وكان يدخل فيها كثير من العبيد وتجعل جميع الشركات الا قليلا تحت حماية احد الارباب ليجمعيها (مثل جمعيات الاطباء التي اطلقوا عليها اسم اسكولاب) وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية الا ان يتعبدوا كلهم جماعة . والحكومة لاتدر الارزاق الا على المعابد والكنهه وبعض الشعائر الرسمية . وجميع الاديان الاخرى كانت منظمة على هيئة جمعيات . ولاهلهما صندوقهم وكنهنهم ومصلاتهم ومذبحهم وحفلاتهم . وكانت الكنائس النصرانية اولاً شركات من هذا النوع .

واهم الشركات شركات ارباب الصناعات فكان منها في عامة المدن حتى ان العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها واعضاؤها في المادة من ارباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة باسماء صناعات اعضائها فقد كان في افيز شركة حلاجي الصوف وفي جنيف شركة الملاحين وفي ليون شركة عملة البناء . وتقبل كل شركة في اعضائها اناساً من اهل صناعة اخرى . ومن العادة ان يكون لكل شركة عبادة تتبد رباً وتقيم عيداً للاحتفال به يحملون فيه علمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناع المسيحيين) وهذه

الشركة تقوم بـدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة . ولكل شركة مديران يختاران من المعلمين ويكونان في العادة وكيلًا وامين صندوق ينتخبهما الاعضاء كلهم الا انه لم يكن لها ادنى سلطة على ارباب الصناعة وما كان يكره احد على الدخول معهم

الحقوق الرومانية

دين البيوت — يعبد اعضاء كل اسرة باجمعهم اجدادهم ويحتضمون حول مزار واحد نار باهم واحدة ولم وحدهم ان ينظروا اليها ولا يحق لاحد ان يعبد اجداد أسرة الا اذا كان من فرع اولئك الجدود . ويقام المزار الذي يجعل فيه ارباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب . والاسرة الرومانية اشبه بكنيسة صغيرة لها دينها وعبادتها لا يقبل فيهما احد غير اعضاءها ولذلك تختلف كثيراً عن الاسرة الحديثة لان نظامها ديني . الزواج — اخذ الزواج الروماني يصير احفاداً دينياً فيسلم الاب ابنه المخطوبة الى خارج الدار فتمهل في موكب الى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة وهي : « العرس ابتها العروس » حتى اذا جاؤا بها الى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار وهناك يقسم الزوجان بحضور ارباب الاسرة قطعة من الحلواء معمولة من الحواري وكانت يسمى الزواج اذ ذاك شركة الحلواء .

وند اخترع الرومان منذ الزمن الاطول ضرباً من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط وهو اما ان يبيع المخطوبة احد اوليائها واقربائها بحضور شهود من قبل زوجها ويصرح هذا بانه ابتاعها على ان تكون زوجته وهذا زواج البيع واما ان تحب الزوج فتساكن زوجها ومتى قضيا سنة معاً يعتبران متزوجين وهذا الزواج بالعادة الرومان كاليونان يرون الزواج فرضاً دينياً والدين يأمر بان لا تندر الاسرة . وعند ما يتزوج الروماني يصرح بانه اتخذ زوجته ليكون له منها اولاد . وقد طلق احد اشراف الاغنياء زوجته وكان يحبها حباً جماً لانه لم يرزق منها اولاداً .

المرأة — ليست المرأة الرومانية حرة اصلاً فهي في شبيبته ملك ابها يختار لها زوجاً واذا تزوجت يصير امرها بيد بعلمها ويقول الفقهاء انها في يده وانها مثل ابنته . وبالجملة فللمرأة سيد على الدوام بيده موتها وحياتها .

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق بل هي مساوية في المكانة لزوجها ويدعونها أم الاسرة كما يدعون الرجل أبا الاسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسيطر على النساء الرقيقات فتكلفهن بجميع الاعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه . وتجلس في قاعة التشرفات من الدار لتسج وتحيك وتوزع الاعمال بين الاماء وتلاحظ الاولاد وتدير

شؤون البيت . وابست المرأة الرومانية كالمرأة اليونانية بعيدة عن الرجال بل لتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر امام الناس في الحفلات وفي دور التمثيل وامام المحكمة . الا انها في العادة تكون جاهلة امية وذلك لان الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم . واهم صفة يعتبرونها في المرأة ان تكون زاهدة فاذا ماتت يكتبون على قبرها اشارة الى مدحها : « انها التزمت بيبتها ولم تخرج منه وغزت الصوف » الاولاد — الولد الروماني لايه بمثابة ملك له وللوالد الحق في ان يعرضه في الشارع فاذا اخذه يريه في بيته اولاً والبنات يبقين في البيت ريثما يتزوجن وهن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة امهاتهن والبنون يعملون في الحقول مع آبائهم ويتبرنون على استعمال السلاح ليس الرومان شعباً مفتناً في الصناعات وغاية امانهم ان يعرف ابنائهم القراءة والكتابة والحساب وهم لا يطلبون على ذلك مزيداً فلا يعلمونهم الموسيقى ولا الشعر وبلقونهم القناعة والصمت والحشمة في مآثيهم والطاعة في منازعهم .

ابو العائلة — ان من يطلق عليه اسم سيد البيت يدعوه الرومان ابا الاسرة . فابو الاسرة مالك للاملاك وكاهن في عبادة الاجداد وسلطان الاسرة فهو الحاكم التحكم في بيته يحق له ان يطلق زوجته ويطرد ابناؤه وان يبيعهم ويزوجهم بدون ان يأخذ رأيهم . ويحق له ان يستأثر بما يملكونه لنفسه بل وكل ما تحمله اليه زوجته وكل ما يكسبه اولاده . اذ لا يوغ للمرأة ولا لاولادها ان يملكوا شيئاً وبالجملة فيبيده حياتهم ومماتهم اي انه قاضيهما الوحيد . ان ارتكبوا جريمة قرب الاسرة يحكم عليهم لا الحاكم .

اصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني امره ذات يوم باعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باخوس فنفذ الحكم على الرجال . اما النساء اللاتي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس الى آباء الاسرات في امرهن وهم الذين اعدموا نساءهم وبناتهم . كان الشيخ كاتون يقول « ان الزوج قاضي امرأته له ان يعمل بها ما يشاء فاذا ارتكبت غلطاً يعاقبها واذا تناولت خمرأ يحكم عليها بالاعدام واذا خانت يقتلها » ولما كان كاتالينا يكيد المكاييد لمجلس الشيوخ لاحظ احداهم ان ابنه اشترك في الكيدة فاوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت . وتدمر سلطة ابي الاسرة بدوام حياته والابن لا يخلص من عبوديته له حتي انه اذا اصبح قنصلاً يظل خاضعاً لسلطة ابيه . ومتى مات الاب يصبح الاولاد اصحاب بيوت اما امرأته فلا تكون حرة اصلاً بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها بل تخضع لابنها نفسه التملك = كانت الثروة في القرون الاولى لرومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصاً واللفظ الذي دلّ بعد على الدراهم معناه قطع . ويسمى المالك رب الاسرة . ومن المحتمل

ان الارض لم تكن تنتقل بالارث لان لفظة ارث عندهم تدل على ارض مساحتها فدانان وهو المكان الذي يكفي لانشاء بيت وحديقة . ولم يلبث الرومانيون ان قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحباً له وعندئذ وضع حق التملك للشاذية والعبيد والاراضي والبيوت وكانوا يعرفونه بانه حق الانتفاع والتخريب (الاستعمال وسوء الاستعمال)

ثم صار لهذا الحق ان يتناول كل شيء من الحاجات والاثاث والدرهم والعقود والديون وحقوق الاستمتاع . ويجب على من اراد ان يملك شيئاً ان يملكه على الصورة التي عينتها العادة . واليك مثلاً كيف تجري صفقة المبيع : يضع البائع امام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يمثل الميزان بيديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن المبيع . فاذا كان هذا حيواناً او عبداً يسكه البائع بيده ويقول : هذا لي بموجب القانون الروماني ابتعته بهذا النحاس الموزون وزناً حسناً .

ثم ابتدعوا طرقاً اسهل لنقل الملك من يد الى يد فصاروا يكتبون بدفع المبيع الى المتابع . وهذه الطرق لا تملك تملكاً رسمياً بل يكون المكتني للملك متمتعاً به ولكن هذا التمتع يحوله نفس الحقوق كما لو كان ملكاً رسمياً له .

ولصاحب الملك الحق في ان يعطي املاكه بعده لمن يشاء واذا لم يوص بشيء من هذا القبيل يقسم اولاده ثروته واذا اراد ان يغير نظام الوراثة يكتب وصيته . وكان يجري ذلك بمجلس امام مجلس الامة زمناً طويلاً ثم اصطلحوا على صورة متكافئة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد ان يجعله وريثاً له وانتهت الحال بان اصبحوا يكتبون بوصية مسطورة وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الاولى ان يوصي لمن يشاء وان لا يترك شيئاً لاولاده ثم اكراه القضاة آباء الاسر بالتدريج على ان يوصوا لكل واحد من اولادهم بقسم من ثروتهم فاخذ ينال كل ولد قسماً من الارث .

الواح الوصايا الاثنتا عشرة . لم يكن عند الرومان في مبداء امرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة بل كانوا يجرون على عادات الاجداد اي ان كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه كما جرى الجيل السالف . وقد سنّ حوالي سنة ٤٥٠ عشرة احكام متعقبين شرائع كتبوها في اثني عشرة لوحة من الحجر . وكانت هذه شريعة الاثني عشرة لوحة أنشئت احكاماً موجزة شديدة قطعية وما هي الا ثنتين جاف قاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له . فموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر اذا تلا كلمات سحرية ومزعج حقله بغلة جاره . واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين : « اذا لم يدفع يرفع امره الى القضاء واذا عاقه المرض او السن عن الحضور يركب حصاناً او

محفة ويمهل ثلاثين يوماً فإذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسور او سلاسل وزنها ١٥ ليرة و بعد ستين يوماً يبيعه فيما وراء نهر التير والدائنين اذا تعددوا ان يقطعوا المدين ارباً ارباً ولا غبن اذا قطعوا منه قليلاً او كثيراً قال شيشرون كانت شريعة الاثني عشرة لوحة منبع التقنين الروماني بأسره وكان الاولاد في المدارس يستظفرونها بعد اربعة قرون من وضعها .

الاشارات في الدعاوي -- لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الاشخاص في مسائل البيع والشراء والارث فلا يكفي لاجل اخذ حكم المحكمة الرومانية ان يعرض الانسان قضية بل يجب عليه ان يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض اشارات تقضي بها العادة وكل قضية تقام امام المحكمة يجري تمثيلها بالاشارات . فللمطالبة بشيء يسكه المدعي بيده وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بججر على هذا الحائط . وهالك مايجري اذا اختلف اثنان في ملكية حقل . بأخذ الخصمان بايديهما كأنيهما يريدان ان يتضاربا ثم يفترقان ويقول كل منهما : « اصرح بان هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فانا ادعوك باسم محكمة القاضي الى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا » فيأمرهما القاضي ان يذهبا الى الحقل قائلاً لهما : اذهبا فهذا طريقكما امام الشهود الحاضرين . فيخطو الخصمان بضع خطوات كأنيهما ذهبا وفي ذلك رمز الى ذهابهما . فيقول لهما احد الشهود : ارجعا . وبذلك اشارة الى انهما ذهبا الى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب وهي اشارة للحقل . وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للخصمين . والرومانيون كسائر الشعوب القديمة لا يحسنون فهم غير ما يقع تحت انظارهم فبالمداديات يتثولون الحق الذي لا يرى .

ولقد كان الرومان يحترمون هذه الاشكال القديمة من الاحكام من وراء الغاية فكانوا في القضاء كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون ان يهتموا بالبحث عن معناه وعندهم ان كل دستور مقدس يجب المبالغة في تنفيذه ومن الحكم الجارية في قضاياهم ان كل ما يفوه به اللسان يكون حقاً . فاذا غلط صاحب الدعوى في ايراد مدعاه يخسر قضيته واذا اقام رجل قضيته على جاره لانه قطع له كرمه يجب ان تكون الصورة التي يوردها امام المحكمة حاوية لكلمة « شجرة » فاذا استعاض عنها بكلمة « كرم » لا يحكم له .

واحترام هذه المراسم على اطلاقها فنج للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة فالشريعة تقول ان الاب اذا اباع ابنه ثلاث مرات يحجر الولد من سلطة ابيه ومتى اراد روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتحريره .

وكانت الشريعة تنفي قبل البداءة بحرب ان يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو . ولما أرادت رومية اعلان الحرب على بيروس ملك ابير الذي كانت مملكته في عبرالادرياتيكت رأّت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات ان يتناح احد رعايا بيروس . ربما كان من الآبقين من الجنديّة حقلاً من رومية فاوهموا بان هذا الحقل اصبح ارضا من بلاد ابير وراح المنادي يلقى فيها حرباً ويدعو فيها للحرب علناً . وكان الرومانيون مثل جميع الامم الفتيّة يعتقدون باطلاً ان للمراسيم المقدسة فضيلة سحرية

الفقه — كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة نافضة فكانت تعرض مسائل كثيرة لاحل لها في قانون من القوانين الموضوعة . ففي مثل هذه الاحوال الصعبة كانت العادة متبعة ان يعمد الى الاخذ برأي بعض اتخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق . وكانوا من اهل الاعتبار ومنهم قناصل قدماء او احبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم اجوبة العقلاء . ومن العادة ان يكون لهذه الاجوبة شأن وقيمة لان استجابها الحكام على جانب من الاعتبار والحرمة . وقد زاد الامبراطور اغسطس بان عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر ان تكون اجوبتهم قانوناً يعمل به . وعلى هذا صار الحقوق علماً وعلماء الحقوق او الفقهاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه

أمر القاضي — دعت الحال في رومية الى نصب حاكم اعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللفصل أو القاضي فقط ان يدير شؤون محكمة او يحقان الحقوق . واذ كان النناحل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعمدون في العادة بالنظر في الحقوق الى القضاة . وكان في رومية قاضيان حاكمان على الاقل يفصل احدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوي التي تنشأ بين الوطنيين والاجانب ويسمى قاضي الاجانب وهناك محكمتان لان الغريب لا يحاكم امام محكمة الوطنيين .

وهذان القاضيان بالنظر لما لهما من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على ما يترأى لهما . بل ان قاضي الاجانب لم يكن مقيداً بقانون لان الشرائع الرومانية لم توضع الا للوطنيين الرومانيين . ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمراً يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الاحكام ويسمون هذا الامر امر القاضي . وبعد سنة عند مانتعي مدة القاضي يسقط قانونه فيبقى خلفه ان يسن قانوناً مخالفاً لقانون سلفه جملة واحدة ولكن جرت العادة ان يحتفظ كل قاض بما صدر عن اسلافه من الاوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف اليها بعض زيادات . وهكذا تجمعت أوامر القاضي

قروناً . ثم انتأ الامبراطور هاردن في القرن الثاني « براءة القاضي » وجعلها قانوناً مرعي الاجراء .

واذ كان هناك محكمتان منفصلتان احدهما عن الاخرى وضعت قاعدتان متباينتان وقانونان مختلفان فتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية أي حقوق المدينة ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الاجانب نتألف حقوق الناس اي الشعوب (الغريبة عن رومية) فادرك القوم اذ ذاك ان عدل هذه القواعد في الحقوق وبسطها واعقلها و بالاجمال افضاها الحقوق الاجنبية وان حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد محصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية . اما حقوق الناس (الاجانب) فكان اساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلوا رومية وهي عادات سالمة من كل شائبة ووهم وطني أخذت بمرور الايام وافرها الاختبار قروناً كثيرة . ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة مخالفة للعقل . فقد جاء في بعض الامثال الرومانية « ان الحق الناصع هو الذي ننفضه سلطنة عليا ظالمة » وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يصححون القانون القديم ويحكون باحكام العدل حتى بلغوا بالتدريج ان ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الاجانب يجري عليها في محكمته .

مثال ذلك ان القانون الروماني يقضي ان يرت الاقارب من الذكور فقط الا ان القاضي دعا الاقارب من النساء ان يشتركن في الارث . ويقضي القانون القديم بان لا يكون المرء صاحب ملك الا اذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بانه يكفي المبتاع ان ينقد البائع ثمن ما ابتاعه وان يضع يده على الملك حتى يعد مالكا - وانت ترى ان حقوق الاجانب تلبت على الحقوق المدنية وأبطلتها

القانون المسطر - أنشئت الحقوق الرومانية على عهد الامبراطرة خاصة فاصدر الامبراطرة الانطونيون كثيراً من الاوامر والالوانح وكانت هذه رسائل تصدر عن الامبراطور جواباً عن الموظفين الذين يستظلمون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا الاصلاح القضائي اناس من التشريعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حسن سيرتهم او ساءت من الامبراطرة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق ويصلحون ما وجدوه منها قديماً . ومن أشهرهم بابينين واولبين ومودسين وبولس فان تأليفهم هي التي كانت أساساً للحقوق الرومانية بعد

وهذه الحقوق التي نضمت في القرن الثالث لاشبه بينها وبين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الاحوال اذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقتبس المشرعون افكار فلاسفة اليونان

ولا سيما الرواقين منهم وذهبوا الى ان الحرية حق طبيعي لكل من يولد حراً أي ان العبودية مخالفة للطبيعة ولذلك رأوا انه يحق للعبد ان يطلب انصافه حتى من سيده وان هذا اذا قتل عبده يجب ان يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم ابيه وهذا القانون الجديد هو الذي سموه بعد بالقانون المـسـطور وهو في الحقيقة قانون جروا فيه مع الفلسفة على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه اثر للقانون الجائر المعروف بقانون الانختي عشرة لوحة . فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الامبراطورية باسرها زماناً طويلاً ذاك القانون الذي لم يرح بعضه داخل في قوانيننا بل هو قانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسج فيه على مثال الحكم الماثورة عن حكماء اليونان ثم مزج كل ذلك مزيجاً واحداً وكتبه اناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قرونًا طويلة

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام) - كان الاسرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكاً لهم ومخلصاً فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صغرى، من الشمال اسمها الجليل لا تكاد تعرف بانها يهودية . ولد من اميرة وضيعة تحترف بالتجارة . فسماه اتباعه من الروم المسيح اي الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس كما دعي السيد والرب والمخلص . كلنا نعرف الديانة المسيحية . فيكفي اذا ان نبين ماهي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم . فقد اوصى المسيح اولاً بالمحبة فقال « انك تحب الرب الهك من كل جوارحك وفكرتك وستحب قريبك كما تحب نفسك فجامع الشريعة وتعاليم الانبياء داخله في هاتين الوصيتين » فمن الواجب محبة الغير واسعادهم ومتى قضى الله بين عباده يجعل على يمينه من اطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسوا العراة . ويقول المسيح لمن يريد اتباعه اولاً : « اذهب فبع مالك وادفعه للفقراء ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والغني والشجاع هو الرجل الصالح الا ان هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فاصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره . فعمل الخير هو محبة الغير والسعي في نفعهم . والاحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) اساس التقوى . وغدت لفظة محب مرادفة لللفظة محسن . وضع المسيح تعليمه في الاحسان بدلاً من التعليم الاسرائيلي القديم في الانتقام فقال « عرفتم بانه قيل العين بالعين والسن بالسن اما الآن فاقول لكم اذا ضربكم احد على خدكم الايمن فقدمو له الايسر . وقيل احبوا قريبكم وابغضوا عدوكم اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم وافعلوا الخير مع من يبغضونكم وباركوا لمن يضطهدونكم لتكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين

حتى ان المسيح وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال : اعف عنهم يارب فانهم لا يعرفون ما هم فاعلون .

احب المسيح الناس قاطبة . ومات لا من اجل شعب واحد بل من اجل الانسانية كلها . وما قط ميز بين الاشخاص فكلهم سواء امام الله . ولقد كانت الاديان القديمة حتى دين اسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتمه بعناية احتفاظه بكنز ثمين دون ان تحدته نفسه في تبليغه شعباً آخر فقال المسيح لتلاميذه اذهبوا اذا وعلموا جميع الامم .

وبعد ذلك قام بولس احد الحواريين وقرر تعليم المساواة النصرانية بقوله : « لم يبق اولون ولا آخرون كما لم يبق روم ولا يهود ولا مطهرون ولا قالف ولا برايرة ولا عبيد ولا احرار فقد اصبح المسيح هو الكل في الكل . »

كان القدماء يذهبون الى ان الثروة تعلي شأن الانسان و ينظرون الى ان الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح : « طوبى للفقراء فان لهم ملكوت السموات » « من لم يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذاً لي » حتى انه هو ايضا كان يتنقل من مدينة الى مدينة ولا سبد له ولا لبد وعند ما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم : « لا تقلقوا لما تأكلون ولا لما تلبسون والقوا بانظاركم الى الطيور في السماء فهي لا تزرع ولا تحصد ومع هذا فان اباكم السماوي متكفل برزقها »

فعلى المسيحي ان يحتقر الثروة وان يشتد في الازدراء بالعظمة . كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الاول في السماء فقال : « ان اعظمكم هو الذي يخدم غيره لان من يرتفع يسقط ومن يسقط يرتفع » وما زال البابا الى اليوم وهو خليفة القديس بولس يدعى بخادم خدمة المولى . كان المسيح يؤثر ان يجتذب اليه المساكين والمرضى والنساء والاولاد بل والضعاف والمحرمين واختار حواريه من عامة الناس وكان يكرر على مسامعهم « تاطفوا وألینوا قلوبكم »

ملكوت الله — كان المسيح يقول انه جاء الى الارض ليؤسس ملكوت الله . فظن اعداؤه انه طامع في ملك وعند ما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة : « يسوع الناصرة ملك اليهود » وهذا كان خلاف ما بقصده . فقد صرح المسيح نفسه بان ملكوتي ليس في هذا الارض . فلم يحىء ليقاب الحكومات ولا ليصلح المجتمع واجاب من سأله فيما اذا كان يجب ادائه الجزية للرومانيين بقوله : « ادفع ما لقيصر لقيصر واد ما لله لله . ولذا رضي المسيح بما رآه موجوداً وعمل على تهذيب نفسه وتكميلها لا على اصلاح المجتمع ولا لاجل ان يفوز المسيحي بمرضاة الله ويكون اهلاً لبلوغ ملكوته لا يقتضي له ان يقدم

التذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة كما فعل القريسيون اليهود او عبدة الارباب القديمة « فان المتعبددين الحقيقيين يعبدون اباهم بالفكر وبالْحَقِيقَةُ » وكلمة المسيح هي حجاب آدابهم وهي : « كونوا كاملين مثل ابيكم الذي في السموات فانه كامل »

الحواريون — عهد الى الاثني عشر حوارياً الذين كانوا ملتفتين حول المسيح ان يبشروا بتعاليمه في الامم باسمها . فدعوا بالحواريين (المرسلين) سكن معظمهم القدس ودعوا الى دينهم في ارض اليهودية . وكان المنتصرة الاول من الاسرائيليين .

وكان شاول اول من دان بالنصرانية وخف يحمل تعاليم هذا الدين الي امم الشرق ففضى بولس (هو الاسم الذي اتخذته احياته يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومكدونية داغياً الى الدين الجديد لا الاسرائيليين فقط بل ابناء الامم الاخرى قائلاً كنتم فيما سبق بدون المسيح بعيدين عن المحالقات والوعود وها قد النأتم شتمكم بدم المسيح لانه هو لا يميز بين الشعبين وينظر اليهما كأتهما شعب واحد . ولم يعد من حاجة ان يكون المرء اسرائيلياً حتى يتقبل النصرانية فان الامم الاخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح . وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الامم .

كان المنتحولون للنصرانية باديء من يونان آسيا الصغرى ثم انصروا كثيرون في جميع المدن الكبرى واتى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية ايضاً مؤلفة من ابناء يونان . فانتشر دين المسيح اولاً ببطء على نحو ما بشر بذلك المسيح بقوله : « يشبه ماكوت الله حبة من الخردل فهي اصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات اطول من جميع البقول فتؤوي طيور السماء الى ظلها » .

الكنيسة الاصلية — كان المسيحيون في جميع البلاد التي نزلوها يجتمعون للصلاة جماعة وانشاد امداح المولى وللاحتفال بالاعشاء السري وهي اكلة يتناولونها بالاشتراك تذكراً الآخر اكلة للمسيح وتسمى اجتماعاتهم الكنيسة (المجلس)

ومن العادة ان يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضاً بمعاملة الاخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الارامل واليتامى والمرضى . واكثر رجالهم احتراماً بينهم الرهبان ومعنى ذلك القديس بدرون شؤون الطائفة ويقومون بالفروض الدينية . ويتولى آخرون النظر في املاك الطائفة وكانوا يدعون الشماسة (الملاحظون) ثم كثرت اعمال الكنيسة حتى انقسم سواد المسيحيين الى فرقتين احدهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة ومهمهم رجال الكهنوت (اي خدمة الرب) والباقيون هم جمهور المؤمنين ومهمهم العامة (العلمانيين)

كان لكل مدينة كنيسة مستقلة فيقولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنت وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة وهي كنيسة المسيح حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بايمان واحد . فالاعتقاد العام او الكاثوليكي كان هو المولود عليه دون سواه اما الاراء الخاصة (الهرطقات والاختلافات) فكان يحكم عليها بانها اوهام واغلاط .

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود اي العهد القديم مقدساً عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب اخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد . فالانجيل الاربعة نقص حياة المسيح والبشارة بما حملة من السلام . واعمال المرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم . ورسائل الرسل هي رسائل ارسلها الحواريون الى مسيحيي العهد الاول والابوكاليسيس (رؤيا القديس يوحنا الانجيلي او الجليان) هو ماوحاه القديس يوحنا الى السبع كنائس في آسيا . كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين الى اواخر القرن الثاني وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا انها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة

الاضطهادات — اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها فكان اليهود اعداءها الاول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم الى صلب المسيح ورجعوا القديس انتين (الشهيد الاول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكانوا يقتلونه ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فان هؤلاء كانوا ينسامحون مع جميع اديان الشرق لان عبدة اوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالاديان الرومانية مع اربابهم الا ان المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزدرون بالعبودات الصغيرة القديمة بل ان الجريمة الكبرى التي تعد على المسيحيين في نظر الرومانيين انهم كانوا يابون عبادة الامبراطور كما يعبد رب وان يحرقوا بالجور على مذبح ربة رومية

وقد اصدر كثير من الامبراطرة أوامر الى ولايتهم بأمر ونهيم بالقبض على المسيحيين واعدائهم . وقد كتب بلين وكان والياً في آسيا الى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جريت الآن مع من اتهموا بانهم نصاري على الطريقة الآتية وهو اني أسألهم عما اذا كانوا مسيحيين فاذا اقرؤا أُعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً اياهم بالقتل فان اصرروا أنفذ عقوبة الاعداء عليهم مقتنعاً بان غلظهم الذي يعترفون به مما كانت فظاعته وان عنادهم الشديد وعدم طاعتهم يستحقان العقوبة .

وقد وجهت الشكوى الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها فانكروا بانهم نصاري وكرروا الصلاة على الارباب الذين ذكرت اسماءها امامهم وقدموا الخمر والجور لتمثال

اتيت به عمداً مع تمثيل الارباب بل انهم شتموا المسيح . ويقال ان من الصعب اكرام
النصارى الحقيقيين . ومنهم من اعترفوا بانهم نصارى ولكنهم كانوا يشبتون بان جريمتهم
وخطأهم محصوران في انهم اجتمعوا بعض ايام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه
رب . وعلى انشاد الاناشيد اكراماً له وتعاهدوا بينهم مقسمين الايمانات لاعلى ارتكاب جريمة
بل على ان لا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزناوا ويوفوا بعهودهم . ورأيت من الضرورة للوقوف على
الحقيقة ان أعذب امرأتين أمتين دعوها خادمتي الكتابة بيد اني لم اقف على شيء اللهم
الاما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها »

وعلى هذا فقد كانت الحكومة هي المضطهدة (١) الا ان العامة في المدن الكبرى كانوا
اكثر اضطهاداً للمسيحيين فلم يكونوا يتسامحون مع هؤلاء الذين يعبدون الها آخر عرير بايهم
ويحتقر هذه الارباب ويرون ان انكار المسيحيين لما يعبد الرومان يجلب على العالم غضب
هذه الارباب . وكنت تسمع القوم اذا وقع قحط ومجاعة ووباء يهتفون هتافهم الذي انتهر
امره «النصارى للأسود» والشعب يكره الحكماء على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم .

الشهداء — هلك الوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف ناله فيها الاضطهاد في
طول المملكة الرومانية وعرضها وكان الهاكون من كل سن وجنس وطبقة . فالوثنيون
الرومايون تضرب اعناقهم كما جرى للقدس بولس والباقيون يصلبون ويحرقون وكثيراً ما
يلقون للوحوش الكاسرة نهنهم . واذا ابقوا عليهم يبعثون بهم الى الاعمال الشاقة في المناجم
وكثيراً ما كانوا يبالغون في عقاب النصارى بايجاد وسائل لاهلاكهم من كل نوع . ففي
المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ اخذ المسيحيون بعد ان نذبوا وسجنوا في مطبق
ضيق الى ان لعب فاخذت الحيوانات الكاسرة تمزق اوصالهم ولا تقتلهم ثم اجلسوهم على كراسي
من حديد محما بالنار . واذا قاومت فتاة من الامراء اسمها بلاندين انت تعذب على هذه
الصورة جعلوها في شبكة ووضعوها امام ثور غضبان .

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يفتح لهم ابواب السموات ويرون
فيه وسيلة الى الاستشهاد علناً في حب المسيح ولذلك كانوا يسمون انفسهم بالشهداء (اي
الشهود) لا بالمتكوبين وعقوبتهم شهادة . بل انهم كانوا ينظرون الى تعذيبهم نظراً الى
قتال الالهاب الاولبية ويرون انهم كالمصارع الظافرون الفخار والناج . وما يرحوا حتى
اليوم يحتفلون بعيد الشهداء واعيادهم موافقة للايام التي قتلوا فيها وكثيراً ما كان احد من
.....
.....

(١) نقول الكنيسة ان المسيحيين اضطهدوا مرات الاولى على عهد نيرون (٦٤) والثانية

على عهد ديوكلسين (٣٠٣)

يخضرون تعذيب احد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته وهذه الكتابات على اختصارها طائفة بالعبارة وكانت تسمى اعمال الشهداء وتنتشر حتى بين الطوائف البعيدة من اقصى المملكة الى اقصاها وما هي الا مرددة للمجد الذي احرزه المعترفون بالايمان الصحيح وداعية الى الترغيب في الجري على مثالهم

ولقد حدا حب الشهادة بالوف من المسيحيين ان يعلنوا امرهم بانفسهم ويطلبوا بالحكم عليهم وامر احد حكام آسيا ذات يوم بالقاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع متنصرة المدينة يتقدمون للمحكمة طالبين اليها محاكمتهم . فاستشاط الوالي غضباً فقتل بعضهم وطرد الآخرين قائلاً : «ارجعوا اليها الاسافل ان كنتم تحرصون كثيراً على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال تقيدكم » وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد ويقلبون فيها اصنام الارباب ليكونوا على ثقة من انهم يشفقون حتى قضت الحال ان تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة

الدياميس - - كان المسيحيون ينكرون العادة القديمة في احراق الموتى فاخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نواويس بعد ان يكفونهم في اكفان فاحتاجوا الى قبور . واذ كانت الارض غالية الثمن جدا نزل المسيحيون الى تحت الارض وحفروا في الارض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفاً ارضية وهناك كان المسيحيون في مقاصير احتفروها على طول الحواجز يدفنون موتاهم واذ اخذ كل جيل يحفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الارض مع الزهن مدينة ارضية سموها الدياميس . ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والاسكندرية الا ان اشهرها دياميس رومية . وقد فُتحت في ايامنا فُرواً فيها الوفاء من القبور والكتابات النصرانية و باكتشاف هذا العالم المدفون تحت الارض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية وهو علم الكتابات والآثار النصرانية . وقد شوهد ان قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة الا قليلاً وهي اما ان تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة او الراعي الصالح وهو رمز للمسيح . وكانت بعض هذه القاعات اتسبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في ان يدفنوا في جوارهم وكانوا يأتون كل سنة لتناول الاسرار . وكثيراً ما التجأ المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث الى هذه الكنائس الارضية للقيام بصلواتهم او للفرار من الطلب عليهم .

قسطنطين

تغلب النصرانية - مضي القرنان الاولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الشأن في

الامبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوفة والمملة والبيد المعتقين والبيد من يضيعون في غمار الناس بالمدن الكبرى وقد مضى زمن والطبقة العالية لشكر وجودهم حتى ان سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح قال انه رجل اسمه كريستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية . ولما اخذ الاغنياء والادباء يننون بامر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم الا ليهزوا به ولا يذكرونه الا انه دين فقراء وجهلة . واذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بان وعدتهم الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثرت اتباعها والقائلون بالتدين بها ولم تحل الاضطهادات دون انتشارها بل قوتها وبعثت كتبها فقد كان المسيحيون يقولون ان دم الشهداء بذر للمسيحيين وتقد ظل الاهتداء الى النصرانية ينشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الاسرار الكبرى لا بين الفقراء فقط وما جاءت اوائل القرن الرابع الا وقد اصبح الشرق كله ابي البلاد التي لتكلم باللغة اليونانية مسيحياً باسمه وكانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين مسيحية فجعلتها الكنييسة في مصاف القديسات ولما زحف هذا الامبراطور على مزاحمه ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى ان يقوموا بشعائر دينهم دون ان يعارضهم احد (بامره الصادر سنة ٣١٣ م اخذ يعطف عليهم جواراً . ومع هذا لم يتخل عن الدين القديم (الوثنية) . فبينما كنت تراه يرأس مجلس اساقفة المسيحيين الاعلى كان يلقب بلقب الحبر الاعظم ويحمل على خوذته سماراً من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس . وقد انشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية كما أنشأ مبدآ تذكاراً لهذه الغلبة . ومضى نصف قرن كان فيه من الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الامبراطورية .

تنظيم الكنيسة — لم يخطر في بال المسيحيين حتي في الازمان التي نالهم فيها الاضطهاد ان يقلبوا كيان الامبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم اصبح اساقفتهم حلفاء الامبراطور وعندها انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة قطعية على الصورة التي بقيت عليها الى يومنا هذا . فصار لكل مدينة اسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الارض الخاضعة لاسقف ابرشية . وكان في اقطار الامبراطورية الرومانية ابرشيات واساقفة على قدر ما فيها من مدن وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاساقفة كثيرين والابرشيات صغيرة في الشرق وفي ايطاليا حيث كثرت عدد المدن . وعلى العكس في مدن غاليا فانه لم يكن بين الرين والبيرنيه سوى ١٢٠ ابرشية ومعظمها ما عدا ابرشيات الجنوب في الجسامة كولاية .

اصبحت كل ولاية مقاطعة كاثائية وسمي اسقف الماسمة اسقف المركز بعد رئيس الاساقفة . وكثيراً ما ينظر الى اسقف اعظم مدينة في بقعة بانه ارقى الاساقفة في تلك الارزاء وكان اساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وانطاكية والاسكندرية والاستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا اسقف رومية وهو الرئيس الاعظم في الكنيسة . وفي هذا القرن انشئت المجامع الدينية الكبرى مكان في آسيا الصغرى اولاً بمجامع خاصة يجتمع فيها اساقفة ناحية من النواحي وكنيتها . وفي سنة ٣٢٤ دعا قسطنطين للمرة الاولى مجعاً دينياً عاماً من اهل الارض الى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلاً من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وانشؤا الاعتراف بايمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية وما زال المسيحيون ينشدونه الى اليوم في قداس كل احد . ثم كتب الامبراطور الى عامة الكنائس ان تتمثل ارادة المولى التي تجلت فيما اجمع عليه المجمع العام وكان هذا هو المجمع المسكوفي الامل . واصبحت القرارات التي تقررها المجامع شريعة يجب على المديحيين قاطبة ان يعملوا بها وسموها القوانين او القواعد . ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية .

الملاحدة (المراطقة) نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الاعظم من ابناء الكنيسة . وكثيراً ما اجتمع الاساقفة في بلد ليعلنوا للمؤمنين بان المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه واذا ابى يخرجونه من الوحدة المسيحية . وقد يستجيش صاحب البدعة اعواناً يقتنعون بصحة دعوته فلا يروى الرجوع عما وافقره عليه ويظنون يدينون بتاحكم المجمع برده من الآراء . ومن هنا نشأت العداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المديحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الارثوذكس) واذ كان المسيحيون ضعافاً ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم الا بالكلام والكتابة ولكن لما اصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء الى اضطهاد الملاحدة وكثيراً ما انتدب منه حروب اهلية .

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذلك العهد بين بوزن آسيا ومصر على يداناس من الادياء والسفسطائيين والنجاديين وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم اسرار التثليث والتجسد . وكانت بدعة آريوس اقوى جميع البدع فمن مذهبه ان الله الاب خلق المسيح وليس هو مثله فحكم المجمع النيقى بتبديعه ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة . ومذ ذلك العهد ظل الكاثوليك والاريوسيون يتنازعون بينهم ايهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب الاقوى يعزل وينفي ويحبس واحياناً يذبح زعماء الحزب المخالف . ومضى زمن

والقوة للآريوسيين وقد تحزب ليقولهم عدة من الامبراطرة ثم ان الآريوسية كانت تقوى
بكثرة دخول البرابرة في الامبراطورية وتمذهبهم بهذا المذهب وعاذتهم لاساقفته .
فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع .

اواخر ايام الامبراطورية

لما ذبح الجنود اخوة قسطنطين وابناء اخته سنة ٣٣٨ افلت منهم طفل في السادسة
من عمره اسمه جولين فجعله الامبراطور نسيبه في اقاصي آسيا الصغرى ورباه على يد
قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء الى قبر الشهداء ينشد المزامير ويتلو الكتاب المقدس
امام الشعب ولما شب رخص له بالقدوم الى الاسكندرية فانشأ يدرس كتب بلغاء الروم
وفلاسفتهم واولع باحد الفلاسفة الافلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية . واتم دروسه
في آتينا وتعلم فيها استمرار معبد الوزير ثم جاهر بانه من اشباع الدين القديم علناً واخذ
يحقتل بعبادة الارباب فلقبه المسيحيون بالمرتد .

كان جولين آخر من بقي حياً من الاسرة الامبراطورية واذ لم يكن للامبراطور قسطنطين
وارث يرثه غير هذا اجمع امره على ان يلقبه باسم قيصر وبعث به قائداً على جيش غاليا
(٣٥٥) وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابة من الالمانيين على مقربة من
مدينة اوتون . واذ لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همته الى درس الفلغة فصرف
شتاء بطوله في تعلم صناعة الكر والفرواشأ يريض نفسه ويقرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة
فلما تم له ذلك حمل على الالمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفرسان البرابرة
فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب اكتاف
الالمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين اخرى وجعل
مشتاه في بلدة لوتيس حاضرة الشعب الباريزي وهي مبنية في جزيرة من جزر السين وكان
يدعوها «لوتيس المحبوبة» وهو اول من وصفها .

وفي هذه المدينة اتاه امر الامبراطور ان يبعث اليه بقسم من جيشه الى الشرق ليقا تل
البارثيين الذين داهموا بلاد الامبراطورية فلم ير الجند ان يتعدوا عن بلادهم الى مثل تلك
القاصية وابوا ان يقاتلوا ثم اخذوا جولين ورفعوه على ترس (وكان هذا الاسلوب هو الذي يجري
عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة ملوكهم) وحملوه وهم ينادون «جولين اغسطس» (٣٦٠)
فكتب جولين الى الامبراطور يريد على ان يراضيه رصيفاً له فابى قسطنطين عليه
ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية وكان قسطنطين قفى نخبه قبل وصوله (٣٦١)
ولما خلا الجو لجولين واصبح امبراطوراً وحده اقام في الشرق وحاول ان يعيد الدين

القديس (الوثنية) فارجع الى الكهنة املاكهم ومناصبهم واعاد تقديم النذور الارباب بل اصدر امره الى المسيحيين بان يرجعوا للمعابد التي كانوا حولوها الى كنائس وانشأ يناهض النصرانية مباشرة واني ان يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين المسيحيين من المدارس قائلاً انه لا يحق لهم ان يدرسوا كتباً يذكر فيها اسم الارباب وهم لا يعتقدون فيها . وسعى الى اعادة الدين القديم الى حاله بان عهد الى الكهنة ان يقرؤا على العامة مواعظ ودروساً دينية الا ان الزمن خانهم فسادوا في حملة على البارثين وغلبهم واصيب بسهم في احدى المعارك . وقيل انه صرخ وهو يجود بنفسه «لقد غلبت يا غالي !» القضاء على الوثنية — لم يقض على دين السوق القديم لاول مرة فقد اهتدى الشرق في الحال اما في الغرب فلم يبق مسيحيون الا في المدن بل ان الامة ظلت هنا أيضاً تعبد الاصنام وذلك لان الامبراطورة الاول مسيحية لم يريدوا ان يقضوا القضاء الاخير على دين المملكة القديم بل كانوا يحمون القديسين المسيحيين كما يحمون كهنة الارباب يرأسون المجامع الدينية وبقون احباراً عظاماً . وكان الامبراطور فراسين سنة ٣٨٤ اول من ابدى ان يلقب بالخبر الاعظم واذ عم التسامح في ذلك القرن بديء باضطهاد الدين الروماني منذ غدا غير رسمي . واطفيء الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ احد عشر قرناً وطردت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا يوقدن النار كما خدمت . واحتفل آخر مرة بالالعاب الاولمبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ . وعندئذ خرج النساك في مصر من الصحراء لينقضوا مذابح الارباب المزورة ويجعلوا بقاياها في قبور انوبيس وسيرايس . وقام وارسل الاسقف السوري في مقدمة عصاة من الجند والمشعوذين فغرب معبد المشتري في افامية وانشأ يحجب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين فما هو الا قليل حتى لم يبق عبدة اوثان الا في القرى ياوون اليها فراراً من المراقبة وهم فلاحون ممن بقوا يعبدون الاشجار المقدسة والبنابيع ويجمعون في المزارات البعيدة . واخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سموهم الى ذلك العهد بالظرفاء وبقي ذلك الاسم يطلق عليهم . وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في ايطاليا وغاليا واسبانيا الى اواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت .

التنظيم الجديد في الامبراطورية

رومية والقسطنطينية — خرب الغرب وقل سكانه في القرن الثالث بما تواتر عليه من الحروب والغارات فاصبح الشرق اليوناني القسم المهم من الامبراطورية . وكان ديوكسين قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى . اما قسطنطين فتوسع

في الامر أكثر من ذلك فانشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية على رأس من انجر في محل لا يفصل اوربا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في ارض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الاديحوانشأ طواري من الروم مدينة بيزانس وكان لها من الآكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأ وها المعروف بقرن الذهب من احسن مرافئ العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٢٥٠ متر الثلاثا تخطاه اساطيل العدو . فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في اطراف الاسوارا عالية وانشأ فيها ساحتين اثنتين تحيط بهما الروفة . وانشأ فيها قصراً وملاعباً ودور تمثيل واقنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية

ونزع قسطنطين من المدن الاخرى ما كان فيها من التماثيل والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولأجل اسكانها نقل اليها سكان المدن المجاورة بالقوة وقدر مكافآت والقاب تشريف للأمر الكبرى التي تنتقل اليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الخنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة الغريبة على نحو ما يجب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بافتتاحها في ١١ ايار (مايو) سنة ٣٣٠ ولكن استمرت بحيث تبقى على الدهر فقد صبرت القسطنطينية على هجمات المهاجمين عشرة قرون وبقيت بمقام عاصمة ابداً والمملكة الرومانية تمزق ولا تزال الى اليوم اول مدينة في الشرق

ولما ترك الامبراطور رومية لم تعد مقرراً للحكومة وظل فيها مجلس اعيانها وان لم تعد له سلطة وبقى مزاراتها واحتفالاتها كما بقيت الى اواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم . القصر - اخذ الامبراطرة الذين نزلوا الشرق في التعمود معاداته (١) وانشأوا يلبسون ثياباً ضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجاً مرصعاً بالؤلؤ ويحجبون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراؤهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس . وعلى من ينال شرف الخنطة من

(١) كثيراً ما يتولى الامبراطورية اثنان احدهما في الشرق والاخر في العرب وان تكن المملكة واحدة . فالامبراطوران وان كان احدهما ينزل الاستانة والاخر ايطاليا كانا يمتنان بان يكونا كشخص واحد . فكان القوم اذا خاطبوا احدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له انتم كأنهم يخاطبون الامبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد لان الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد «انت» حتى الملوك والامبراطرة

مواجهتهم ان يسمجد امامهم ويمرغ وجهه في الارض علامة العبادة والخضوع ويطانون عليهم القاب «المولى» و«الجلالة» ويعاملونهم معاملة الارباب وكل مايمس اشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة . ومجلس الامبراطورية المقدس والحزانة المقدسة .

فكان عيش الامبراطور في الامبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرب الاول الى الثالث اشبه بحياة حاكم او قائد ام قصر الامبراطور في الامبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو اشبه بقصر ملك فارس . وقد أطلق على طريقة الحكم في الامبراطورية الشرقية اسم الامبراطورية الواطئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالامبراطورية العالية .

الموظفون - اصبح الموظفون اكثر عدداً مما كانوا ويحفظ بالامبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس وقرناء ووكلاء وخدم ومجلس عال وحجاب وسعاة وامناء سريشسمون الى اربعة مكاتب . واصبح الموظفون في الولايات اكثر سواداً ايضاً اذ رأى الامبراطور ديوكسين الولايات، متسعة فقسمها الى عدة قطع في غالبها مثلاً قسم ولاية ليون الى اربع واكيتين الى ثلاث . وبعد ان كان في الامبراطورية ٤٦ والياً اصبح فيها ١١٧ ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قواداً عسكريين من دوقات وكننية في الولايات الواقعة على التخموم .

واصبح جميع الموظفين لا تصلهم اوامر الامبراطور مباشرة فلا يخاطبون الا كبار الموظفين رؤساءهم . فيخضع الولاة لقائدي حرس القيعر والموظفون في الاشغال العمومية لحرس المدينة . وجباة الاموال الى الكونت الذي يتولى الاعطيات المقدسة . والوكلاء للكونت المشرف على الاملاك والضباط الى موالي الاجناد وجميع موظفي القصر يرجعون الى مولى التشريفات وخدمة القصر الى رئيس الغرفة المقدسة . وهؤلاء الرؤساء كالوزراء وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا ان نرى موظفين وقضاة وقواداً وجباة ومهندسين على اختلاف في اعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص ويرجع امرهم الى ناظر هو رئيس ديوانه . بل ان عندنا من النظارات اكثر مما في الاستانة . الا ان هذه الاداة الادارية التي ألفناها لاننا نعرفها منذ الطفولة ليس فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة . فقد كانت الامبراطورية الشرقية نموذجاً في هذا الباب واحتفظت به الممكة البيزنطية ومن ذاك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة ان تنسج على منوالها لان في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون اعمال الحكم .

المجتمع في الامبراطورية الشرقية - كانت هذه الامبراطورية هي الحد الفاصل

في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع نخفخة ملوك الشرق يتألف منها سلطة لم يكن بها عهد الى ذاك العهد . وهذه السلطة التي لم يسمع بثقلها تأتي على كل شيء في بعدها فلم يعد سكان الامبراطورية وضنيين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبالرومية « العبيد » فكانوا كلهم من ثم عبيد الامبراطورية ولكنهم يختلفون في المقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم اياه مولاهم ويورثونه ابناءهم واليك تلك المناصب بحسب درجاتها .

(١) اشرف الاشرف وهم الاسرة الامبراطورية

(٢) المشاهير وهم وزراء رؤساء الدواوين

(٣) المعتبرون وهم كبار ارباب المناصب

(٤) المجددون وهم كبار الموظفين (وبدعون الاعيان)

(٥) اهل الكمال

واكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه . واكثر الناس احتراماً الندما والموظفون حتى صرح ان يدعى ذاك العهد عهد الانقلاب والنشريات . وما قط شوهد الى اي حد تبلغ السلطة المطلقة اذا دعمها الجيوش في الالقب والميل الى ترتيب كل امر بالاكثر من القوانين وعليه فقد كانت الامبراطورية الشرقية مثالا تاما للجنم يدار بالآلة الصماء والحكومة فنيته في ارادة قيصرها تخازت اقصى ما يتطال اليه حتى اليوم اتحار السلطة المطلقة وسيكاف بعد امتياع الحرية زمناً طويلاً تلك التقاليد التي ابقتها امبراطورية الشرق .

حكومة المدينة -- لم يعين الرومان بحماية اموال الرعايا بانفسهم بل كان الامبراطور يكتفي ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية . وذلك كل خمس سنين في الغالب (ويحدده كما يريد . ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها ادائه . فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب . وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاً له بين السكان فاذا عجزوا عن الدفع يتجه على من تولوا الخراج ان يسدوا العجز لانهم مسئولون عن الخراج وخزائنه الامبراطورية لانتهازل عن حقوقها .

ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوباً فيده كآدم من أسباب الشرف فيعد الجابي في مدينته كعضو الديوخ في رومية . واذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزدهق النفوس في توليتها . فرأى الامبراطورة ان يسنوا قانونا لعقاب من يأبى جباية الخراج فصار الجابي يتولى ذلك رغم أنه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فدانا من الارض ان يكون احد الجباة طوعاً أو

كروها . وكثير من الجباة كانوا يؤثرون ان يخرجوا عما يملكون من الاراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرهينة والخورنة او الاستخدام والجندية . فصدر الامبراطرة اوامره بالبحث عن هؤلاء الفارين وان يعادوا الى مدنهم بالقوة . وقد جاء في احد القوانين المستونة انهم عبيد الامبراطورية

فكانت الحكومة تحاول ان تبقى محابس الشيوخ في المدن على هذه الكيفية واذ كانت تخرب بيوتهم بخراجها اصبح عدد الجناة ابدًا في قلة . وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الامبراطورية الغرية من مئة عضو . وفي القرن الرابع نشبت فتن في احدى الولايات فأمر احد الامبراطرة ان يأتوه برؤوس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب اليه الوالي « ليسع حكمك ان بقرر ما الذي يجب ان نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة »

المستعمرون . وقع في الامبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل اسبارطة ويونان وايطاليا وهوان بضحل الاحرار ويخلفهم العبيد ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين . لاجرم ان المدينة الرومانية لم تخرب بل كانت آخذة بالنماء . فقد كان عدد الوطنيين في القرن الاول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث (٢١٢) اوقد صدر أمر الامبراطور بمنح جميع سكان الامبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين (١) وينمون باضمحلال سائر سكان العالم بيد ان الحكم الروماني كان سببا في اضمحلال شعوب المملكة كما اضمحل به من قبل اهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد

وبهذا الحكم يفلح الاغنياء ويصعب على صغار ارباب الاملاك ان يقفوا امام الكبراء فيستخدمون في الجندية او يخربون بيوتهم بأيديهم . ويقتني صاحب الاملاك الواسعة اراضيهم حتى ان زمن لم يبق في بعض البلاد غير املاك واسعة يحرسها العبيد . هؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فاذا عرض عارض من العوارض المألوفة اذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلاك جمهور من الحراثين في احدى الاملاك نبق الارض يورا

نقلت القرى على التدرج ولا سيما ما كان منها على اتخوم من الناس ولم يبق سكان الا في المدن بل صار في عدة انحاء من المملكة قفار حقيقية خلت من السكان والعمران (١) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذاك العهد ولم دخل البرابرة الى غالبا لم يجدوا فيها غاليين بل رومانيين حتى كان السع في الشرق حيث كان السكان يتكلمون باليونانية يدعى الى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني وما زالت الى اليوم بلاد الاستانة تدعى روم ايلي

فانشأ الامبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأسروهم ليجيوا بهم موات تلك القرى . الا ان هؤلاء البرابرة لا يملكون الاراضي بل يستعصرونها فقط مثل اخيلوتيين في اسبارطة ويقضى عليهم ان يبقوا في الارض التي أنزلوا فيها لا يفارقونها ولا اولادهم بحال يودون الى صاحب الارض مائلاً مقررأمن ثم كانوا مستأجرين الى الابد بالقوة . وليس هذا النظام جديداً بل كان في ايطاليا على عهد الامبراطورية الشرقية أناس من الطواريء من الاحرار الفقراء قيدوا انفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضاً يزرعونها . وزاد سواد هؤلاء الطواريء زيادة كبرى لما ضموا اليهم الاسرى من البربر

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في احياء امة لان اولئك الحرائث كانوا يفرون او يهلكون وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من المغربين (داكيز واثيلا) كان في اراضي المملكة فراخ كبير تعذر على الامبراطرة ان يسدوه . وبقي في غالبا واسبانيا وايطاليا وفي الغرب كله جزء من الاراضي بورا ثقلة العالمين فيها واقفرت ولايات القحوم وقد اضحل الشعب الروماني في جميع حوض الطوبة من سويسرا الى البلقان منذ القرن السادس فلم يكن في تلك البلاد الا اثم جرمانية او سلافية . حتى ان انفرنك لم يجدوا في البلجيك غير قفر .

البرابرة في الجيش الروماني - هذه الاراضي الخالية تستدعي سكانا جديداً وكان البرابرة يحاولون على الدوام ان يتخطوها وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لا يصعب عليها ان تردهم على اعقابهم . الا ان الامر في التجنيد صار الى الصعوبة كاليجاد المثل . وألف سكان الامبراطورية حياة السكون ولم يعودوا يهتمون بخدمة الجندية . حتى اضطرت الحكومة ان تطلب جنداً من كبار ارباب الاملاك فيأخذ هؤلاء بعض الطواريء الذين يعملون في اراضيهم فكان هؤلاء المساكين المأخوذون بالقوة من وراء محاربتهم جنداً غير كفوء للقتال . وغدت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لا تستطيع حمل الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات

واصبح القواد يؤثرون ان يستعصموا المحاربين من البربر لانهم يقاتلون بشدة على الاقل وقد جندت الامبراطورية في خدمتها منذ زمن جنوداً من الجرمانيين يتناولون جريات ويقاتلون بأسلحتهم وكان اكثرهم من الفرسان واخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع يجندون منهم عصابات برمتها ينزلون مع نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراض يهبونهم اياها على سبيل الجزية . ويحتفظ هؤلاء المحاربون التنازلون في ارض رومانية بلغتهم وعاداتهم

وبسلاحهم وزعمائهم ويدعون "المخالفين" وبلغ بالامبراطور انه اخذ يقبل منهم في جيشه شعوبا برمتها مثل الوزيغوت والبورغند وكانوا اجتازوا النجوم بالقوة احيانا ثم آثروا ان يكونوا في خدمته على ان يقاتلوه . فأصبحت اذ ذاك جهوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري . واتقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة اتيلا سنة ٤٥١ مؤلفاً من الوزيغوت والفرنك والبورتمندوسار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفاتوس وار يوكاست او معظمهم في القرن الخامس) مثل ستيلكون ورسمير وادواكر امن اصل بربري ولم تعد الامبراطورية الرومانية شمعية الا بناس من الحار بين من البرابرة فاحتلها بعد ابناء جنسهم



